تنبيه العقول

إلى

كنوز ثلاثة الأصول

تأليف/

د. عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضْلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإن التوحيد هو المرتكز الأساس لدين المسلم فلا يصح الدين إلا به، فبه بدأ الرسل دعوتهم. بل نذروا حياتهم واسترخصوا أنفسهم وأموالهم لأجله.

ولأهميته كتب العلماء الربانيون فيه المؤلفات الكثيرة ومن هذه المؤلفات ذلك الكتاب الماتع النافع «كتاب ثلاثة الأصول».

وهذا الكتاب من أعجب ما رأيت مما قد سطرته يَراعُ عالم من حيث الشمول وسهولة العبارة ووفائها بالمقصود وربط كل شيء بدليله مع اعتنائه بالتربية الجادة والتأصيل العلمي مما جعل أهل العلم يعتنون به عناية خاصة، تعليماً وحثّاً على تعلمه،

ووصية بطباعته وتوزيعه، **ومن ذلك:**

ما قاله الشيخ عبدالله العنقري حاثاً على تعلمه: «واحرصوا على تعلم ثلاثة الأصول، فإن الذي ما يعرف دينه من جنس البهائم»(١).

وكان الشيخ محمد بن إبراهيم «يدرس بعد شروق الشمس كتاب التوحيد وكشف الشبهات وثلاثة الأصول والعقيدة الواسطية باستمرار»(٢).

ووصّى الشيخ علي بن محمد المطلق بعد موته بعشرة آلاف مصحف، وعشرة آلاف نسخة من ثلاثة الأصول توزع على المسلمين(٣).

أما الشيخ ابن باز فدرس ثلاثة الأصول مائة مرة يوم أن كان قاضياً في الدلم.

لذا رأيت أن أكتب عليه شرحًا متوسطًا يبين معانيه ويوضح شيئًا من مراميه، سائرًا على طريقة المؤلف من حيث التأصيل، ومخاطبة القلوب، والبعد عن الردود والمناقشات، وسميته:

«**تنبيه العقول إلى كنوز ثلاثة الأصول**».

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله.

وكتبه

عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

٠٥٥٤٣٨٠٨٨٨

---

(١) «الدرر السنية» (١٤/ ٣٤٤).

(٢) مقدمة «مجموع فتاوى» محمد بن إبراهيم (١/ ١٢) للشيخ ابن قاسم.

(٣) «علماء آل سليم» (٤١٢).

دراسة الكتاب

دراسة أي كتاب هي المفتاح الصحيح لفهمه ومعرفة مراميه ومراد مؤلفه منه ولأجل ذلك بدأت بدراسة الكتاب **وجعلت الدراسة في فقرات هي:**

١- بدأ المؤلف رحمه الله كتابه بالتربية وذلك بذكر مقومات الشخصية الإسلامية التي هي (العلم) لكي ينفي الجهل عن نفسه -وفرق بين المتعلم والجاهل- ثم (العمل به): لأن من تعلم ولم يعمل بعلمه لا قيمة لعلمه عند الله بل ولا عند الناس، فيعاقبه الله، ويسخر منه الناس، وبعد أن يكمل نفسه لا بد أن تكون نفسه ذات همة عالية تصبو إلى تكميل الآخرين وذلك (بالدعوة إلى الله) كي يصلح المجتمع كله.

ولا بد لمن دعا إلى الله أن يصيبه الأذى، وهذه سنة جارية على الرسل وأتباعهم. فلا ينحدر من أول الطريق فيتقوقع على نفسه. ويسكت أو يتنازل عن شيء من دينه، ولكن عليه (أن يصبر على ما يصيبه من أذى) ليحصل له تبليغ الدعوة وينال ويظفر بالأجر من الله والرفعة عنده تعالى وتقدس.

وأدلة هذه المسائل الأربع كثيرة جدًّا، ولعلَّ اختياره الاستدلال بسورة العصر:

لأن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يتفرقوا حتى يقرؤوها.

ولأنها جمعت هذه المسائل الأربع في موضع واحد. فيتذكرها المتعلم ويعلم ترابطها فلا ينسى منها شيئًا. لذا فهي ترسم منهج حياة متكامل. كما قال ذلك الإمام الشافعي رحمه الله.

٢- أن المنهج الصحيح والطريق الوحيد الذي يجب أن يلتزمه الإنسان هو منهج الرسل وهو التوحيد، فمن تمسك به أفلح ونجا ومن حاد عنه خاب وخسر «أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا بل أرسل إلينا رسولًا فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار».

ومن حسن طرحه للمنهج ربطه إياه بالثمرة حتى تتحرك الهمة وتعلو فقال: «فمن أطاعه دخل الجنة...»

٣- أوضح ﷺ المنهج المنحرف والمخالف الذي لا يرضاه الله تبارك وتعالى وهو منهج إبليس وفرعون وأتباعهم، وهو الكفر والشرك والضلال والانحراف. وأنه مناقض للطريق الذي قبله فلا يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك الأكبر في قلب عبدٍ أبدًا، فمن أشرك فقد ناقض الفطرة وصارت حياته وبالًا عليه.

فاحذر أن تكون من أهله فتخسر الدنيا والآخرة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الزمر:١٥].

٤- حتى يسلم لك توحيدك وتثبت على منهجك السليم وتسلم من الانزلاق في مهاوي الردى عليك أن تتمسك بالسياج الواقي من الوقوع في الشرك وهو البراءة من الكفار فتبغض أعداء الله وتعاديهم مستشعرًا أنك في حد وجانب وحزب وهم في حد وجانب وحزب.

قال ابن القيم بعد وصفه للشرك الأكبر: «وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده»(١).

٥- لما كان الاستمرار على الطريق ومعاداة أعداء الله لأجل الله وإظهار ذلك لهم من أعسر ما يواجه المسلم كان لا بُدَّ من إبراز القدوة، وأبرز القدوات هو خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وذلك لأنه اجتمع فيه من المقومات ما لم يجتمع في غيره.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

فاستشعار المسلم بأن هناك من سبقه إلى هذا الدين وثبت عليه وصبر وصابر فنصره الله وأعزه وجعل العاقبة له، فلم يضره كيد الكائدين ولا حسد الحاسدين، يوجب له قوة التمسك بالدين والعزة به وإن خالفه من خالفه، وعاداه من عاداه.

٦- لما كانت هذه المقدمات الثلاث تعطي تصورًا عامًا ينتج مثقفًا فقط قد لا يستقيم على المنهج الصحيح تأخذه الأفكار يمنة ويسرة مذبذبًا. تارة مع هؤلاء وأخرى مع أولئك على حد قول الشاعر:

يومًا يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت مَعَدِّيًا فعدناني

أتبعها المؤلف بأهمية التأصيل الذي به ترسخ قدم المؤمن بالإيمان ويسير على منهج سوي مستقيم فقال: (فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة؟)

فَأَسِّسْ بهذه الأصول الثلاثة بنيان دينك وثبته بها، لأنه لا بد لكل بنيان من أساس، فإذا ثبت الأساس ثبت البناء وإن لم يثبت الأساس انهار البناء.

وأساس دين الإسلام هو هذه الأصول الثلاثة: (من ربك - ما دينك - من نبيك).

الرب هو المعبود. واستدل بربوبيته على إلاهيته وأنه المستحق للعبادة، والدين هو الذي به تزكو النفوس وتستقيم القلوب، فتثمر رضا الرب الكريم سبحانه، والرسول هو الواسطة الذي بلغنا هذا الدين فليس لنا طريق غير طريقه ﷺ.

٧- أنواع العبادة جزء من الأصل الثاني [الدين] ومع ذلك قدمها المؤلف فجعلها ضمن الأصل الأول؛ لأن ذلك أدعى لإفراد الله بها كما ورد في المثل: «الطرق والحديد ساخن».

وذلك أنه لما بين لك من عظمة الله ما هزَّ جوانحك وحرك قلبك خوفًا منه ورجاءً لما عنده واستشعرت في قرارة قلبك أن من كانت هذه صفته فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ناسب أن يذكرها لك كي تبدأ بها مباشرة متوجهًا إلى ربك قاصدًا بها وجهه الكريم وحده.

٨- أشار إلى أهمية المفاصلة التامة الشعورية والجسدية بالهجرتين القلبية والبدنية:

أما القلبية: فقد أشار إليها عند قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر:٥] حيث قال: (هجرها تركها والبراءة منها وأهلها).

وأما البدنية: فإنه عرفها بقوله: (والهجرة: هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام).

فبهاتين الهجرتين تستقيم على دينك وتثبتُ عليه وتنصرُ إخوانك المسلمين وتُقَوِّي شوكةَ الإسلام.

٩- تكفل الله بحفظ هذا الدين ولم يجعل بقاءه مربوطًا بأيِّ شخص كان، مهما علت رتبته وارتفع مقامه وجاهه عند الله عز وجل.

وأعظم الناس رتبةً هو نبينا محمد ﷺ ومع ذلك توفي وبقي الدين غضًا طريًا كما أُنزل.

فإذا لم يرتبط بقاء الدين برسول الله ﷺ الذي هو خير الخلق كلهم فعدم ارتباطه بغيره من باب أولى. ولقد جلَّى هذه الحقيقة أعلم هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ساعة موت النبي ﷺ فقال: «من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت»(١).

فالزم أيها الأخ المبارك السَّيْر مع قافلة الإيمان مستمسكًا بهذا الوحي المنزل موحدًا لربك كي تسعد دنيًا وأخرى.

١٠- تتدرج النفوس الكبيرة في مراقي الصعود طلبًا للكمال، فما أن تبلغه حتى تغمرها الفرحة فَتَعَضُّ عليه بالنواجذ.

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٥)، كتاب: «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٥٤).

وأعظم كمال وأكمله كمال الدين الذي ندين لله به ونتقرب به إليه.

ولما كان الدين شريعة رب العالمين تولى الله إكماله بنفسه ولم يدع لأحد مجالًا للزيادة فيه فقال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

فإذا استقر كمال الدين في قلوبنا أَوْجَبَ لنا الاكتفاء به وعدم قبول شيء من خارجه مع التزام اتباع النبي ﷺ في أفعاله وأقواله. وبهذا نسلم من الابتداع في الدين.

ولما كانت هذه الحقيقةُ مستقرةً في قلب عمر رضي الله عنه كتب ذلك التوجيه السديد للمسلمين عندما وجدوا الكتب في بلاد الفرس قائلًا: «اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منها، وإن يكن ضلالًا، فقد كفانا الله شرَّها»(١).

ونعرف قدر توجيهات عمر رضي الله عنه إذا نظرنا إلى نشوء البدع والانحراف بعد ترجمة كتب اليونان.

١١- حتى تستعد للمستقبل وتسارع إلى فعل الطاعات وترك المنهيات ذكِّرك بالنهاية التي تلاقيك وهي الموت فاحذر منه في كل لحظة، واحرص على التزود من الطاعات قبل النقلة، مستلهمًا في ذلك توجيه المصطفى ﷺ: «**أكثرُوا ذكرَ هاذم اللَّذات**»؛ يعني: الموت(٢).

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٤٤٣).

(٢) أحمد (٢/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٥٣)، كتاب «الزهد»/ باب ما جاء في ذكر الموت. رقم (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب، وفي الباب عن أبي سعيد، والنسائي ٤/ ٤، كتاب الجنائز، باب ذكر الموت، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الموت والاستعداد له. رقم (٤٢٥٨)، وقال الدارقطني: «والصحيح المرسل». «العلل» (٨/ ٣٩)، وصححه النووي. «الأذكار» (١٣٢)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٥/ ١٨١).

١٢- تتصرمُ الليالي والأيام وتنطوي الأعمارُ سريعًا لكنْ يا ترى ما هي محصلتُها أهي حياة تنتهي بالموت ولا شيء بعد ذلك. فيستوي الصالحون والطالحون أم أن الحياة الأخرى مبنيةٌ على هذه الحياة فيكرم الطائعون ويعذب العاصون؟

لا شك أَنَّ الثمرة هناك في الدار الآخرة ولهذا قال المؤلف رحمه الله: (والناس إذا ماتوا يُبْعَثُون وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم).

فمن وحد الله وأطاعه فليبشر بجنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ومن عصى الله وأشرك معه غيره فالويل له من نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

١٣- لا تقل المعوقات الداخلية -داخل المجتمع المسلم- خطورة عن المعوقات الخارجية في صد المسلم عن الاستمساك بدينه وإفراده ربه بطاعته ولذلك حذر منها المؤلف.

وإن شئت أن تدرك شيئًا من خطورتها فاقرأ ذلك الحوار الدائر بين المستكبرين والمستضعفين، وفي آخره جواب مِلَؤُهُ الحسرة والندم والأسى تَفَوَّهَ به أولئك المستضعفون كما ذكره الله بقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[سبأ:٣٣]. ولما كانت تلك المعوقات كثيرة يصعب حصرها نبه على أكبرها وأعظمها أثرًا وأشدها خطرًا فقال والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة. فاحذرهم أيها المسلم أن يفتنوك عن دينك وأنت لا تشعر.

١٤- ما أجمل هذا الختام حيث ختم رحمه الله بعلاج المعوقات النفسيه والداخلية والخارجية فأورد قوله ﷺ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ وَعَمُودُهُ الصّلاة وَذِرْوَة سَنَامِهِ الجِهادُ فِي سبيلِ اللهِ**».

فبالتوحيد يصح دينك ويقبل عملك وبالصلاة تصلح حالك فتنتهي عن الفحشاء والمنكر.

وبالجهاد باللسان مجاهدة المنافقين في الداخل بكشف باطلهم والرد على شبهاتهم.

وبالجهاد بالسنان مجاهدة الكافرين في الخارج بجميع أنواع الجهاد، طلبًا كان أو دفعًا.

وبهذين النوعين من الجهاد صدٌّ للشرور الداخلية والخارجية، وتحصينٌ للمجتمع من الفساد والانحراف.

بسم الله الرحمن الرحيم

بَدْءُ الكتابة بالبسملة سنة مأثورة دلَّ عليها الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح.

أما الكتاب: فإن الله افتتح جميع سور القرآن الكريم بالبسملة.

وأما السنة: فإن النبي ﷺ كان يبدأ بها مكاتباته كما في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل حيث قال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**»(١)، والذي يظهر والله أعلم أنه سنة الأنبياء، كما في قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[النمل:٣٠].

وقد سار على ذلك الصحابة والتابعون كأبي بكر الصديق(٢)، وعمر بن الخطاب(٣)، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل(٤)، وخالد بن الوليد(٥)، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم(٦)، وعمر بن عبد العزيز(٧)، وأحمد بن حنبل(٨)، وسفيان الثوري(٩)، وغيرهم، ولما سئل الحسن عن قراءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: تلك

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١١٠)، كتاب «الجهاد»/ باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام. رقم (٢٩٤١).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٣١٦)، كتاب «الزكاة»/ باب زكاة الغنم. رقم (١٤٥٤).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٩٩)، كتاب «الوصايا»/ باب ما جاء في الرجل يوقف الوقف. رقم (٢٨٧٩).

(٤) «فتوح الشام» للواقدي (١/ ١١٩).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٢/ ٥٥٢-٥٥٥) رقم (١٥٥٧٥، ١٥٥٧٦، ١٥٥٨٠).

(٦) «الأدب المفرد» (٤٠٦-٤٠٨).

(٧) «الشريعة» للآجري (٢٣٣).

(٨) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٤٧١-٤٧٢) رقم (٤٨١)، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٠٧).

(٩) «الجرح والتعديل» (١/ ٨٦).

صدور الرسائل(١).

بسم: الباء للمصاحبة وقيل: للاستعانة أي: بسم الله أؤلف حال كوني مستعينًا بالله تعالى، وبسم الله متعلق بفعل محذوف خاص مؤخر تقديره بسم الله أكتب.

أما كونه فعلًا فلأن الأصل في العمل الأفعالُ لا الأسماء، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط والأسماء لا تعمل إلا بشرط؛ لأن العمل أصل في الأفعال فرع في الأسماء، وأما كونه خاصًا فلأن كلَّ مبتدئ بالبسملة في أمر يضمر ما جعل البسملة مبدأ له، ولأن الخاص أدل على المقصود من العام، وأما كونه متأخرًا؛ فلدلالته على الاختصاص والحصر؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر فيكون باسم الله أقرأ، بمنزلة لا أقرأ إلا بسم الله، وأدخل في التعظيم، ولأنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله تعالى.

وحذف العامل له فوائد عديدة منها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة وليس فعل أولى بها من فعل فكان الحذف أَعمَّ من الذكر(٢).

الاسم: قيل: إنه مشتقٌ من السُّمُوِّ وهو العُلُوُّ والارتفاع؛ وذلك لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره، وقيل: من الوسم والسمة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامةٌ على المسمى(٣).

والقولُ الأول أرجحُ لأنه من الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف وترتيبها(٤) وهو الذي رجحه البغوي(٤)، وشيخ الإسلام حيث قال: وهذا المعنى أخصُّ

(١) «الأدب المفرد» (٤٠٧) باب صدور الرسائل بسم الله الرحمن الرحيم. وانظر «جمهرة رسائل العرب» لأحمد زكي صفوت، فقد ذكر رسائل كثيرة للصحابة كلها مبتدأ بالبسملة (١/ ٣١-١٧٦).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٥).

(٣) «اسم الله الأعظم» الدميجي (١٣).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٨).

فإن العلوَّ مقارنٌ للظهور... واستدل بالحديث «**وأنتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ**»[١]. ثم قال: ولم يقل فليس أظهرَ منك شيءٌ؛ لأن الظهور يتضمن العلو والفوقية[٢]. وإلى هذا ذهب أكثر أهل اللغة ومنهم ابن سيده[٣] والخليل[٤] وابن فارس[٥] والجوهري[٦] والراغب[٧] والفيومي[٨].

بل إن الزجاج غلَّط من قال إنه مشتق من السمة وهي العلامة، فقال: «ومعنى قولنا: اسم هو مشتق من السُّمُوِّ وهو الرِّفْعة، والأصل فيه: سِمْوٌ بالواو، وجمعه: أَسْماء، مثل: قِنْو وأَقْناء، وإنما جعل الاسم تنويهًا على الدلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم، ثم قال ومن قال: إن اسمًا مأخوذ من وَسَمْت فهو غلط لأنه لو كان اسمٌ من سِمتُه لكان تصغيره وُسَيْمًا»[٩]. وأما الزجاجي فيرى أن القول بأنه مشتق من السمة والعلامة قول ضعيف لا يصلح أن يذكر حيث يقول: أجمع علماء البصريين ولا أعلم عن الكوفيين خلافًا محصلًا مستندًا إلى من يوثق به أن اشتقاق اسم من سَمَوْتُ أَسْمُو أي علوتُ كأنه جُعل تنويهًا بالدلالة على المسمى لما كان تحته فأصله (سِمْوٌ) على وزن حِمل وعِذق وقِنو وحِنو، والدليل على ذلك قولهم في الجمع أسماء كما قيل أقناء وأحناء وأحمال وفي التصغير سُمَيّ، كما قيل

(١) مسلم (٤/ ٢٠٨٤)، كتاب «الذكر والدعاء»/ باب ما يقول عند النوم. رقم (٢٧١٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) «المخصص» (٥/ ٢١٥).

(٤) «العين» (٧/ ٣١٨).

(٥) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٨).

(٦) «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٣).

(٧) «المفردات» (٢٤٧).

(٨) «المصباح المنير» (١١٠).

(٩) «تهذيب اللغة» (١٣/ ١١٧).

حُنَيّ وقُنَيّ، ثم قال وقد حُكي أن بعضَهم يذهب إلى أن أَصْلَهُ من (وَسَمْتُ)، ثم رَدَّه لأنه ليس على مقاييس اللغة العربية ولأنه يخالف الأصل فلو كان اشتقاقه من وَسَمْت لكان أصله (وَسْم) وكان تصغيره وُسَيْماً وجمعه أَوْسَامٌ ثم قال: فاجتماع الجماعة كلها في التصغير على سُمَيّ وفي الجمع على أسماء يدل على بطلان هذا المذهب[١].

الله: علم على الرب جل جلاله لا يجوز أن يُسَمَّى به غيرُه وهو أصلُ الأسماء الحسنى بل إن الأسماء الحسنى تأتي تابعة له ومضافة إليه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[الحشر:٢٢-٢٣].

وقوله ﷺ: «**إنَّ لله تِسْعَة وتسعينَ اسْمًا، مائة إلَّا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنَّة**»[٢].

وهو مشتق من الإله كما نقل عن الكسائي والفراء وسيبويه ويونس بن حبيب وقطرب والأخفش[٣].

إله: بمعنى مألوه أي: المعبود حُبّاً وتعظيمًا وخضوعًا، قال ابن عباس: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين[٤]. وقال أبو إسحاق الزجاج: ومعنى قولنا «إله» إنما هو الذي يستحق العبادة وهو تعالى المستحق لها دون من سواه[٥] فهو دال على صفة الألوهية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾[الأنعام:٣] فإن (في السموات) متعلق

---

(١) «اشتقاق أسماء الله» (٢٥٥-٢٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٧٧)، كتاب «التوحيد»/ باب: إن لله مائة اسم إلا واحدًا. رقم (٦٤١٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٤)، كتاب «الذكر»/ باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها. رقم (٢٦٧٧).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٢٣-٣٧).

(٤) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

(٥) «تفسير أسماء الله الحسنى» (٢٦).

بلفظ الجلالة يعني أي المألوه في السموات وفي الأرض[١] ولهذا أنكر الله على من عبدوا غيره فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[النمل:٦٤].

الرحمن: أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وهو دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾[الأنعام:١٤٧] وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[الأنعام:١٣٣] «وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز لأحد أن يَتَسَمَّى باسم الرحمن»[٢].

الرحيم: ذُو الرحمة الواصلة فهو دال على تعلقها بالمرحوم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾[العنكبوت:٢١]؛ فهو اسم يدل على الفعل.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الرحمن والرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر»[٣] أي: أوسع رحمة «وفائدةُ الجمعِ بين الرحيم والرحمن الإنباءُ عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة»[٤].

(١) «شرح الواسطية»، العثيمين (١/ ٣٨).

(٢) «جامع البيان» (١/ ٥٩).

(٣) «معالم التنزيل» (١/ ٣٨).

(٤) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

اعلم - رحمك الله- أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل.

العلم: بمعناه العام هو: حكم الذِّهْنِ الجازم المطابق للواقع.

لأنه إن لم يكن جازمًا صار ظنًا والظن ليس علمًا، قال تعالى: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[يونس:٣٦].

وإن لم يكن مطابقًا للواقع صار مخالفًا له فلم يكن علمًا. كاعتقاد النصارى بالتثليث.

اعلم: فعل أمر وهي كلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة، أي: كن متفهمًا لما سأقوله لك من العلم بأصول الدين والتربي عليه وهو جدير بأن يعتنى به، فبه الدخول في الإسلام وبه الاستمرار عليه وبه الخروج من الدنيا.

رحمك الله: أي: غفر لك فيما مضى وعصمك في المستقبل.

فإن اجتمع مع الرحمة المغفرة صارت الرحمة للمستقبل والمغفرة لما مضى فتكون **الرحمة**: سؤال السلامة من ضرر الذنوب في المستقبل، **والمغفرة**: سؤال الله مغفرة الذنوب الماضية.

وابتدأ المصنف ﷬ كتابه بالدعاء لأجل أن يفتح قلب القارئ فَيَقْبَلَ ما يدعوه إليه، وهذا درس للدعاة إلى الله فإنه ينبغي أن يفتحوا قلوب الناس قبل أن يدعوهم، كما فعل النبي ﷺ مع معاذ ﷛. قال معاذ أخذ بيدي رسول الله ﷺ وقال: «**يا مُعاذ والله إنِّي لأُحبُّكَ، والله إنِّي لأُحِبُّكَ، فقال: أُوْصيكَ يا مُعاذ لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كل صلاةٍ تقول: اللَّهُمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عبادتِكَ**»[(١)].

---

(١) أحمد (٥/ ٢٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧) رقم (٦٩٠)، وأبو داود (٢/ ١٨٠) كتاب=

فكرر النبي ﷺ بيان محبته لمعاذ بل أكدها بالحلف ثم ثَنَّى بالأمر الذي أراد أَمْرَ معاذ به.

أنَّ: حرف توكيد، واسمها ضمير الشأن المتصل (الهاء).

يجب: وجب الشيء وجوبًا أي لزم وثبت. (يجب) في محل رفع خبر (أنَّ).

قال ابن الأثير: «والواجب والفرض عند الشافعي سواء وهو كل ما يعاقب على تركه»[(١)]. أي: أنه يلزم كل واحد منّا تعلم هذه المسائل، ولا يعذر أحد بالجهل بها إذا كان يستطيع تعلمها.

علينا: أي: نحن المسلمين جميعًا فليست خاصة بأحد دون أحد.

تعلم: أي: طلب معرفتها وصرف الوقت والجهد لذلك؛ لأن الأصل فينا هو الجهل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[النحل:٧٨] فعلمنا مسبوق بجهل ولا نستطيع إزالة الجهل عن أنفسنا إلا بطلب العلم، قال ﷺ: «**إِنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّمِ**»[(٢)].

أربع مسائل: مسائل جمع مسألة وهي من السؤال بمعنى: استدعاء وطلب ما يؤدي إلى المعرفة، والوجوب حكم شرعي لا يثبت إلا بدليل ولذلك عقّب المؤلف هذه المسائل الأربع بالدليل.

= «الصلاة»/ باب في الاستغفار. رقم (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، كتاب السهو/ باب الذكر والدعاء، و«صحيح ابن خزيمة» (١/ ٣٦٩) باب الأمر بمسألة الرب عز وجل في دبر الصلوات المعونة على ذكره وشكره وحسن عبادته والوصية بذلك. رقم (٧٥١)، وصححه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٠/ ٨٠)، وقال النووي: «رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح». «رياض الصالحين» (١٨٣) رقم (٣٨٩). وقال ابن حجر: «رواه أحمد وأبو داود، والنسائي بسند قوي». «بلوغ المرام» (٦٦) رقم (٣٤٤).

(١) «النهاية» ٥/ ١٥٣.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩/ ٣٩٥)، وذكره البخاري معلقاً. البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(الأُولى): العلم.

....

العلم: هنا هو العلم الخاص.

وتعريفه لغة: نقيض الجهل، كما أن الجهل نقيض العلم، والجهالة أن تفعل فعلًا بغير علم(١).

واصطلاحًا: هو معرفة الهدى بدليله المورِثِ خوفَ الله، والإشفاق من عقابه والرغبةَ والطمع في جزيل ثوابه.

أقسام العلم:

ينقسم العلم الشرعي إلى ثلاثة أقسام هي:

١- العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله.

٢- العلم بالأحكام الشرعية.

٣- العلم بالأمور الغيبية.

قال ابن القيم موضحًا هذه الأقسام:

والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... من رابع والحقُّ ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكُلُّ في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان(٢)

---

(١) «العين» (٢/ ١٥٢ و٣٩٠).

(٢) «الكافية الشافية» (٢/ ٢٣٢).

حكم طلب العلم:

ينقسم حكم طلب العلم إلى قسمين:

أولًا: فرض عين على كل أحدٍ، وضابطه: ما لا يسع الإنسان جهله وهو «التوحيد وما يفعله من العبادات وما يحتاج إليه من المعاملات وما يجب تركه من المنهيات»[(١)].

قال ابن المبارك: «ألَّا يقدم الرجل على الشيء إلا بعلم»[(٢)].

ودليله قوله ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ**»[(٣)]، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف؛ إلا أنَّ معناه صحيح، وذلك أنه لا يمكن للإنسان أن يعبد ربه إلا بالعلم. والقاعدة تقول: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

ثانيًا: فرض كفاية: وضابطه: ما زاد عن الواجب. فإذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢]، والطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه.

---

(١) وضبطه الطبري، فقال: «فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله.... فتوحيد الله تعالى ذكره، والعلم بأسمائه وصفاته وعدله» «التبصير في معالم الدين» ١١٦-١١٧.

(٢) «الفقيه والمتفقه» ١/ ٤٥، وشرحه هناك فراجعه إن شئت.

(٣) ابن ماجه (١/ ٨١) «المقدمة»/ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم (٢٢٤)، وضعفه أحمد، وابن عبد البر، وقال إسحاق بن راهويه: إنه لم يصح، أما معناه فصحيح، ومثّل به ابن الصلاح بالمشهور الذي ليس بصحيح. وقال المزي: «إن طرقه تبلغ درجة الحسن». «المقاصد الحسنة» (٢٧٦).

ترتيب تعلم العلوم:

أَوَّلُ ما يبْدَأُ به طالب العلم: تَعَلَّمُ فروض الأعيان حتى يعرف العلم والعمل بها ثم يَتَدرَّجُ بعد ذلك في فروض الكفاية وجزئيات العلم، وليكن ابتداؤه أولًا بعلوم الغاية وهي: التوحيد ثم الفقه المبنيان على الأدلة من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح، ثم علوم الوسائل ثانيًا كأصول التفسير، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وأصول الفقه ونحو ذلك. قال الذهبي: «على الوالدين تعليم الأولاد الأطفال أولًا فأولًا ما يجب اجتنابه، ويلزم فعله واعتقاده، فيذاكر الأب ولده شأن التوحيد، وأَنَّ اللهَ ربُّ العالمين، وخالقُ الأشياء، ورازقُ الأحياء، وأن محمدًا نبيُّه، وأن الإسلام دينُه، حتى يَأْلَفْهُ الصبيُّ ويرسخ في طبعه.

فإذا مَيَّزَ: علَّمه الوضوء والصلاة، وحذّره الزنا والسرقة والكذب، وأكل الحرام، والدم والميتة، ونحو ذلك، وأنه ببلوغه يجرى عليه القلم»[(١)].

ويبتدئ طالب العلم بتعلم التوحيد والإيمان أولًا لما يلي:

١ - أنَّ السور والآيات التي تتحدَّث عن الإيمان هي أَوَّلُ ما نزل من القرآن:

فَأَوَّلُ ما نزل في مكة هو المفصل، لما فيه من غرس حقيقة الإيمان في القلب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزل المفصَّلُ بمكة، فمكثنا حِجّجًا نقرؤه لا ينزلُ غيره»[(٢)].

توضح ذلك أُمُّنا عائشة رضي الله عنها فتقول: إنما أُنْزِلَ أَوَّلَ ما نزل منه سورة من المفصَّل، فيها ذِكرُ الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أَوَّلَ شيء: (لا تشربوا الخمر)؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: (لا تزنوا)؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ

---

(١) «مسائل في طلب العلم وأقسامه» (٢٠٤) المطبوع ضمن ست رسائل.

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٦/ ٢٥٨) رقم (٦٣٤٤).

وَأَمَرٌ﴾، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[١].

٢- أنَّ الإيمان هو أساسُ الدين، فمن فقده فقد الدين كُلَّه:

جعل اللهُ نورَ القرآن تاليًا وشاهدًا لنور الإيمان، فقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: نور القرآن على نور الإيمان، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وبهذا يتضح أن معنى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: يعني هدى الإيمان ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتبعه. ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الشاهد هو القرآن، فهو شاهد من الله يوافق الإيمان، ويتبعه فيصدقه ويزكيه ويؤيده ويثبته، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ لأن الإيمان هو المقصود؛ لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته.

ولهذا كان الإيمانُ بدون قراءة القرآن ينفعُ صاحبَه ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة، بل صاحبه منافق، كما في حديث عن أبي موسى أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآنَ كمثل الأُتْرُجَّةِ: ريحُها طيبٌ، وطعمُها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا رِيْحَ لها، وطعمها حُلْو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح، وطعمها مر**»[٢] [٣].

---

(١) البخاري مع الفتح (٩/ ٣٨-٣٩)، كتاب «فضائل القرآن»/ باب تأليف القرآن. رقم (٤٩٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ٥٥٥)، كتاب «الأطعمة»/ باب ذكر الطعام. رقم (٥٤٢٨)، ومسلم (١/ ٥٤٩)، كتاب «صلاة المسافرين»/ باب فضيلة حافظ القرآن. رقم (٧٩٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٦٨-٧٤)، وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ٩٨).

٣- أن البداءة بالإيمان منهج النبي ﷺ وأصحابه:

لما كان القلبُ هو مَلِكُ الأعضاء والمحركُ لها: كان لا بد من غرس الإيمان فيه أولًا، لأجل أن يحرك الأعضاء إلى كل خير، ولذلك كان النبي ﷺ يبتدئ به تعليم أصحابه، كما أوضح ذلك وبيّنه جُنْدُبُ بن عبد الله البجلي، وحذيفة، وابن عمر رضي الله عنهم.

فأما رواية جندب بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَةٌ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا»(١).

ومثله عند ابن منده، إلا أنه قال: «غلمان»، بدلًا من: «فتيان»(٢).

وفي لفظ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فيعلمنا الإيمان، ثم يعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا»(٣).

وفي لفظ قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة(٤) -يعني أشداء-، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن بعد فازددنا إيمانًا»(٥).

فهذه الروايات لحديث جندب كلها تؤكد أن الإيمان يجب تَعَلُّمُهُ أَوّلًا قبل أَيِّ علم آخر، حتى لو كان تَعَلَّمُ القرآن.

وأكد هذه الحقيقة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر، فقال: «لقد لبثنا بُرْهَةً من دهرنا، وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن. تنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها

---

(١) ابن ماجه (١/ ٢٣) المقدمة/ باب في الإيمان. رقم (٦١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (١/ ٦٢).

(٢) «الإيمان» (٢/ ٣٧٠) رقم (٢٠٨)، و«السنة» لعبدالله بن أحمد (١/ ٣٦٩) رقم (٧٩٩).

(٣) «السنة» للخلال (٥/ ٥٤) رقم (١٥٩٣).

(٤) حزاورة: أي قارب أن يبلغ. «غريب الحديث» لابن قتيبة ٣/ ٧٥٨.

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٩٤٦) رقم (١٧١٥).

وحرامها وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها[١]، كما يتعلم أحدكم السورة....»[٢].

«فهم كانوا يتعلمون الإيمان، ثم يتعلمون القرآن»[٣].

وقول ابن عمر: «لقد عشنا برهة من دهرنا» يدل على أن ذلك إجماع من الصحابة ثابت[٤].

وكذلك حذيفة حين قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة». قال الأصمعي وأبو عمرو: «الجِذْرُ الأصلُ من كُلِّ شيء»[٥].

وقال الطنافسي: «جذر قلوب الرجال يعني: وسط قلوب الرجال»[٦]. ووسط القلب هو أصله.

«والأمانة في هذا الحديث هي الإيمان، أنزلها في أصل قلوب الرجال»[٧].

---

(١) قال شيخ الإسلام: «تعلم معانيه هو المقصود بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان». «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٠٣).

(٢) «الإيمان» لابن منده (٢/ ٣٦٩-٣٧٠)، وقال: «هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة، إلا البخاري»، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه».

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٧١).

(٤) «الإتقان في علوم القرآن» (٢/ ٥٤٠).

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٣٣)، كتاب «الرقاق»/ باب رفع الأمانة. رقم (٦٤٩٧)، ومسلم (١/ ١٢٦)، كتاب «الإيمان»/ باب رفع الأمانة والإيمان. رقم (١٤٣).

(٦) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٤٦)، كتاب «الفتن»/ باب ذهاب الأمانة. رقم (٤٠٥٣).

(٧) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٢٤٩).

وذلك أنهم إذا استقر الإيمان في قلوبهم، فتعلموا ما يسر الله لهم من القرآن والسنة، فهموه على الوجه الصحيح، وطبقوه على أنفسهم رغبة وطواعية، ومحبة.

ولكن يا للأسف سرعان ما تغير الناس في طلب العلم، فاختل ترتيب الأولويات حتى فزع الصحابة ﭫ من ذلك.

قال حذيفة ﮅ مبينًا طريقة النبي ﷺ في تعليم الإيمان أولًا: «كنا فتياناً حزاورة مع نبينا ﷺ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيمانًا».

ومعاتبًا التابعين إذ خالفوا طريقته ﷺ: «وإنكم اليوم تَعَلَّمُونَ القرآن قبل الإيمان»[(١)].

ويستغرب عبد الله بن عمر ﭭ هذا التغيّر السريع، فيذكر حالة النبي ﷺ في تعليمهم الإيمان قبل القرآن، ثم يذكر الأمر المستغرب الذي لم يكن معهودًا في عهد النبي ﷺ، فيقول معاتبًا ومحذرًا: «ولقد رأيت رجالًا يُؤْتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان، يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يعرف حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره نثر الدقل»[(٢)].

ولقد رأينا في زماننا هذا من يحفظ القرآن بالقراءات العشر لا يرعوي لأمر ولا يزجره نهي، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وينبغي لطالب العلم أن يحرص أَشَدَّ الحِرْص على طلب الأدب، قال مالك بن أنس لفتى من قريش: «يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم»[(٣)].

---

(١) «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٥) رقم (١٦٧٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٩٣) رقم (٥٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٣٠).

وما ذلك إلا لعظيم أهميته كما يصور ذلك عبدالله بن المبارك، فيقول: «كاد الأدب أن يكون ثلثي العلم»[١].

وتَعَلُّمُ الأدب سنَّةٌ متبعة مشتهرة عن سلفنا الصالح ومن ذلك:

كان أصحاب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يرحلون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فينظرون إلى سَمْتِهِ وهديه ودَلِّهِ فيتشبّهون به[٢]، وأما الطلاب الذين يحضرون درس الإمام أحمد، فهم قرابة خمسة آلاف طالب يكتب منهم خمسمائة فقط أما البقية فجاءوا يتعلمون حسن الأدب وحسن السَّمْتِ والهدْى[٣].

قال أبو بكر بن المطوعي «اختلفت إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل اثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت منه حديثًا واحدًا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه»[٤].

وقال إبراهيم النخعي «كنا نأتي مسروقًا فنتعلم من هديه ودَلِّه»[٥].

وقال ابن وهب: «ما تعلمت من أدب مالك أفضلُ من عِلْمِهِ»[٦].

وكما أن العلم يؤخذ بالسند فكذلك الأدب. قال حميد بن عبدالرحمن الرواسي كان يقال: لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أشبه هديًا ولا سمتًا ودلًّا من عبدالله بن مسعود، وكان أشبه الناس بعبدالله بن مسعود علقمةَ، وكان أشبه الناس بعلقمة إبراهيم

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤٥).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٦٥).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢١٠).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٧).

(٦) المرجع السابق.

النخعيّ، وكان أشبه الناس بإبراهيم النخعي منصور بن المعتمر، وكان أشبه الناس بمنصور بن المعتمر سفيان الثوري وكان أشبه الناس بسفيان الثوري وكيع بن الجراح. قال محمد بن يونس: وكان أشبه الناس بوكيع بن الجراح أحمد بن حنبل[1] ومما ينبغي أن يعلم أن الأدب والعلم توأمان لا ينفك أحدهما عن الآخر كما بين ذلك يحيى بن محمد العنبري ت ٣٤٤هـ بقوله: «علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كجسم بلا روح»[2]

فضل العلم:

العلمُ فضلُه كبير بل لا يساويه أي عمل آخر ويتجلى ذلك بالأمور التالية:

أولًا: الترغيب في الذهاب لطلبه:

بذل الجهد والوقت في مدارسة العلم -وذلك بالذهاب إلى حلق الذكر ومواطن العلم- هو السبيل إلى التعلم.

وقد تكاثرت النصوص الدالة على فضله والترغيب فيه، ومنها:

قوله ﷺ: «**من غَدَا إِلَى المَسْجِدِ لاَ يُرِيدُ إلاَّ أن يَتَعَلَّمَ خَيرًا أو يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تامًّا حَجُّهُ**»[3].

فما أعظم هذا الأجر الذي يتسابق إليه الموفقون، فلنكن منهم.

كيف لا يتسابق إلى العلم المتسابقون وبسببه يُسَهِّلُ الله لهم طريق الجنة ويَذْكُرهم في الملأ الأعلى، وتغشاهم رحمته، وتحفُّهم ملائكته، وينزل عليهم سكينته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «**ومن سلكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له به**

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢١١).

(٢) «الجامع» للخطيب (١/ ٨٠).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٨/ ٩٤) رقم (٧٤٧٣)، قال المنذري: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به». «الترغيب والترهيب» ١/ ١٠٤، وقال العراقي «إسناده جيد». «تخريج الإحياء» (٤/ ٤٦١).

طريقًا إلى الجنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قومٌ في بيتٍ مِن بيوتِ الله يَتْلُونَ كتابَ الله ويتدَارَسُونَهُ بينهم إلا نزلت عليهم السَّكينةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ، وحَفَّتْهُم الملائكةُ، وذكرهُمُ اللهُ فيمن عنده»(١).

قال ابن حجر: «وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لأن طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة»(٢)، بل إِنّ نَقْلِ الخطى لطلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ جاء مسجدي هذا لم يأْتِه إلا لخيرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أو يُعَلِّمُهُ؛ فهو بمنزلةِ المجاهدِ في سبيلِ الله»**(٣).

ثانيًا: قيمة العلماء في الدنيا والآخرة:

لما كان العلم الشرعي هو أعلى ما يُبْتَغَى ويُطْلَب صار أهله في أعلى المواقع والرتب.

ومن الأدلة على علو مرتبتهم:

١- استشهادهم دون غيرهم من البشر، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾[آل عمران:١٨].

قال ابن القيم وهذه الآية تدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أ- استشهادهم دون غيرهم من البشر.

ب- اقتران شهادتهم بشهادته سبحانه.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. رقم (٢٠٦٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٣) ابن ماجه (١/ ٨٢) «المقدمة»/ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. رقم (٢٢٧)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته». «مصباح الزجاجة» (١/ ٣١). وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤).

جـ- اقتران شهادتهم بشهادة ملائكته.

د- أن في هذا تزكيتَهم وتعديلَهم؛ فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر: «يحمل هذا العلم من كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»(١)(٢).

٢- الفرق الكبير بن الجاهل والعالم، يوضحه قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الزمر:٩].

أي الذين «يعلمون ربَّهم ودِينَه الشرعي ودِينَه الجزائي وما له في ذلك من الأسرار والحكم والذين لا يعلمون شيئًا من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار»(٣).

وقرّب ابن القيم معنى هذه الآية ووضّحه بأوجز عبارة فقال «هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[الحشر:٢٠]»(٤).

فنحن نعلم الفرق الشاسع والبون البعيد بين الدارين فليس هناك مقارنةٌ ولا مقاربةٌ فالنارُ دار الزفرات والأنين والعبرات دار الجحيم والعذاب والنكال والقيود والأغلال، دارٌ أهلها في شقاء وعذاب، إن أكلوا فأكلهم عذاب، وإن شربوا فعذاب، وإن استظلوا فظلهم لا ظليل ولا يغني من اللهب، وإن أرادوا النوم والراحة فلهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وبالجملة فهي دار لا يقضى على أهلها فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. نسأل الله العافية والسلامة منها، وأما الجنة فهي دار النعيم والحبور والراحة والطمأنينة

(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» (٦).

(٢) «مفتاح دارة السعادة» (١/ ٤٨).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٠).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٩).

والسعادة الأبدية، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأهلها فيها خالدون، وقد تُوِّجَ نعيمُها برؤية الرب الكريم جل وعلا. أسأل الله أن يجعلنا من أهلها. فانظر الفرق بين الاثنين واختر لنفسك أيها العاقل.

٣- **التصريح برفعتهم**، كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١].

قال شيخ الإسلام: «خَصَّ سبحانه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان...، فَرَفْعُ الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان»(١).

٤- **إدراك الخيرية**، ويدل له حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»(٢).

ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيرًا فينبغي الحرص على التفقه في الدين لننال الخيرية.

٥- **اختصاصُهم بميراث الأنبياء دون غيرهم**، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ العلماء هُمْ ورثَةُ الأنبياءِ، لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثُوا العلمَ، مَنْ أخذهُ أخذ بحظٍّ وافرٍ**»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٨) وفيه زيادة فائدة؛ فراجعه إن شئت، وانظر إن شئت: «إعلام الموقعين» (٣/ ٢٣٣).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٤)، كتاب «العلم»/ باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين. رقم (٧١).

(٣) أحمد (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٥/ ٤٨-٤٩)، كتاب «العلم»/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم (٢٦٨٢)، وأبو داود (٤/ ٥٧-٥٨)، كتاب «العلم»/ باب الحث على طلب العلم. رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه (١/ ٨١)، «المقدمة»/ باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم. رقم (٢٢٣).

وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» (٧/ ٥٨٧)، وقال السخاوي: «صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا =

أي أخذ بنصيب كامل[(١)].

فرق كبير بين من يرث أُمّه وأباه أو يرث نبيه محمدًا ﷺ. فمن ورث أمه وأباه فقد ورث الدرهم والدينار، ومن ورث نبيه محمدًا ﷺ ورث العلم والدين الذي به نجاة الخلق أجمع في الدنيا والآخرة، ولهذا «لما مر أبو هريرة بسوق المدينة وقف فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم، قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة، قال: ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا إلى المسجد ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم، فقالوا: يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون وقومًا يقرؤون القرآن وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ»[(٢)].

وقال سليمان بن مهران: «بينما ابن مسعود يومًا معه نَفَرٌ من الصحابة، إذ مرَّ أعرابي، فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد يقتسمونه»[(٣)].

وأما بعد الموت: فيدل له فعل النبي مع قتلى أحد رضي الله عنهم مع أنهم كلهم أهل صلاح وتقى، حيث كان ﷺ يسأل أيهم كان أكثر أخذًا للقرآن فيقدمه في اللحد تكريمًا له، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله يقول لقتلى أحد: «**أيُّ هؤلاءِ أكْثَرُ أخذًا**

= قال شيخنا: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلًا». «المقاصد الحسنة» (٢٨٦).

وذكره البخاري. البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٢/ ١١٤-١١٥) رقم (١٤٢٩)، وقال المنذري: «إسناده حسن». «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٣-٧٤).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٤٢٢).

للقرآنِ؟» فإِذَا أُشِيرَ إلى رَجُلٍ قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ قَبْلَ صاحبه»(١).

وفي الموقف الأعظم يتقدم العلماء الناس كما في قول النبي ﷺ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**إن العلماء إذا حضروا ربهم كان بين أيديهم رَتْوَة بحجر**»(٢)، فمعاذ رضي الله عنه أمام العلماء، والعلماء أمام الناس.

أما في الآخرة فلهم المنازل العليا في جنات النعيم.

ثالثًا: فضل العلم على العبادة:

إن للعبادة لشأواً عظيماً فمن تقرب إلى الله شبرًا تقرّب الله إليه ذراعًا، ومن تقرّب إليه ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة، ولا يزال العبد يتقرب إلى ربه بالنوافل حتى يحبه فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سأله أعطاه، ومع ذلك كله فإن العلم أفضل منها **لأن العبادة لا تصحُّ إلا بالعلم، ولأَنَّ العلمَ نَفْعُهُ متعدٍّ، أما العبادة فنفعها خاص بصاحبها فقط**، كيف وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**وإنَّ فَضْلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلة البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنبياءِ**»(٣).

قال القرطبي: وهذا حديث عظيم يَدلُّ على أنَّ طلب العلم أفضلُ الأعمال وأنه لا يبلغ أحدٌ رتبة العلماء وأن رتبتهم ثانية عن رتبة الأنبياء(٤).

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢١٢)، كتاب «الجنائز»/ باب من يقدم في اللحد. رقم (١٣٤٧-١٣٤٨).

(٢) «فضائل الصحابة» لأحمد (٢/ ٧٤٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «المفهم» (٦/ ٦٨٥).

وقال ابن القيم: «العلماء ورثة الأنبياء: هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم»[(١)].

ويزيد النبي ﷺ الأمر وضوحًا في بيانه الفرق الشاسع بين العالم والعابد في الحديث الذي رواه أبو أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم. فقال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضلي على أَدْناكُم**»[(٢)].

وهذا الحديث من أبين الأدلة على فضيلة العلم على العبادة إذ إنه من المعلوم أنه ليس هناك مقارنة بين النبي ﷺ وأعلى الصحابة. فكيف بأدناهم.

ولذلك أرشد النبي ﷺ أبا هريرة إلى أن يُوتِرَ قبل أن ينام لأجل أن يتفرّغ لاستذكار العلم، كما روى ذلك أبو هريرة، فقال: «أوصاني خليلي بثلاث»، وذكر منها: «أن أُوتِرَ قبل أن أنام»[(٣)].

واتفق السلف على ذلك، ومن أقوالهم:

قال أبو موسى الأشعري: «لمجلسٌ أَجْلسُهُ مع عبد الله بن مسعود أوثقُ في نفسي من عمل سنة»[(٤)].

وقال الشافعي: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»[(٥)]، وقال: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة؛ فعليه بالعلم».

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٦).

(٢) الترمذي (٥/ ٥٠)، كتاب «العلم»/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. رقم (٢٦٨٥)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٧٤) رقم (٢١٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٢٦)، كتاب «الصوم»/ باب صيام البيض. رقم (١٩٨١)، ومسلم (١/ ٤٩٩)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب استحباب صلاة الضحى. رقم (٧٢١).

(٤) «شرح حديث أبي الدرداء» لابن رجب (٣٧)، وصحح الأثر عن أبي موسى.

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥).

وقال: «ما تُقُرِّبَ إلى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»[(١)].

وقال ابن وهب: كنت عند مالك أقرأ بين يديه، فجمعت كتبي، وقمت لأركع، قال لي مالك: ما هذا؟ قلت: أقوم إلى الصلاة، قال: فقال: إن هذا لعجب، ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحَّت النية»[(٢)].

وقال الحسن مبينًا فضيلة العلم: «لأن أتعلم بابًا من العلم فأعلمه مسلمًا أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله». ولما سأل مهناً أحمد بن حنبل عن أفضل الأعمال. قال: طلب العلم لمن صحت نيته. قلت: وأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل[(٣)].

وروي مثل هذه الآثار عن سفيان الثوري، وأبي حنيفة، وغيرهم من السلف[(٤)].

رابعًا: شدة الحاجة إليه:

كلّما كان الناس إلى الشيء أحوجَ كان طلبُه أفضلَ، قال الإمام أحمد: «الناس إلى العلم أحوجُ منهم إلى الطعام والشراب، فإنهم يحتاجون الطعام والشراب في اليوم والليلة مرتين أو ثلاثًا، أما حاجتهم إلى العلم فبعدد أنفاسهم».

وقال الحسن بن صالح: «إنَّ الناس ليحتاجون إلى هذا العلم في دينهم كما يحتاجون إلى الطعام والشراب في دنياهم»[(٥)].

---

(١) «المجموع» للنووي (١/ ١٢).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥).

(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨٠-٣٨١).

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥)، و«شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (٣٧-٤٠).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٩٠) «المقدمة»/ باب في فضل العلم والعالم. رقم (٣٢٦).

الترهيب من تعلم العلم لغير وجه الله تعالى:

لما كان العلم أعظم زينة يتزين بها الإنسان فإن نوازع النفس من حب الدنيا والمدح والثناء والمباهاة والتبجيل قد تفسد على العبد نيته فتصرفه عن ابتغاء وجه الله فيه فلهذا وردت الأحاديث الشديدة الزجر، لتحمي طالب العلم من الانحراف، وترده إلى رشده إذا انحرف، ومنها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من تعلَّمَ علمًا ممَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله عز وجل لا يتعلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به عرضًا من الدُّنيا: لم يجد عرفَ الجنَّة يوم القيامة**». يعني ريحها[(١)].

٢- حديث أول من تُسعَّر بهم النار وفيه: «**ورجُلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمَهُ وقرأَ القُرآنَ فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعمهُ فَعرفها قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلّمتهُ وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتْ، ولكنَّكَ تَعلّمْتَ العلمَ ليُقال عالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ هو قارئٌ، فقد قيل: ثُم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النار**»[(٢)].

٣- عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تعلَّمُوا العلمَ لِتُبَاهُوا به العلماءَ، ولا تُمارُوا به السُّفَهاءَ، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك؛ فالنَّار فالنَّار**»[(٣)].

---

(١) أبو داود (٤/ ٥٧١)، كتاب «العلم»/ باب طلب العلم لغير الله تعالى. رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه (١/ ٩٢) «المقدمة»/ باب الانتفاع بالعلم والعمل به. رقم (٢٥٢)، وصحح إسناده شيخ الإسلام في «شرح حديث جبريل» (٥٨٥)، والنووي في «رياض الصالحين» (٤٤٧) رقم (١٣٩٩).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٤)، كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. رقم (١٩٠٥).

(٣) ابن ماجه (١/ ٩٣) «المقدمة»/ باب الانتفاع بالعلم والعمل به. رقم (٢٥٤)، وصحح إسناده العراقي في «تخريجه أحاديث الإحياء» (١/ ٧٣)، وقال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم». «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٧).

أنواع العلم بحسب متعلقاته:

العلم بحسب متعلقاته قسمان هما:

١- علم اللسان.

٢- علم القلب.

فعلم اللسان: علمٌ مُسْتَقَرُّهُ اللسان فقط، بمعنى أن الشخص عنده القدرة التامة على التحدث في أمور الدين حتى إن السامع ليعجب بحديثه، ولكن لا أثر له على سلوكه وحياته، قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون:٤].

أما علم القلب: فهو العلم الذي استقر في القلب، وظهر أثره على الجوارح، وهذا هو العلم الممدوح قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

قال الحسن مقررًا هذه الحقيقة: «العلم علمان: فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم»(١).

إذًا: **العلم النافع** هو ما باشر القلب فأوجب له السكينة والخشية والإخبات والتواضع والانكسار لله، وحينئذ يرسخ في القلب وينفع المسلم كما أوضح ذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: «إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»(٢).

ومن ثم جعل رضي الله عنه علمَ القلوب هو رأس العلوم كلها فقال: «كفى بخشية الله

---

(١) «سنن الدارمي» (١/ ٩٨)، «المقدمة»/ باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله. رقم (٣٦٤).

(٢) مسلم (١/ ٥٦٣)، كتاب «صلاة المسافرين»/ باب ترتيب القراءة. رقم (٨٢٢).

علمًا، وكفى بالاغترار به جهلًا»[١]. ووافقه حذيفة رضي الله عنه فقال: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله، وبحسبه من الكذب أن يقول: أستغفر الله، ثم يعود»[٢].

بل حصر ابن عباس رضي الله عنه العلم بعلم القلوب فقال: «من خشي الله فهو عالم»[٣]. وصحح ابن مسعود رضي الله عنه ذلك المفهوم الخاطئ عند بعض طلبة العلم الذين توهَّموا أن العلم هو الرواية فقط فقال: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية»[٤].

وعلى ذلك درج سلفنا الصالح رحمهم الله، قال مالك رحمه الله: «إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلمَ نُورٌ يجعله الله في القلب»[٥]. وفي لفظ: «الفقه نور يهدي به الله من يشاء من خلقه ويؤتيه من أحب من عباده وليس بكثرة المسائل»[٦]. وحدَّد مجاهد الفقيه فقال: «إنما الفقيه من يخاف الله»[٧].

وحين سأل عبدالله بن أحمد بن حنبل أباه عن معروف: هل كان مع معروف شيء من العلم. قال له: «يا بني كان معه رأسُ العلم خشية الله تعالى»[٨].

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢١٩) رقم (١٦٣٧٩)، و«الزهد» لابن المبارك (١٥)، و«الزهد» لأبي داود (١٨٧).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٨).

(٣) «سنن الدارمي» (١/ ٩٢)، «المقدمة»/ باب فضل العلم والعالم. رقم (٣٣٣).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٩٨)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣١)، و«إبطال الحيل» لابن بطة (٢٠).

(٥) «الجامع للخطيب» (٢/ ١٧٤).

(٦) «التمهيد» (٤/ ٢٦٧).

(٧) «الزهد» لأحمد (٤٥٢)، و«سنن الدارمي» (١/ ٨٦)، «المقدمة»/ باب من قال العلم الخشية. رقم (٢٩٦).

(٨) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨٢).

ولما قال الرجل للشعبي أفتنا أيها العالم قال: «العالم من خاف الله»، وفي لفظ: «العالم من خشي الله»[١]. ويؤكد هذه الحقيقة سفيان الثوري فيقول: «ليس طلب العلم فلان عن فلان، إنما طلب العلم الخشية لله»[٢]. وبناءً على هذا قسّم العلماء إلى ثلاثة أنواع فقال: «العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمره فذلك العالم الكامل، وعالم بالله ليس عالماً بأمر الله عز وجل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله عز وجل، فذلك العالم الفاجر»[٣]، والعالم الفاجر هو الذي عناه أيوب السختياني بقوله: «لا خبيث أخبث من قارئ فاجر»[٤].

وأختم بوصف الحسن للفقهاء حين قال: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة لا يداري ولا يماري، ينشر حِكَمَ الله فإن قُبلت منه حمد الله، وإن رُدت حمد الله»[٥].

أسباب حفظ العلم:

أسباب حفظ العلم كثيرة من أهمها:

١- النية الصالحة:

مدار كل عمل على النية فبصلاحها يصلح العمل، ومن أعظم ما يعين على حفظ العلم صلاحها، قال ابن عباس: «إنما يحفظ الرجل على قدر نيته»[٦].

٢- التذاكر:

التذاكر منهج معروف عند السلف الصالح؛ لأثره البالغ في تثبيت العلم قال علي

---

(١) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦).

(٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٩١-٩٢).

(٤) «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٨١).

(٥) «نقض الدارمي على بشر المريسي» (٣٨٥)

(٦) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣١٢).

رضي الله عنه: «تذاكروا هذا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يُدرس»(١). وقال الزهري والحسن: «إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة»(٢).

وكان ابن عباس يربي تلاميذه على ذلك فيقول لطلابه: «إذا سمعتم مني حديثًا فتذاكروه بينكم»(٣).

وذلك أنَّ «من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد مما لم يعلم»(٤).

وكان لتوجيهه رضي الله عنه أكبر الأثر على الطلاب فلقد كانوا يطبقون ذلك كما يقول تلميذه عطاء: «كنا نكون عند جابر بن عبدالله رضي الله عنه فيحدثنا فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث»(٥).

بل كان ذلك سمة عامة. قال عبد العزيز بن أبي حازم: «كان الناس فيما مضى من الزمان الأول إذا لقي الرجل من هو أعلم منه قال: اليوم يوم غُنْمِي فيتعلم منه، وإذا لقي من هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي فيذاكره، وإذا لقي من هو دونه علّمه ولم يَزْهُ عليه»(٦).

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له. وسمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرض استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي(٧).

٣- ترك المعاصي:

المعاصي من أعظم الأسباب المانعة من العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٧).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٤١٥).

(٥) المرجع السابق (١/ ٣٦٥).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٢٧٦).

(٧) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٩٩).

﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[النساء:١٥٥] قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلْبَ الهدَى والعلمَ النافعَ»[١].

وقد عرف سلفنا الصالح ذلك جيدًا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مبينًا أثر المعاصي على طلبة العلم، وأنها من أعظم أسباب النسيان «إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يَعْلَمُهُ بالخطيئة يعملها»[٢] ولما سأل رجل مالكًا فقال: يا أبا عبدالله هل يصلح لهذا الحفظ شيء قال: «إن كان يصلح له شيء فَتَرْكُ المعاصي»[٣].

وبترك المعاصي، أرشد وكيع تلميذه محمد بن إدريس الشافعي فنظمها تلميذه فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يُؤتاهُ عاصي[٤]

فإذا كان بالغفلة يحدث النسيان قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[الزخرف:٣٦]. فكيف بالمعصية.

٤- نشره بين الناس:

نشر العلم بين الناس من أعظم وسائل حفظه لكل من الناشر والسامع. ولهذا كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، وَلْتفْشُوا العلمَ ولتجلسُوا حتَّى يعلم مَن لا يعلم، فإنَّ العلمَ لا يَهْلَكُ حتَّى يكون سرًّا[٥].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٥٢).
(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٦).
(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣١٢).
(٤) «ديوان الشافعي» (٦١).
(٥) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٤)، كتاب «العلم»/ باب كيف يقبض العلم.

فاحذر يا طالب العلم من البخل بنشره بين الناس؛ لخطورة البخل بذلك. قال ابن المبارك: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث إما موت يُذْهِبُ علمه وإما يَنْسى وإما يلزم السلطان فيذهب علمُه»(١).

٥- العمل بالعلم:

لما كان العلم يُطْلَبُ للعمل صار ما بينهما من الترابط يجعل فقد أحدهما مؤثرًا على الآخر. قال إبراهيم بن إسماعيل وعامر بن شراحيل الشعبي: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»(٢).

وقال سفيان الثوري: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»(٣).

٦- الصبر والمثابرة وعدم الاستعجال:

العلم بعيد قعره طويل مسلكه كثيرة ثمراته، ومن كانت هذه صفته فإنه يحتاج إلى صبر ومصابرة فاصبر على طلبه، وليكن أسوتك وقدوتك ابن عباس ﵄، فعن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما قُبِضَ رسول الله، قلت لرجل من الأنصار فلنسألْ أصحابَ رسول الله فإنهم اليوم كثير فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم؟ قال: فتركت ذلك فأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث فإن كان ليبلغني عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تَسْفِي الريحُ عليَّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك فأقول لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث فعاش ذلك الأنصاري

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٨).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٥٩)، و«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٠).

حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني فقال: هذا الفتى كان أعقل مني»[١].

ومن أقوال أهل العلم في الصبر على طلبه وعدم العجلة في ذلك قول الزهري: «لا تأخذِ العلمَ جملةً فإن من رام أخذَهُ جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي»[٢].

وفي رواية عنه «مَنْ طلب العلم جملةً فاته جملةً وإنما يدرك العلم حديث وحديثان»[٣].

ويروي زيد بن الحباب تربية الثوري طلابه على هذا المنهج فيقول: سمعت الثوري وسأله شيخ عن حديث فأجابه، ثم عن آخر فأجابه، ثم عن ثالث فأجابه، ثم سأله في الرابعة، فقال: إنما كنت أقرأ على الشيخ الحديثين والثلاثة لا أزيد حتى أعرف العلم والعمل بها، فألح الشيخ عليه فلم يجبه، فجلس الشيخ يبكي، فقال له سفيان: يا هذا تريد ما أخذته في أربعين سنة تأخذه في يوم واحد[٤].

٨- انتهاز الفرص والمبادرة إلى تحصيل العلم:

ينبغي أن يُبَادِرَ الشابُّ المسلم ويسارع إلى دراسة العلم وتعلمه وقت شبابه وفراغه منتهزاً كلَّ فرصة، قال ابن عباس: «مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجًّا، فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت فقلت له: يا أمير

---

(١) «سنن الدرامي» (١/ ١٣٤)، كتاب «المقدمة»/ باب الرحلة في طلب العلم واحتمال العناء فيه. رقم (٥٧٠). وقال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة» (٢/ ١٠١٢) رقم (٤١٥)، تحقيق د. سليمان العريني.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٤).

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٢).

(٤) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣١).

المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة...»[١].

وفي لفظ: «مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن المتظاهرتين، فما أجد له موضعًا أسأله فيه، حتى خرج حاجًّا، وصحبته حتى إذا كان بمر الظهران ذهب لحاجته، وقال: أدركني بإداوة من ماء، فلما قضى حاجته، ورجع أتيته بالإداوة أصبها عليه، فرأيت موضعها، فقلت: يا أمير المؤمنين: من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله ﷺ؟ فما قضيت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة رضي الله عنهما»[٢].

قال ابن شهاب: «العلمُ خزائنُ وتفتحُها المسألةُ»[٣].

٩- ملازمة أهل العلم الصالحين للتعلم منهم:

لا يحصل العلم إلا بملازمة أهله[٤]، ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه أكثر الصحابة حفظًا لحديث رسول الله ﷺ لملازمته له.

وهذه حقيقة مستقرة عند سلفنا الصالح قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «مِنْ فِقْهِ الرجل ممشاه ومدخَلُهُ ومخرجه ومجلسه مع أهل العلم»[٥]. وذلك لأنك لن تعدم من أهل العلم خيرًا. قال البرقاني: «ما اجتمعت قَطُّ مع حمزة بن محمد ففارقته إلا بفائدة علم»[٦].

وفي ترجمة ابن عبد الهادي: قال شيخه المزي: «ما التقيت به إلا واستفدت منه»، وقال الذهبي: «ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه»[٧].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٧)، كتاب «التفسير»/ باب تبتغي مرضاة أزواجك. رقم (٤٩١٣).

(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ٦٥٧).

(٣) سنن الدارمي (١/ ١٣١)، «المقدمة»/ باب البلاغ عن النبي ﷺ، وتعليم السنن. رقم (١٥٤٩).

(٤) قال ابن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». مسلم (١/ ١٤) المقدمة.

(٥) «حلية الأولياء» (١/ ٢١١).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٤٣).

(٧) «الدرر الكامنة» (٥/ ٦٢).

وهذه الملازمة تفيد الطالب أمرين:

١- الأدب.

٢- العلم، وتصويب الخطأ في طلبه.

يوضح هذا توجيه شُعْبَةَ لطالب العلم الذي قدم من المغرب كيف يطلب العلم.

قال هشام بن عبدالملك الطيالسي بينما أنا عند شعبة ذات يوم إذ جاءه رجل غريب فقال يا أبا بسطام، حدثني بحديث حماد عن إبراهيم أنه قال: (لأن يلبس الرجل في طلب العلم النعلين زمامهما من حديد) فلم يحدثه شعبة به، فقال: يا أبا بسطام أنا رجل من أهل المغرب أتيتك لهذا الحديث من مسيرة ستة أشهر، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ جاء من مسيرة ستة أشهر يسألني عن حديث لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا. اكتبوا: حدثني قتادة عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا**» ثم قال له: إذا سألت يا أخا أهل المغرب فسل عن مثل هذا وإلا فقد ذهبت رحلتك باطلًا»[١].

ومما سطرته يراعة ابن القيم من نفيس قوله: «أعلى الهمم في طلب العلم طلبُ علم الكتاب والسنة، والفهمُ عن الله ورسوله نفسَ المراد وعلم حدود المنزل، وأخس همم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل، وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس... وقلَّ أن ينتفع واحدٌ من هؤلاء بعلمه[٢].

ويحسن التنبيه على خطأ التعلم من الكتب دون المشايخ؛ لأن الذي يقرأ الكتب دون الرجوع إلى أهل العلم قد يفهم أقوالهم على غير ما يريدون، ولذلك كان السلف لا يقبلون فتاواهم، قال ثور بن زيد: «لا يفتي الناس الصُحُفيون» بل ولا حتى إقراؤهم للقرآن، قال

---

(١) الجامع للخطيب (٢/ ٢٢٦).

(٢) «الفوائد» (١٠٥).

أبو زرعة: «لا يفتي الناس صَحَفي ولا يقرؤهم مِصْحفي»[١]، ونهى أيوب السختياني شعبة عن الرواية عن خلاس بن عمرو البصري، فقال له: «لا ترو عن خلاس»، ثم علل نهيه بقوله: «فإنه صَحفي»[٢]. وكان الأوزاعي يقول: «كان هذا العلم شيئًا شريفًا إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه، ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله»[٣]. وقال الشافعي: «من تفقه من بطون الكتب ضيّع الأحكام»[٤].

وقال سليمان بن موسى: «كانوا يقولون: لا تأخذوا العلم عن الصَحفيين»[٥].

«وهذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم إلا من شذ»[٦].

١٠- التدرج في طلب العلم:

ينبغي أن يتعلّم الأساسيات والأمور الواضحات، ثم ينتقل منها إلى الجزئيات والأمور الدقيقة، وبهذا رسم ابن عباس رضي الله عنه منهج طلب العلم، فقال: «الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[٧].

١١- المداومة والاستمرار:

لابد لمن أراد العلم من مداومة الطلب والاستمرار عليه ما دامت الروح في الجسد. يجلي هذه الحقيقة أحمد بن حنبل عندما سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث «قال حتى يموت»[٨].

---

(١) «الفقيه والمتفقه (٢/ ٩٧).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٧٣).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٨).

(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (١٨٧).

(٥) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٨).

(٦) «حلية طالب العلم» (٣١)، وللكلام بقية مفيدة، فراجعه إن شئت.

(٧) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(٨) «شرف الحديث» للخطيب (٦٨).

ولما رأى رجل مع أحمد بن حنبل محبرة قال له: يا أبا عبدالله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين كأنه يقول -كفاك طلبًا للعلم- فأجابه أحمد قائلًا: «معي المحبرة إلى المقبرة»[1]. ولما قال رجل لابن المبارك إلى متى تكتب العلم قال: «لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد»[2]. وقرأ ابن الجوزي هو وابنه يوسف القراءات العشر وهو في الثمانين[3].

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٥٣-٥٤).

(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٨٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٧٧).

وهو: معرفة الله، ومعرفة نبيِّه، ومَعْرفة دينِ الإسلامِ بالأدلَّة.

....

معرفة الله: لابد للعبد من معرفة معبوده، وهو الله عزَّ وجلَّ وذلك بأمرين:

١- معرفته تعالى بآياته الشرعية المنزلة على رسوله ﷺ.

٢- معرفته تعالى بالنظر إلى آياته الكونية، وما فيها من عجائب الصنعة، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٤]، معرفة توجب محبته والخضوع له.

ومعرفة نبيه ﷺ فرض على كل مسلم معرفةً تستلزم كمال الانقياد والطاعة والمتابعة.

(**ومعرفة دين الإسلام**): لكونه الطريق الموصل إلى رضوان الله وجنته، وهو الدين الذي لا يقبل الله دينًا سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥] وامتن به علينا ورضيه لنا دينًا فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

(**بالأدلة**): الأدلة جمع دليل والدليل هو الموصل إلى المطلوب. فلا يمكن الوصول إلى المقصود إلا به، قال شيخ الإسلام: «من فارق الدليل ضَلَّ السبيل»(١).

ومن المعلوم أن ثمرة العلم العمل، قال الحسن البصري: «كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه ويده»(٢).

ولهذا كان السلف يحاسبون أنفسهم على التقصير في العمل ويربون أنفسهم ومن تحت أيديهم ومن يعلمونهم عليه ومن ذلك أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال: «إن أخوف ما

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

(٢) «الزهد» لعبد الله بن المبارك (٢٦)، رقم (٧٩).

أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت فماذا عملت فيما علمت»[(١)].

وفي لفظ: «إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول: ما عملت فيما علمت»[(٢)].

أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيحث عموم الأمة على محاسبة أنفسهم فيقول: «ما منكم من أحد إلا سيخلو به -أي ربه- كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول ابن آدم: ما غرّك بي، يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت، يا ابن آدم ما أجبت المرسلين؟»[(٣)].

وذلك أن قيمة العلم تتجلى وتظهر بالعمل به، كما قال عبد الله بن المعتز: «علم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة»[(٤)].

ومن التربية على العمل بالعلم تربية أُمّنا عائشة رضي الله عنها لأحد التابعين حينما جاءها يطلب العلم فعلمته حديثين أو ثلاثة ثم جاء من الغد فعلمته مثل ذلك، ثم جاء بعد ذلك فقالت له: «يا بني هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت له ففيم تستكثر من حجج الله علينا وعليك».

وكما وجّه أبو قلابة أيوب السختياني، قائلاً: «إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث له عبادة ولا يكن همك أن تحدث به الناس»[(٥)].

وذلك أن العالم الذي لا يعمل لا ينتفع بعلمه، فهو كما يقول مالك بن دينار: «العالم الذي لا يعمل بعلمه بمنزلة الصفا إذا وقع عليه الْقَطْرُ زلق عنه»[(٦)].

---

(١) المرجع السابق (١٤)، رقم (٣٩) و«حلية الأولياء» (١/ ٢١٣).

(٢) «الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٦). وانظر بلفظ مقارب «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٣).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (١٣) رقم (٣٨).

(٤) «اقتضاء العلم العمل» (١٧٤) رقم (٤٦).

(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٨٢) و«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٠).

(٦) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٢).

ومن النماذج على ربط العمل بالعلم: ما قاله الإمام أحمد بن حنبل للمروذي: واصفًا حاله: «ما كتبت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به حتى مرَّ بي الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت»(١). وكذلك سفيان الثوري حيث يقول: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة»(٢).

ولا بدّ من التوازن بين العلم والعمل فلا يطغى جانب على الآخر، قال سفيان الثوري مبينًا أهمية التوازن بين العلم والعمل عندما سئل: طلب العلم أحب إليك أو العمل؟ فقال: «إنما يراد العلم للعمل، لا تدع طلب العلم للعمل ولا تدع العمل لطلب العلم»(٣).

وهذا ينقلنا إلى المسألة الثانية وهي:

---

(١) «الجامع للخطيب» (١/ ١٤٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٤٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ١٢).

(الثانية): العمل به.

....

الضمير في (به) يعود إلى العلم، فيكون المقصود هو العمل بعلم الشرع المنزل على نبينا محمد ﷺ، فيختص بالعمل الصالح لأن «صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو، ومن عَلِمَه وعمل به كان من أولي الأيدي عملًا ومن أولي الأبصار علمًا»(١).

والعمل لغة: العين والميم واللام أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل(٢).

واصطلاحًا: هو فعل الأوامر تقربًا إلى الله وترك المناهي لأجل الله على سبيل الإسراع.

أما: فعل الأوامر تقربًا إلى الله؛ فذلك لأن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا لله وعلى هدي رسوله ﷺ، وأما ترك المناهي لأجل الله؛ فلأنه لو ترك المحرم خوفًا من الناس لم يكن له بذلك أجر.

ومما يدل على اشتراط أن يكون الفعل والترك كلاهما لله: حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وفيه: «فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي في طلب شيء يومًا(٣)، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا(٤) أو مالًا، فلبثت والقدح على

---

(١) «جامع المسائل» لشيخ الإسلام. تحقيق عزيز شمس المجموعة الثانية (٨٥).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ١٤٥).

(٣) وفي لفظٍ للبخاري: «فنأى بي الشجر».

(٤) وفي لفظٍ للبخاري ومسلم: «والصبية يتضاغون عند قدمي حتى طلع الفجر».

يديّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخَلِّيَ بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك(١) أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه...»(٢). والشاهد قولهم: «اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك».

أما على سبيل الإسراع فذلك لأن الله أمر به فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾[آل عمران:١٣٣] ولأن العمر قصير فلا يتحمل التسويف والتأخير وأيضًا فالموت يأتي بغتة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[الذاريات:٥٠] والفرار هو أقصى درجات السرعة.

وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء وهو نوعان:

النوع الأول: فرار السعداء: وهو الفرار إلى الله عز وجل.

«قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الذاريات:٥٠] فِرُّوا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبدالله: فروا مما سوى الله إلى الله، وقال آخرون اهربوا من عذاب

---

(١) وفي لفظ للبخاري: «يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه».

(٢) البخاري مع الفتح ٤/ ٤٤٩، كتاب الإجارة/ باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم ٤/ ٢٠٩٩، كتاب الرقاق/ باب قصة أصحاب الغار الثلاثة. رقم (٢٧٤٣).

الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة»[١]، فكل شيء إذا خفته هربت منه إلا الله إذا خفته هربت إليه، فتفر من سخطه إلى رضاه ومن عذابه إلى رحمته، وتلُوذُ به منه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: طلبت رسول الله ﷺ ذات ليلة في فراشي فلم أصبه فضربت بيدي على رأس الفراش فوقعت يدي على أخمص قدميه فإذا هو ساجد يقول: «**أَعُوذُ بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ، وأعوذُ برضاكَ من سخطكَ، وأعوذُ بك منك**»[٢]، «وتحت (من) و(إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها فهو متضمن لتوحيد الإلهية الذي اتفقت عليه دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد إنّما أوجبته مشيئة الله وحده فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه. ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»[٣]، وقوله: «**لاَ مَلْجَأْ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ**»[٤][٥].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) مسلم (١/ ٣٥٢) كتاب «الصلاة» / باب ما يقال في الركوع والسجود رقم (٤٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٨٤)، كتاب «الاستعاذة»، الاستعاذة برضاء الله من سخط الله تعالى، واللفظ له.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠٩)، كتاب الدعوات/ باب إذا بات طاهرًا. رقم (٦٣١١) ومسلم (٤/ ٢٠٨٢)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»/ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١٠).

(٥) «الرسالة التبوكية» (١٩-٢٠).

والفرار إلى الله قسمان:

الأول: فعل الواجبات والمستحبات:

ويدخل فيه كل ما أمر الله به أو أمر به رسوله ﷺ ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾[البقرة:٤٣].

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ...﴾[الأحزاب:٣٣].

وقول النبي ﷺ: «**تصدَّقْنَ؛ فإنَّ أكثركُنَّ حَطَبُ جهنَّم... قال: فجعلْنَ يتصدَّقْنَ من حُلِيِّهِنَّ يُلْقينَ في ثوبِ بلالٍ من أقْرِطَتِهِنَّ وَخواتِمِهنَّ**»(١).

الثاني: اجتناب المحرمات والمكروهات والمشتبهات:

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[آل عمران:١٣٠].

وحديث «**السَّبْعَة الّذينَ يُظلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ إلَى نَفْسِهَا قال: إنِّي أَخَافُ الله...**»(٢).

---

(١) مسلم (٢/ ٦٠٣-٦٠٤)، كتاب «صلاة العيدين». رقم (٨٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/ ١١٢)، كتاب «الحدود»/ باب فضل من ترك الفواحش. رقم (٦٨٠٦)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠)، كتاب «المساقاة»/ باب أخذ الحلال وترك المتشابه. رقم (١٥٩٩)، واللفظ له.

وقال ﷺ: «**الحَلالُ بَيِّن والحَرامُ بيِّن وبيَنَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهات لا يَعْلَمَهُنَّ كَثيرٌ مِنَ الناسِ، فَمن اتّقَى الشُبُهَاتِ استَبرأَ لِدينهِ وعِرضه...**»[١].

قال ابن رجب: «فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك»[٢].

ويضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة بترك المشتبهات ورعًا وخشية أن تكون حرامًا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنِّي لأَنْقلبُ إلى أهلي، فأجد التمرةَ ساقطة على فراشي، فأَرْفعها لآكُلها، ثم أَخْشى أنْ تكونَ صدقة فألقيها**»[٣].

قال عبدالله بن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»[٤].

النوع الثاني: فرار الأشقياء: وهو الفرار من الله إلى الشيطان، وذلك بارتكاب المعاصي والآثام[٥].

بأي شيء يكون العمل؟

يكون العمل بالقلب واللسان والجوارح.

١ - القلب:

القلب ملك الأعضاء وهو أساس الأعمال فلا تصلح الأعمال ولا يكون لها وزن أو قبول إلا به قال ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ في الجَسدِ مُضْغة إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَد كُلّه وإِذَا فَسَدتْ فسَد الجَسدُ كلّه ألاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[٦].

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٢٦) كتاب «الإيمان» / باب فضل من استبرأ لدينه. رقم (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠) كتاب «المساقاة» / باب أخذ الحلال وترك المتشابهات. رقم (١٥٩٩) واللفظ له.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٦٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ٨٦) كتاب «اللقطة» / باب إذا وجد تمرة في الطريق. رقم (٢٤٣٢).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٤٥)، كتاب «الإيمان» / باب قول النبي ﷺ: بني الإسلامُ على خمس، وإن أردت الاستزادة فراجع كتاب «الورع» للإمام أحمد.

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٦) سبق تخريجه.

ومما يدل على قدر القلب وعمله وأنه الأساس. أَنَّ المسلم إذا نوى وأراد أن يعمل ثم لم يستطع كان له مثل أجر العامل، فعن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «**إنَّ بالمدينةِ رجالًا ما سرتُم مسيرًا، ولا قَطَعْتُمْ وادِيًا، إلا كَانُوا معكم، حَبَسَهم المرضُ**». وفي رواية: **إلا شركوكم في الأجرِ**»[١]. وفي رواية البخاري عن أنس: «**حبسهم العذر**»[٢].

قال ابن حجر: «وفيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل»[٣].

ومن أعمال القلب الخوف والرجاء والمحبة... وغيرها.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يقولُ يومَ القيامةِ: أينَ المُتحابونَ بجلالي، اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي**»[٤].

وعن أنس بن مالك: «أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله متى الساعة قائمة؟ قال: «**وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا**» قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال: «**إِنَّكَ مَعْ مَنْ أَحْبَبْتَ**» فقلنا: ونحن كذلك، قال: «**نَعَمْ**» ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا. وفي رواية لمسلم: قال أنس: فأنا أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»[٥].

---

(١) مسلم (٣/ ١٥١٨)، كتاب «الإمارة» / باب ثواب من حبسه عن الغزو عذر. رقم (١٩١١).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٦-٤٧)، كتاب «الجهاد»/ باب من حبس العذر عن الغزو. رقم (٢٨٣٩).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٧).

(٤) مسلم (٤/ ١٩٨٨)، كتاب «البر والصلة»/ باب فضل الحب في الله. رقم (٥٦٦).

(٥) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٥٣)، كتاب «الأدب»/ باب ما جاء في قول الرجل: «ويلك». رقم (٦١٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢)، كتاب «البر والصلة»/ باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٣٩).

٢- اللسان:

لا شك أن اللسان عمله عظيم فبه يدخل المسلم الإسلام وذلك بنطقه الشهادة وبه يخرج من الدنيا موحدًا بنطقه الشهادة كذلك، قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيا لا إِلَهَ إلاَّ الله دَخَلَ الجنّة**»(١)، وفيما بين ذلك ذكر الله، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]. فمن أكثر منه سبق غيره كما قال ﷺ: «**سبق المفردون**» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذَاكِرُون الله كثيرًا والذَاكرات**»(٢).

ولذلك أرشد ﷺ من كثرت عليه شرائع الإسلام إلى الذكر، فقال: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطِبًا بذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ**»(٣).

ومن عمل اللسان التسبيح والتحميد والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والموعظة بالتي هي أحسن وغير ذلك.

٣- الجوارح:

أعمال الجوارح كثيرة جدًا كالصلاة والوضوء والصدقة والحج والعمرة والجهاد وإنكار المنكر باليد وغير ذلك من الأعمال، ومن أدلة ذلك:

قوله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحد يتوضأُ فيُسبغُ الوضوءَ ثم يقول: أشهدُ أن لا إلهَ إلاّ الله**

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٤٨٦)، كتاب «الجنائز»/ باب في التلقين. رقم (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال ابن الملقن: «هذا حديث صحيح». «البدر المنير» (٥/ ١٨٩).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٦٢)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»/ باب الحث على ذكر الله تعالى. رقم (٢٦٧٦).

(٣) أحمد (٤/ ١٩٠)، وقال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٠).

وأنَّ محمدًا عبدهُ ورَسوله إلاّ فُتِحت لهُ أبوابُ الجنّةِ الثمانِيةُ يَدخلُ من أَيِّهَا شَاء»(١).

وقال ﷺ: «**العُمرةُ إلى العمرةِ كفارةٌ لما بينَهُما والحجُّ المبرورُ ليس له جزاء إلاّ الجنة**»(٢).

شروط قبول العمل:

لقبول العمل شرطان:

١- الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥] والخالص هو الذي لا تشوبه شائبة شرك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[النحل:٦٦].

ومن السنة قوله ﷺ: «**إنَّ الله لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالصًا، وابْتُغِيَ به وجهُه**»(٣). وقوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت: «**ثلاث خصال لا يغلّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ أبدًا: إخلاص العمل لله**»(٤).

---

(١) مسلم (١/ ٢٠٩-٢١٠)، كتاب «الطهارة»/ باب الذكر المستحب عقب الوضوء. رقم (٢٣٤).

(٢) مسلم (٢/ ٩٨٣)، كتاب «الحج»/ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة. رقم (١٣٤٩).

(٣) «سنن النسائي» (٦/ ٢٥)، كتاب الجهاد/ من غزا يلتمس الأجر والذكر.

قال ابن رجب: «وخرج النسائي بإسناد جيد..». «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨١)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (٦/ ٢٨)، وقال المنذري: «إسناده جيد». «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٥).

(٤) أحمد (٥/ ١٨٣)، قال ابن عبد البر: «حديث ثابت». «التمهيد» (٢١/ ٢٧٥)، وقال المنذري: «وروي هذا الحديث عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خشينة، وغيرهم من الصحابة ﷺ، وبعض أسانيدهم صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٤).

٢- **المتابعة**، لقوله ﷺ: «**مَنْ أحدثَ في أَمرِنا هذا مَا ليسَ فيهِ فهو رد**» أي: مردود عليه غير مقبول. وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١).

قال الفضيل بن عياض عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢]. قال أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا والخالص إذا كان لله والصواب أن يكون على السنة(٢).

«فالعمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول والله تعالى إنما يتقبل من المتقين»(٣).

أحب الأعمال إلى الله:

كان النبي ﷺ عمله ديمه فإذا عمل عملًا أثبته. بهذا أجابت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت: أي العمل كان أحبَّ إلى النبي ﷺ قالت: الدائم(٤).

وإلى هذا أرشد النبي ﷺ حيث قال: «**أيُّها الناس خُذوا من الأعمالِ ما تُطيقون؛ فإن اللهَ لا يملُّ حتى تملُّوا، وإنّ أحبَّ الأعمالَ إلى الله: ما دامَ، وإنْ قَلَّ**»(٥).

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٠١) كتاب «الصلح»/ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. رقم (٢٦٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣) كتاب «الأقضية» / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور. رقم (١٧١٨).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

(٣) «منهاج السنة» (٦/ ٢١٦).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦)، كتاب «التهجد»/ باب من نام عن السحر. رقم (١١٣٢).

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ٣١٤)، كتاب «اللباس»/ باب الجلوس على الحصير. رقم (٥٨٦١).

س: العمل الصالح يؤهلنا لماذا؟

العمل الصالح يؤهلنا لرحمة الله تعالى قال ﷺ: «**سَدِّدوا وَقَارِبوا وأبشروا فإنهُ لا يُدخل أحدًا الجنّة عمَلُه**» قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: «**ولاَ أنا إلاّ أن يتغمدَني الله بمغفرةٍ ورحمةٍ**»(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣] فالباء للسبب أي أن العمل سبب للثواب والسبب لا يستقل بالحكم فهو محتاج إلى فضل من الله أكبر منه. فلا بد من العمل المأمور به ولابد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله وشهود العبد لتقصيره ولفقره إلى فضل ربه وإحسان ربه إليه قال سفيان بن عيينة: «كانوا يقولون: ينجون من النار بالعفو ويدخلون الجنة بالرحمة ويتقاسمون المنازل بالأعمال»(٢).

وقال عون بن عبدالله: «اليوم المضمار وغدًا السباق والسبقة الجنة والغاية النار فبالعفو تنجون وبالرحمة تدخلون وبالأعمال تقتسمون المنازل»(٣).

الأساليب في الحث على العمل:

كثرت أساليب الحث على العمل وتنوعت لاختلاف النفوس فنفس تتأثر بهذا الأسلوب وأخرى تتأثر بآخر، وثالثة بثالث ومن هذه الأساليب:

١- **الأوامر المباشرة**: والأمر يقتضي الوجوب والوجوب ملزم بالفعل ومن الأوامر قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة:٤٣].

٢- **الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع**: من لا يعمل بعلمه لم ينفعه، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ من العلم الذي لا ينفع، فيقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عِلمٍ لا ينْفَع ومِن**

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٩٤)، كتاب «الرقاق»/ باب القصد والمداومة على العمل. رقم (٦٤٦٧).

(٢) انظر «جامع الرسائل»/ المجموعة الأولى (١٤٥-١٥٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٤٦).

قلبٍ لا يخشعُ، وِمن نفسٍ لا تشْبعُ، وِمن دعوةٍ لا يُستجابُ لها»(١). وفي هذا تنفير شديد من علم لا يحرك صاحبه إلى العمل بقلبه وجوارحه.

٣- كثرة تكرار الاستعاذة من طريق الذين يعلمون ولا يعملون:

نظرًا لشدة قبح حال العالم الذي لا يعمل بعلمه وسوء فعله فإن الله تعالى بعد أن ذكر صراط عباده المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أتبعوا العلم بالعمل، أمر المؤمنين أن يستعيذوا من صراط المغضوب عليهم الذين معهم علم ولم يعملوا به، وهم اليهود ومن شابههم من علماء السوء فقال تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧].

فهذه الاستعاذة يكررها المسلم أكثر من سبع عشرة مرة في اليوم والليلة فلا بد أن تُوجِدَ في القلب الحي الحرص على العمل.

٤- الحث على التعاون على الطاعة:

الاستمرار على الطاعة ليس بالأمر السهل؛ لأن النفس تنشط تارة وتفتر أخرى، ولأجل ذلك أُمِرْنا بالتعاون على الطاعة قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[المائدة:٢]. أي لِيُعِنْ بعضكم بعضًا على فعل الأعمال الصالحة وما يقربكم إلى الله؛ لأن التعاون على الطاعة من أعظم ما يعين على المداومة عليها.

ولأهمية التعاون على الطاعة وضع النبي ﷺ برنامجًا للتعاون داخل الأسرة؛ لأنها هي أصل المجتمع فقال: **«رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قامَ من الليلِ فصلَّى ثم أيقظَ امرأتَهُ فصلّت فإن أبَتْ نضَحَ في وجِهها الماءَ ورحمَ الله امرأةً قامتْ من الليلِ فصلّت ثم أيقظَت زوجَها فصلّى فإن**

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٨٨) كتاب «الذكر» / باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. رقم (٢٧٧٢).

أبى نضحت في وجههِ الماء»[١].

٥- ضرب المثل في مدح العاملين وتقبيح العاصين:

للأمثال أهمية كبرى في تقريب المعلومات وتأثيرها على القلوب، ولأجل ذلك حثنا ربنا على تدبرها وتعقلها، وذلك بالثناء على من يعقلها، فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣] وفي وصفهم بالعالمين أكبر مدح وثناء عليهم.

ومن أمثلة مدح العاملين قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة:٢٦٥] فهي إن لم يصبها الوابل الغزير حصل لها طل كاف فليس عليها خطر أن تموت وهكذا المنفق على أجر عظيم في جميع الأحوال. فمن عقل هذا المثل حرص على فعل الطاعات والتزود منها.

ومن أمثلة تقبيح العاصين:

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[الأعراف:١٧٥-١٧٦].

«شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلَّمه العِلْمَ الذي منعه غيره، فترك العمل به واتّبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا -فهمته لا تتعدى بطنه- وأشدها

(١) النسائي (٣/ ٢٠٥) كتاب «قيام الليل وتطوع النهار»/ باب الترغيب في قيام الليل. وأبو داود (٢/ ٧٣)، كتاب «الصلاة» باب قيام الليل. رقم (١٣٠٨) وصحح إسناده النووي. «رياض الصالحين» (٤٠٢) رقم (١١٩١).

شرهًا وحرصًا، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيفُ القذرةُ والمُرْوِحةُ أحب إليه من اللحم الطري. وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلا هرّ عليه لحرصه وبخله وشرهه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار ا لآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع وهو أن هذا الذي حالته ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهثه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله تعالى والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها ولهفه نظير لهث الكلب الدائم حال إزعاجه وتركه»[١].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

«فهذا المثل وإن كان قد ضُرِبَ لليهود فهو متناوِلٌ من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يَرْعَهَ حق رعايته»[٢]. فمن عقل هذين المثلين نفر نفوراً عظيماً من معصية الله مستشعراً أهمية الطاعة والحرص عليها.

٦- بيان ثمرات العمل الصالح:

معرفة ثمرة العمل من أعظم ما يحرك القلوب ويرغبها في أدائه، ولذلك بين الله ثمارًا كثيرة للعمل الصالح في الدنيا والآخرة ومن هذه الثمار:

في الدنيا:

(أ) الحياة الطيبة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧] «وذلك بطمأنينة قلبه،

---

(١) «الأمثال» لابن القيم (٢١٥-٢١٦).

(٢) «المرجع السابق» (٢١٤).

وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب»(١).

(ب) محبة الله له:

تشرئب النفوس إلى محبة الله عز وجل، والطريق إليها هو التقرب إلى الله بعمل الصالحات. قال ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: «**وَمَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ ممّا افترضْته عليهِ وَما يَزالُ عبدي يتقرّبُ إليّ بِالنَوافِلِ حتى أُحِبَّه**»(٢).

(ج) قذف المحبة له في قلوب الناس: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم:٩٦] فإذا أحبه الله قذف محبته في قلوب الخلق وجعل له القبول في الأرض كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادى جبريلَ إنّ الله يُحِبُّ فلانًا فأحبّهُ فيُحبهُ جبريل فينادي جبريلُ في أهل السماء: إنّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحِبوُهُ فيُحِبُّه أهلُ السّماءِ ثم يُوضعُ لهُ القبولُ في الأرضِ**»(٣).

(د) النجاة من العذاب:

لا ينجي من سخط الله وعذابه إلا طاعته بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والآيات في هذا كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[يونس:٩٨].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٠١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٤١)، كتاب «الرقاق»/ باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٦١)، كتاب «الأدب»/ باب المقةُ من الله تعالى. رقم (٦٠٤٠).

وقوله: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا﴾[النساء:١٤٧] ولهذا استقر في نفوس الصحابة أن المعصية سبب العذاب وأن التوبة سبب النجاة، فعندما زلزلت الأرض على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى اصطفقت السرر خطب الناس فقال: «عجلتم لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم»[١]. وفي رواية قالت صفية: «زلزلت المدينة على عهد عمر، حتى اصطكت السرر، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أسرع ما أحدثتم والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم»[٢].

(هـ) زيادة الإيمان:

أكَّد اللهُ هذه الحقيقة في آي كثيرة من كتابه، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٣]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾[مريم:٧٦].

(و) رضى الله عنهم:

رضى الله عن العبد مرتبة عليا لا ينالها إلا الموفقون، فشعوره برضى الله عنه عند أدائه العمل يجعله حاثًّا الخطى، ومن ذلك: بيعة الصحابة لنبينا محمد ﷺ التي قال الله تعالى عنها: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾[الفتح:١٨].

وحمدُ الرب على النعم. قال ﷺ: «**إنَّ الله لَيَرْضَى عن العبدِ أنْ يأكلَ الأكْلَةَ فيحمدهُ عليها، أو يَشربَ الشربةَ فيَحمدهُ عليها**»[٣].

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٣) و«السنن الكبرى» للبيهقي (٢/ ٣٤٢).

(٢) «التمهيد» (٣/ ٣١٨).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٩٥)، كتاب «الذكر»/ باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب. رقم (٢٧٣٤).

في الآخرة:

أ-عند الموت بسهولة خروج الروح:

وذلك أنه «إذا كان العبد المؤمن في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، ثم يجلسوا منه مد البصر حتى يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقا...»(١).

ب- في القبر:

أما في القبر؛ فإنه «يوسع عليه قبره حتى يكون مَدَّ البصر ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: وأنت فبشرك الله بالخير من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح...»(٢).

ج- الأمن في موقف القيامة:

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النمل:٨٩].

---

(١) أحمد (٤/ ٢٨٧) وابن منده في «الإيمان» (٣/ ٩٤١-٩٤٤) وقال: «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء بن عازب... وهو ثابت على رسم الجماعة، وروي هذا الحديث عن جابر، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وعائشة رضي الله عنهم»، والبيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٣١٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وقال شيخ الإسلام: «وهو حديث حسن ثابت». «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٩٠).

(٢) سبق من حديث البراء.

د- الجنة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة:٢٥]. قال حذيفة رضي الله عنه في إحدى خطبه في المدائن بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: «اقتربت الساعة، وانشق القمر، ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بالفراق، ألا وإنَّ المضمار اليوم، وإن السباق غدًا، وإن الغاية النار، وإن السابق من سبق إلى الجنة»(١).

(٧) حفظ الأعمال:

إذا تذكر المسلم أن عمله محفوظ له لن يضيع منه حتى مثاقيل الذر حرص على الجدّ فيه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧-٨].

(٨) عقد المقارنة بين ثواب المطيعين وعقاب العاصين:

استنكر الله تسوية المطيع بالعاصي والصالح المصلح المتقي بالمفسد فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:٣٥-٣٦]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨].

فلما جمع الله الضدين في موضع واحد تبين الفرق بينهما، والفرق بين نتيجة كل منهما كما يقال: وبضدها تتميز الأشياء.

(٩) السؤال في موقف عصيب:

في الموقف المخيف الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر يأتي السؤال عن العمل فهل أعددنا الجواب؟ عن أبي برزة الأسلمي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تَزُول قَدما عبدٍ يومَ القيامةِ**

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٨) رقم (١٦٦٤٨).

حتى يُسأل: عن عمرهِ فيم أفناه، وعن علمه فِيمَ فعل به»[(١)]. فمن استشعر السؤال يوم القيامة أوجب له العمل في الدنيا لعله ينجو.

(١٠) بقاء بعض الأعمال مستمرة بعد الموت:

كون ثواب العمل لا ينقطع عن الإنسان بعد موته يجعله حريصًا على فعله راجيًا استمرار ثوابه، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إِذَا ماتَ الإنسانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثة: صَدَقةٍ جاريةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صَالِحٍ يدْعُو لَهُ**»[(٢)].

فينبغي أن يضرب المسلم بسهم في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة إن استطاع وإلا فواحد منها.

خطورة التفريط وإضاعة الوقت:

الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، قال الله عنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان:٦٢].

فمن الناس من يوفق فيستغل وقته بما ينفع فيفرح إذا وجد الصالحات في صحيفته غدًا، ومن الناس من يضيع ويفرط فيتحسر ويندم على التفريط، ولهذا حذر الله نبيه ﷺ من طاعة المفرطين فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨] قال أبو الجوزاء «فرطًا أي تسويفًا»[(٣)].

وقال تعالى مبينًا خطورة التسويف حتى الموت، ومن ثم القيامة، فيندم حين لا ينفعه الندم ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[القيامة:٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما «يعني الأمل يقول الإنسان:

---

(١) الترمذي (٤/ ٦١٢) كتاب «صفة القيامة»/ باب في القيامة. رقم (٢٤١٧)، وقال: «حديث حسن صحيح». وقال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٩).

(٢) مسلم (٣/ ١٢٥٥) كتاب «الوصية»/ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. رقم (١٦٣١).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٥) رقم (١٩٧).

أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة»[١] وقال «أي سوف أتوب»[٢] وبمثله قال سعيد بن جبير[٣].

وحذر النبي ﷺ من التسويف وتأخير العمل فقال فيما يرويه عنه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه أخذ بمنكبه فقال له: «**كُنْ في الدُّنْيا كَأَنَكَ غَرِيبٌ أو عَابِر سَبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «إذَا أمسَيْتَ فلا تَنْتَظِر الصّباح وإذا أصْبَحت فلا تَنتظر المساءَ وخُذْ من صحتِكَ لَمرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكِ»[٤].

ومعنى (أو) أي بل. «فشبَّه النبي ﷺ السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يؤويه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة ومن ثم عقبه بقوله «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» وبقوله «وعد نفسك في أهل القبور» والمعنى استمر سائرًا ولا تفتر فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية»[٥].

وكان لهذه التربية بالغ الأثر على سلفنا الصالح. فحفظوا أوقاتهم وربوا من تحت أيديهم على حفظه.

---

(١) «جامع البيان» (٢٩/ ١٧٧).

(٢) «المستدرك» للحاكم (٢/ ٥٠٩).

(٣) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٢٦) رقم (٢٦٤)، و«جامع البيان» (٢٩/ ١٧٧).

(٤) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٣٣)، كتاب «الرقاق»/ باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل. رقم (٦٤١٦).

(٥) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٤).

ومن الآثار الواردة عنهم في ذلك:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدةٍ منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»(١).

وهذا ثمامة بن بجاد السلمي -وكانت له صحبة- يوصي قومه شفقة عليهم لئلا تضيع أوقاتهم فيقول: «أي قوم أنذرتكم سوف أعمل، سوف أصلي، سوف أصوم»(٢).

وعند الموت تتضح الحقائق وتنكشف المغيبات ويعرف الإنسان قيمة الوقت والغبن العظيم في التسويف. فها هو رجل من عبدالقيس يوصي -وهو في مرض موته- بعض أصحابه فيقول: «احذروا سوف»(٣) وفي رواية «أنذرتكم سوف»(٤).

وأما الحسن البصري فيحذر من التسويف مؤكدًا ذلك بقصر العمر ومفاجأة الموت فيقول «إياك والتسويف فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدٌ لك فكِسْ في غدٍ كما كِسْتَ في اليوم وإلا يكن لك لم تندم على ما فرطت في اليوم»(٥).

ويؤكد هذه الحقيقة عون بن عبدالله فيقول: «كم من مستقبل يومًا لا يستكمله ومنتظر غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره»(٦).

والتسويف من جند إبليس يحارب به الناس ليصدهم عن طاعة ربهم كما روى قتادة

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٣٥)، كتاب «الرقاق»/ باب في الأمل وطوله.

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٥) رقم (١٢)، وانظر «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٢٦).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٥) رقم (١٢٨).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٥)، رقم (١١).

(٥) «الزهد» لابن المبارك (٤) رقم (٨)، و«اقتضاء العلم العمل» (٢٢٦) رقم (١٩٩).

(٦) «الزهد» لابن المبارك (٤) رقم (١٠).

عن أبي الجلد قال: «قرأت في بعض الكتب «إن سوف من جند إبليس»[١]. وفي لفظ: «وجدت التسويف جندًا من جند إبليس قد أهلك خلقًا من خلق الله كثيرًا»[٢].

ومن ابتلي بالتفريط والتسويف عوقب بالجدل الذي يحطم حسناته، ويضيِّع عليه وقته. قال معروف الكرخي: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل»[٣].

وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرًا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل»[٤].

فعلينا أن نحذر من التسويف ونسارع في طلب العلم والعمل به وتعليم الناس الخير قبل الانشغال أو نهاية العمر.

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٦) رقم (٢٠٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٥٥).

(٣) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٥١٠) رقم (٥٨٩) تحقيق رضا نعسان و«شعب الإيمان» للبيهقي (٤/ ٤٣٧) رقم (١٦٩٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢١).

(الثالثة): الدعوة إليه.

....

الدعوة من المسائل الثلاث المرتبطة عند سلف الأمة لا تنفك إحداها عن الأخرى كما يجلِّي ذلك الفضيل بن عياض مؤكدًا ترابطها وفضلها وفضل من قامت به هذه الثلاث فيقول: «عالم عامل معلم يدعى كبيرًا في ملكوت السموات»(١).

وليس التأكيد على ترابطها وفضلها خاصًا بالفضيل بن عياض بل السلف كلهم مجمعون على ذلك كما نقله ابن القيم فقال: «فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًا، حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علِم وعمل وعلَّم، فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السموات(٢).

وممن قرر هذه الحقيقة من الأئمة عبدالله بن المبارك وعبدالرحمن بن مهدي، ومحمد ابن النضر، وسفيان الثوري وعبدالملك بن قريب الأصمعي والضحاك بن مزاحم حيث قالوا: «أول العلم النية ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر»(٣).

ولما سئل مالك لم طلبت العلم؟

أجاب بقوله: «لأنفي الجهل عن نفسي ثم لأعمل به، ثم لأنفي الجهل عن غيري».

الدعوة لغة: مأخوذة من الدعاء، وهو: النداء والطلب أي النداء لحث الناس على عمل ما.

---

(١) «سنن الترمذي» (٥/ ٥٠).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٢)، «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٨)، «الجامع» للخطيب (١/ ١٩٤)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٦).

واصطلاحًا: إبلاغ شرع الله للناس وترغيبهم فيه وتحذيرهم من ارتكاب نواهيه باللسان والأركان.

وعرفها شيخ الإسلام فقال: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا»(١).

وأفردها المؤلف مع أنها من صميم العمل لأمرين:

(١)- **غفلة الناس عنها** وظنهم أنها لا تدخل في صميم العمل، وأن من لازم العبادة بخاصة نفسه فقد أدى العبادة، ولا يضره بعد ذلك من ضل وزاغ عن الهدى، وربما استدلوا على هذا الظن الخاطئ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا ﴾[المائدة:١٠٥].

والخطأ في بيان معناها ليس جديدًا ولذلك اضطر أبو بكر رضي الله عنه إلى تصحيح هذا المفهوم كما روى ذلك قيس قائلًا: قام أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[المائدة:١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ النّاسَ إذا رأوا المنْكَر فلم يُغيروه أَوْشَكَ أن يَعمهم الله بِعقابه**»(٢).

قال أبو العالية قرأت هذه الآية على ابن مسعود ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ فقال ابن مسعود: «ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم. فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥٧) وانظر نفس الموضع فقد ذكر ماذا يتضمن التعريف.

(٢) أحمد (١/ ٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧)، كتاب «الفتن»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠٠٥)، قال شيخ الإسلام: «وفي الحديث الثابت...» ثم ذكر هذا الحديث. «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٧).

(٣) «جامع البيان» (٧/ ٩٤).

قال شيخ الإسلام معلقًا: فابن مسعود قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر وما ذكر من باب الحساب والقيامة من باب الخبر[١]. يعني قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾.

وقال في موضع آخر «وقد غلط فيها فريقان من الناس، فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلًا لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ تضعونها على غير ما وضعها الله...»[٢][٣].

(٢) أهمية الدعوة:

للدعوة أهمية كبرى فبها قوام الأمة وحياتها ولا يمكن أن تحافظ الأمة على دينها وهويتها إلا بالدعوة إلى الله، وبدونها تهوي الأمة إلى الحضيض. فتنتقض عرى الدين عروة عروة حتى لا يبقى منه شيء، فتعود الجاهلية مرة أخرى.

ومما يدل على أهميتها: أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

ولئن كانت الدعوة إلى الله مهمة في أزمنة مضت فإن أهميتها تزداد في هذه الأيام حيث إن أهل الضلال من الكفار وأذنابهم من المنافقين قد شنوا هجمة شرسة منظمة ضد الإسلام وأهله ليستأصلوه طامعين أن يطفئوا نور الله. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) أحمد (١/ ٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

حكم الدعوة إلى الله:

«الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه -أي: محمدًا ﷺ- وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله... فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله... وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية... فكلُّ ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكلُّ ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهي عنه»(١).

فهي واجبة لأمرين:

(١) **الأمر**: والأمر يقتضي الوجوب وقد تكاثرت الأدلة من الكتاب والسنة على الأمر بالدعوة إلى الله فجاءت بالأمر المباشر للرسول ﷺ بنفسه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[المدثر:١-٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:٩٤].

وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧].

«فهذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ويدخل في هذا كل أمر تَلقَّتْه الأمة عنه ﷺ من العقائد والأقوال والأحكام الشرعية»(٢).

فبلَّغ النبي ﷺ البلاغ المبين وشهد له الصحابة بذلك، كما في حجة الوداع، حينما قال: «**ألا هل بلَّغت، اللهم اشهد**»، واستشهد أصحابه، فقالوا: نشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.. وشهدت له الأمة كلها بالبلاغ قالت عائشة رضي الله عنها: «من

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٤-١٦٧) بشيء من التقديم والتأخير.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠١).

حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[١]، ولا يجوز أن تترك الدعوة إلى الله حتى وإن وجدت المعوقات، قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[القصص:٨٧].

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمرٌ لأمته ومع ذلك فقد أمرهم الله أمرًا عامًا، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٠٤].

قال الزجاج: «ومعنى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ -والله أعلم-: ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف»[٢].

وقال مكي بن أبي طالب الأندلسي: «(من) هنا لبيان الجنس، والمعنى: ولتكونوا كلكم أمة مستقيمة يدعون إلى الخير... ومثله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[الحج:٣٠]، فلم يأمرهم باجتناب بعض الأوثان، وإنما المعنى فاجتنبوا الأوثان؛ فإنها رجس، فكذلك لم يأمر بعض المؤمنين بالدعاء إلى الخير دون بعض، إنما أمرهم كلهم، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]»[٣].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد» باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ رقم (٧٥٣١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤٥٢).

(٣) «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٠٨٨)، وقد رجحه السمعاني في «تفسيره» (١/ ٣٤٧)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٨٥).

«وفي مطلق قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم»(١)، وذلك أن اللام في قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر، والأمر يقتضي الوجوب، وعطف الأمر بالمعروف على الدعوة من باب عطف المتماثلين «فالدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به واستدعاء له، ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر»(٢).

وأمر النبي ﷺ أمته بالتبليغ فقال: «**بَلِّغُوا عَني وَلَوْ آية**»(٣) وقال: «**ألاَ لِيُبَلِّغ الشَاهِد مِنْكُم الغَائب**»(٤) وقال النبي ﷺ: «**ارْجعُوا إلى أَهْليكُمْ فأَقيموا فيهم فعلّموهُم**»(٥) وفي حديث وفد عبدالقيس وفي آخره قال: «**احْفَظُوه وأَخْبِرُوهُ مَنْ وَراءَكُمْ**»(٦).

«فقال في الحديث «ولو آية» أي واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قلَّ»(٧).

ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أهمية الدعوة إلى دين الله فخرجوا إلى أصقاع الأرض وهمهم نشر دين الله تعالى، إما بأمره كما بعث النبي ﷺ خاله حرامًا إلى قوم فقال لهم:

---

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٢٩٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٦١).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٩) كتاب «العلم»/ باب ليبلغ الشاهد الغائب. رقم (١٠٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ١١١) كتاب «الأذان»/ باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة. رقم (٦٣١).

(٦) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٣-١٨٤) كتاب «العلم»/ باب تحريض النبي ﷺ على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم. رقم (٨٧٤).

(٧) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٨).

أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم[١].

وكما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذًا إلى اليمن، قال: «وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان...»[٢].

و بعث أبا موسى الأشعري إلى قومه[٣].

وبعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والبراء بن مالك، قال البراء بن مالك: «بعثنا رسول الله مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث عليًّا بعد ذلك مكانه»[٤].

وإما باجتهاد منهم، كخروج عبد الله بن مسعود إلى الكوفة، ومعاذ إلى الشام، وذلك لأنهم يستشعرون مسؤولية التبليغ، قال أنس بن مالك: «بلغني أن العلماء يُسْأَلُونَ يوم القيامة كما تسأل الأنبياء يعني عن تبليغه»[٥].

ومن ثَمَّ انغرس حبُّ الدعوة والتعليم فيمن بعدهم، وصاروا يربون تلاميذهم على ذلك، قال ابن القاسم: «كنا إذا ودّعنا مالكاً يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه»[٦].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٠)، كتاب «المغازي»/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم (٤٣٤١، ٤٣٤٢).

(٣) المرجع السابق (٨/ ٦٣). رقم (٤٣٤٦).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥)، «كتاب المغازي»/ باب بعث علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم (٤٣٤٩).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٣).

(٦) المرجع السابق.

(٢) لأنها ضرورة:

أي لا يمكن أن تسعد المجتمعات وتتمسك بالدين وتنهج النهج القويم إلا بالدعوة إلى الله، وتتجلى ضرورتها بأمرين:

أ- إقامة الحجة على الناس:

بالدعوة إلى الله تقوم الحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥].

«فأخبر في كتابه أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة»(١). فمهمة الرسل إذًا هي البشارة والإنذار؛ لئلَّا يحتج الناس يوم القيامة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

«دلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال»(٢).

قال شيخ الإسلام «تقرير الحجة في القرآن بالرسل كثير» وذكر الآيتين السابقتين وذكر معهما خمس آيات في نفس المعنى(٣).

ب- حماية المجتمع من الفساد والعقوبة:

يصور النبي ﷺ هذه المعركة الدائرة بين المفسدين وبين الدعاة إلى الله فيقول: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثلِ قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء: مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا: هلكوا جميعًا، وإن**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨٦).

(٢) المرجع السابق (١٩/ ٦٦).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٣).

أخذوا على أيديهم: نجوا ونجوا جميعًا»(١). فالمصلحون في الأمة هم صمام الأمان لها وسبب نجاتها من الإهلاك العام فإذا فقدوا حلَّ بها عذاب الله كلها، وإن كان فيها صالحون، ويدل لذلك جواب النبي ﷺ لزينب بنت جحش رضي الله عنها عندما سألته: أنهلك وفينا الصالحون، قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»(٢)، والخبث هو الفسق والفجور(٣).

أقسام الدعاة:

ينقسم الدعاة إلى قسمين:

الأول: دعاة إلى الهدى والصراط المستقيم، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم من أهل العلم والبصيرة، كإبراهيم عليه السلام، فإنه دعا أباه إلى الصراط المستقيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[مريم:٤٣]، وكذلك أثبت الله الدعوة إلى الصراط المستقيم لنبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الشورى:٥٢-٥٣].

بل أثبت له الدعوة بشرطها، فقال سبحانه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[الأحزاب:٤٦] «فأخبر الله أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع»(٤)، بل قد قال الأنبياء أجمع لأقوامهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

واستن بهم أتباعهم فدعوا الناس إلى الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ١٣٢) كتاب «الشركة»/ باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه. رقم (٢٤٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٨١) كتاب «الأنبياء»/ باب قصة يأجوج ومأجوج. رقم (٣٣٤٦).

(٣) «شرح السنة» (١٤/ ٣٩٨).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٣٤-٨٣٥).

سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر:٣٨].

وتشمل الدعوة إلى الهدى ثلاثة أمور:

١- تأسيس مجتمع إسلامي:

حين يكون المجتمع جاهليًا فلابد من تأسيس مجتمع إسلامي يطهر الأرض من رجس الشرك والوثنية، ويعين المسلمين على التمسك بدينهم وأقوى نموذج لذلك ما فعله ﷺ حيث أسس المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في المدينة النبوية، ومن ثم اتسع إلى أطراف الأرض.

٢- إصلاح انحراف المجتمعات الإسلامية:

كلما انحرف الناس وابتعدوا عن الدين هيأ الله لهذه الأمة من يجدد ما اندرس من دينها فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لهذهِ الأمّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجَدد لَهَا دينَها**»(١).

٣- المحافظة على سلامة المجتمعات:

قد تكون المجتمعات صالحة ولكن مهما كان صلاحها فهي محتاجة إلى الموعظة والتذكير فلقد كان النبي ﷺ يذكر أصحابه ويعظهم موعظة توجل منها القلوب وتذرف منها العيون وكذلك ابن عباس وابن مسعود يعظان الصحابة والتابعين كل خميس، وذلك

---

(١) أبو داود (٤/ ٤٨٠) كتاب «الملاحم»/ باب ما يذكر في قرن المائة. رقم (٤٢٩١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٢٢٣). رقم (٦٥٢٧)، قال السخاوي «سنده صحيح ورجاله كلهم ثقات... وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث» «المقاصد الحسنة» (١٢٢) رقم (٢٣٨)، وقال السيوطي «اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح» «التنبئة» (٢)، وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده صحيح». «تيسير العزيز الحميد» (٢٤)، وقال الألباني «والسند صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم» «السلسلة الصحيحة» (٢/ ١٥٠) رقم (٥٩٩).

لأجل الحفاظ على صلاح المجتمعات؛ لأنه كلما ازداد الإيمان في القلوب صلح الأفراد وإذا صلح الأفراد صلحت المجتمعات.

الثاني: دعاة إلى الضلالة:

وهؤلاء الدعاة قدوتهم وإمامهم إبليس، قال تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص:٨٢]، وقال: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٦٢]، ومن أئمتهم فرعون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[القصص:٤١]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾[هود: ٩٨].

فهم أئمة يقتدى بهم ويسار خلفهم إلى دار الشقاء والعذاب والجحيم والأغلال. ولقد حذرنا منهم نبينا ﷺ لئلا نقع في شباكهم كما في حديث حذيفة عندما سأل النبي ﷺ عن الشر وفيه: «قلت فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّم مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**» قلت: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلمونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»(١).

فضل الدعوة إلى الله:

يكفي في فضل الدعوة إلى الله أنها مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام. كيف وقد رتب الله عليها الأجر العظيم المستمر قال ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٦١٥-٦١٦) كتاب «المناقب» / باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٠٦)، ومسلم (٣/ ١٤٧٥-١٤٧٦)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. رقم (١٨٤٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٦٠) كتاب «العلم» / باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة. رقم (٢٦٧٤).

فربما كتب لك أجر القائم الصائم المجاهد المرابط المتصدق وأنت على فراشك أو في قبرك؛ لأنهم اهتدوا على يديك.

ولفضل الدعوة إلى الله ولعظم نفع الدعاة للمجتمع دعا لهم النبي ﷺ بنضرة وجوههم فقال: «**نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فبلّغها**»(١). نضرة في الدنيا والآخرة.

واستحقوا هذه الدعوة لأنهم جملوا باطنهم بالإخلاص وظاهرهم بالطاعة والعبادة، بل زادوا فجملوا عباد الله، وذلك بدعوتهم إلى الاستقامة والعبادة، فناسب أن يدعى لهم بهذه الدعوة المباركة، قال تعالى مبينًا جزاءهم يوم القيامة ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾[الإنسان:١١] أي أكرمهم فأعطاهم نضرة في وجوههم وسرورًا في قلوبهم فجمع الله لهم بين نعيم الباطن والظاهر، ولأجل ذلك صارت مرتبة الدعوة بعد مرتبة النبوة، قال ابن المبارك: «لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»(٢).

كيفية الدعوة:

لكيفية الدعوة ملامح عامة تندرج تحتها جزيئات كثيرة أكتفي بذكر الملامح العامة، وهي:

١- البداءة بالأهم ثم المهم:

فأهم أمر هو التوحيد ولأهميته بدأت به الرسل دعوتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦].

وجعل النبي ﷺ البداءة به منهجًا للداعية كما في قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فليكن أوَّل ما تدعوهم إلى أن يوحِّدوا الله** -وفي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٣٨).

رواية- **أوَّل ما تدعوهم إليه عبادة الله** -وفي رواية- **فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلَّا الله، فإذا عرفوا ذلك؛ فأخبرهم: أنَّ اللهَ فرض عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم...**»[١].

٢- مخاطبة الناس كلٌّ بما يناسبه:

الناس من حيث قبولهم للحق وعدمه على أحوال أربع، هي:

أ- القابل للحق.

ب- من كان عنده نوع تلكؤ وتأخر.

ج- المعارض المجادل.

د- المعارض الظالم.

ولما كانوا كذلك اختلف خطاب كل واحد منهم عن الآخر، فصار القابل للحق يدعى بالحكمة، ومن كان عنده نوع تلكؤ وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، والمعارض المجادل يجادل بالتي هي أحسن، والمعارض الظالم يجادل بالغلظة والشدة.

قال ابن القيم: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة»[٢].

وذلك أنه يشتد افتقار العبد إلى العظة، وهي الترغيب والترهيب، إذا ضعفت إنابته وتذكره وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٤٧)، كتاب «التوحيد»/ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. رقم (٧٣٧٢)، ومسلم (١/ ٥١)، كتاب «الإيمان»/ باب الدعاء إلى الشهادتين. رقم (١٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٣).

والعظة يراد بها أمران: الأمرُ والنهيُ المقرونان بالرغبة والرهبة، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة، فيُجَادَل بالتي هي أحسن. فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

فإن أبى إلا الظلم، وإلقاء التهم، والسخرية بالداعي إلى الله، انتقل معه إلى المجادلة بالغلظة والشدة ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وكما قال موسى عليه السلام لفرعون حين سخر منه: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾[الإسراء: ١٠٢][١].

٣- جعل الدعوة تيارًا متكاملًا:

وذلك أن كل فرد ينبغي أن يكون له نصيب من الدعوة إلى الله كل بحسب علمه واستطاعته قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[٢] وهو خطاب عام للأمة فكل يبلغ ما يعرف. وفي حديث مالك بن الحويرث: «**ارْجِعُوا إلى أَهْلِيكُمْ فأَقِيموا فيهم فَعَلِّمُوهم**»[٣].

وقال ﷺ مخاطبًا الأمة كلها صغيرها وكبيرها ذكرها وأنثاها: «**من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع؛ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٤].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (١/ ٦٩) كتاب «الإيمان»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٧٨).

ولهذا كان كتمان العلم وعدم نشره معصية كبرى يعاقب عليها المسلم يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من رجلٍ يحفظ علمًا فيكتمه إلا أُتي به يوم القيامة مُلْجمًا بلجامٍ من النار**»(١).

وعقوبة كتمان العلم تقضّ مضجع أبي هريرة ﵁ وتخيفه، فينشره بين الناس حتى لو قيل فيه ما قيل، فعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثًا ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٥٩-١٦٠] (٢).

«معناه لولا أن الله ذم الكاتمين للعلم ما حدّث أصلًا لكن لما كان الكتمان حرامًا وجب الإظهار»(٣).

وكما حدّث معاذ عند موته خوفًا من الإثم(٤).

من وسائل الدعوة:

وسائل الدعوة كثيرة ومتنوعة ولعلي أقتصر على وسيلتين يستطيعهما كل أحد، وهما:

الأولى: اللسان: اللسان هو الآلة التي يستطيع بها الإنسان أن يعبر عما في نفسه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤] «أي ليبين لهم ما

---

(١) ابن ماجه (١/ ٩٦) «المقدمة» / باب من سئل عن علمه فكتمه، رقم (٢٦١) وحسنه الألباني كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٢١٣) كتاب «العلم» / باب حفظ العلم (١١٨).

(٣) فتح الباري (١/ ٢١٤).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٢٢٦) كتاب «العلم» / باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١٢٨).

يحتاجون إليه ويتمكنون من تعلم ما أتى به بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم»(١).

ولما كانت الإبانة باللسان سأل موسى ربه حين أرسله إلى فرعون أَنْ يحلل عقدة من لسانه لأجل أن يفقهوا قوله حتى يبلغهم رسالة ربه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾[طه:٢٧-٢٨] بل دعا الله أن يرسل معه الرجل الفصيح اللسان ليكون البلاغ أقوى ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤].

ومن الأساليب ما يلي:

١- **الموعظة المباشرة:** للموعظة أثر كبير في تربية الناس وصقل قلوبهم، كما في حديث العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فما تعهد إلينا...(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧٥).

(٢) أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣)، كتاب «السنة»/ باب في لزوم السنة. رقم (٤٦٠٧) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٤)، كتاب «العلم»/ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع. رقم (٢٦٧٦)، قال: «حديث حسن صحيح»، والدارمي في «السنن» (١/ ٤٥)، «المقدمة»/ باب اتباع السنة. رقم (٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٢٤٥).

ونقل ابن عبد البر عن البزار قوله: «حديث عرباض بن سارية في الخلفاء الراشدين حديث ثابت صحيح». ثم قال أبو عمر: «هو كما قال البزار حديث عرباض حديث ثابت». «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٨٢). وقال الحافظ أبو نعيم: «هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين». «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٥٧).

وقال الذهبي عن طريق الدارمي والطبراني: «هذا حديث عالٍ صحيح الإسناد». «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٨٢-٤٨٣).

وينبغي أن يتخول الواعظ الناس بالموعظة كما كان النبي ﷺ يفعل: فعن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»(١).

وكان ابن مسعود يُذَكِّر النَّاسَ كل خميس فقال له رجل يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»(٢).

وقال الحسن: «كان يقال: حدث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا، فاعلم أن لهم حاجات»(٣).

وقد تكون الموعظة فردية وقد تكون جماعية حسب الحال والمصلحة.

٢- استغلال الفرص:

لا ينبغي ترك الفرصة تفوت فربما لا تمر ثانية فلنستغلها، كما استغل الفرصة يوسف عليه السلام عند ما جاءه الرجلان يسألانه عن الرؤيا، فبدأ بالدعوة إلى التوحيد أولاً؛ لأنهما سيستمعان وينصتان له ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٣٧-٤٠].

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٢)، كتاب «العلم»/ باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا. رقم (٦٨).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٣) كتاب «العلم»/ باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة. رقم (٧٠).

(٣) «سنن الدارمي» (١/ ١١٤) باب/ من كره أن يمل الناس. رقم (٤٤٩).

ثـم عـبَّر لهـما الرؤيـا: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾[يوسف:٤١].

وكما فعل النبي ﷺ مع عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة حيث قال له: «**يَا عَم قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةٌ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله**»(١) وذلك لأن الإنسان إذا انقطع من هذه الدنيا رقّت حاله فصار تفكيره في مآله فناسب أن يدعوه ﷺ لعله أن يهتدي فيموت مسلمًا.

٣- ذكر المحاسن للتنبيه على الخطأ:

من أعظم ما يفتح قلب المدعو لقبول ما تدعوه إليه ذكر بعض محاسنه كما فعل النبي ﷺ مع عبدالله بن عمر، قال عبدالله بن عمر: رأيت على عهد النبي ﷺ كأن بيدي قطعة إستبرق فكأني لا أريد مكانًا من الجنة إلا طارت إليه ورأيت كأن اثنين أتياني أرادا أن يذهبا بي إلى النار فتلقاهما ملك فقال لم ترع خليا عنه. فقصت حفصة على النبي ﷺ إحدى رؤياي فقال النبي: «**نِعْمَ الرّجل عبدُالله لَوْ كَانَ يُصّلي من اللّيلِ**» فَكَانَ عبدُالله رضي الله عنه يُصلّي من اللّيلِ(٢).

قال سالم: فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا(٣).

٤- التودد للمخاطب:

التودد للمخاطب مما يفتح قلبه لسماع ما تلقيه عليه واستجابته لك. وذلك ببيان محبتك له وحرصك عليه ونصحك له أو الدعاء له أو نحو ذلك. عن معاذ بن جبل أن

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٢٢) كتاب «الجنائز»/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله. رقم (١٣٦٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٤٠) كتاب «التهجد»/ باب فضل من تعار من الليل فصلى. رقم (١١٥٦، ١١٥٧).

(٣) مسلم (٤/ ١٩٢٧) كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. رقم (٢٤٧٩).

رسول الله أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إنِّي لأحبُّك، والله إنِّي لأحبُّكَ، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كلّ صلاة تقول: اللهمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك**»(١).

وعندما استقبل النبي وفد عبد القيس قال: «**مرحَبًا بالقومِ أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى**»(٢).

ولهذا بوب له البخاري بقوله: «باب تحريض النبي ﷺ وفد عبدالقيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم»(٣).

٥- التعليم بصيغة السؤال:

طرح السؤال على السامع يحرك همته لاستيعاب جواب ما يسأل عنه كحديث جبريل المشهور وفيه يا محمد ما الإسلام.. ما الإيمان.. ما الإحسان...

وحديث معاذ بن جبل حينما كان رديف النبي ﷺ قال معاذ: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «**يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟**». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...**»(٤).

٦- اللطف في التعليم:

من سمات منهج الأنبياء عليهم السلام اللطف في التعليم والدعوة، ومن ذلك: تلطف إبراهيم عليه السلام مع أبيه حيث كان يقول له: يا أبت يا أبت: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٣)، كتاب «العلم».

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٤٧)، كتاب «التوحيد»/ باب ما جاء في دعاء أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. رقم (٧٣٧٣).

وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[مريم:٤٢-٤٣]. «وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى فإنه لم يقل: أنا عالم وأنت جاهل أو ليس عندك من العلم شيء وإنما أتى بصيغة أن عندي وعندك علمًا وأن الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها»(١).

وها هو نبينا محمد ﷺ يتلطف مع معاوية بن الحكم السلمي فيؤثر فيه تأثيرًا بليغًا فيروي قصته رضي الله عنه قائلًا: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هذه الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام النَّاس، إنَّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»(٢).

وقال أبو هريرة للفرزدق: «يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرتين فاطلب لهما موضعًا في الجنة»(٣).

ثانيًا: الدعوة بالأركان «القدوة»:

الدعوة بالقدوة أبلغ من اللسان وأقوى وأنفع. وربما كانت أسرع استجابة والنماذج من الدعوة بالقدوة كثيرة منها:

١- لما فرغ النبي ﷺ من قضية الكتاب في صلح الحديبية، قال لأصحابه: «قوموا

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٤٤).

(٢) مسلم (١/ ٣٨١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته. رقم (٥٣٧).

(٣) «المؤتلف والمختلف» (٤/ ١٨٣٣) و«الكامل» لابن عدي (٤/ ٨٧).

فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا»(١).

٢- عن جرير بن عبدالله قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤوا عنه حتى رُئي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلًا من الأنصار جاء بصُرَّةٍ من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه فقال رسول الله: «**من سنَّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فعمل بها بعده: كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص ذلك من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

وكثير من بلاد المسلمين في شرق آسيا وغرب أفريقيا وجنوبها دخلها الإسلام عن طريق التجار ولم يكونوا علماء وإنما بالتعامل الحسن.

الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية:

الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية كثيرة من أهمها:

الأول: الاستقامة: الاستقامة هي التزام شرع الله قولًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٣٢) كتاب «الشروط»/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٩) كتاب «العلم»/ باب من سن في الإسلام سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى وضلالة. رقم (١٠١٧).

ولأهمية استقامة الداعية على ما يدعو إليه قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾[هود:٨٨] فبيّن عليه السلام أن أفعاله موافقة لأقواله. وهذا من أكبر الدواعي لاتباعه «فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجرّدة»[١].

ونعى الله على قوم يأمرون بالمعروف وينسون أنفسهم فقال: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤].

ونهى عباده عن قولهم ما لا يفعلون، وبيّن أنه من أسباب المقت فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[الصف:٢-٣].

ومن خالف فعله قوله عوقب بثلاث عقوبات:

الأولى: في الدنيا، فلا تنفع موعظته، ولا يستجاب لقوله. قال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا»[٢]. وبنحوه أجاب عمر بن ذر لما سأله ابنه: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمع البكاء من هاهنا وهاهنا؟ قال: يا بني، ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى»[٣].

أما الثانية: في البرزخ، وذلك بقرض شفاههم بالمقاريض، قال ﷺ: «**لما أسري بي مررت برجال تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباءُ من أمتك، يأمرون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم، وهم يتلُون الكتاب أفلا يعقلون**»[٤].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٤).

(٢) «الزهد» لأحمد (٣٩٠).

(٣) «الزهد» لأحمد (٤٢٧).

(٤) أحمد (٣/ ٢٣١)، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٥٣) رقم (٤١٥٩).

والثالثة: في الآخرة، بيَّنها النبي ﷺ بقوله: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلقُ أقتابُه في النَّار فيدور كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[١].

الثاني: العلم:

ويكفي في أهمية العلم واشتراطه أنه لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى شيء لا يعلمه. ولهذا أمر الله نبيه أن يخبر المدعوين أنه على بصيرة وعلم كي يطيعوه ويتبعوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

أي: قل هذه طريقتي أدعو إلى الله فقط[٢]، على بصيرة أي: على يقين ومعرفة أميز بها بين الحق والباطل.

والبصيرة تكون بثلاثة أمور:

(أ) بصيرة بالشرع الذي تدعو الناس إليه.

(ب) بصيرة بحال المدعو: من حيث تعلمه، فربما يحتاج إلى مناقشة وجدال، فيستعد لذلك، ويستحضر الحجج والبراهين، أو غير متعلم فيكتفي بإبلاغه بالحق وبيانه له[٣].

ويدل له وصية النبي ﷺ لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن حيث قال له: «**إنّكَ تَقْدُمُ على قَوْم أهلِ الكتابِ فَليكُن أوّل مَا تَدْعُوهم إليهِ عِبادةُ الله...**»[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٣١) كتاب «بدأ الخلق»/ باب صفة النار وأنها مخلوقة. رقم (٣٢٦٧).

(٢) قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب «فيه التنبيه على الإخلاص لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه». كتاب «التوحيد مع القول السديد» (٣٨).

(٣) انظر: (٨٣-٨٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٢٢) كتاب «الزكاة»/ باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة. رقم (١٤٥٨).

ومن حيث معرفة الواقع الذي يعيش فيه وما فيه من انحراف كي يعالجه.

ومن الأمثلة على ذلك:

كانت بغداد في زمن الإمام أحمد بن حنبل تموج بثلاث بدع هي:

١- الإرجاء.

٢- الرأي.

٣- الأشربة.

فقاومها الإمام أحمد أشد المقاومة وأعاد الناس إلى الحق. **فألف ثلاثة كتب هي:**

(١) كتاب الإيمان. ليرد به على المرجئة.

(٢) كتاب المسند. وكان يفتي بفتاوى الصحابة والتابعين ليرد بذلك على أصحاب الرأي.

(٣) كتاب الأشربة. ليرد على من يستحل النبيذ.

(ج) بصيرة بكيفية الدعوة، من حيث ترتيب الأولويات، والتوازن في عرض الحق وبيانه.

وأما كيفية ترتيب أولويات الدين فبينها النبي ﷺ بقوله لمعاذ: «**فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحدُوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلّوا فأخبرهم أن اللهَ افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيّهم فتردُّ على فقيرهم**»[1]. وأما من حيث التوازن في عرض الحق وبيانه: فيرشدنا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقول: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس

(١) سبق تخريجه.

من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله»[(١)].

(أنا ومن اتبعني) أي أن النبي ﷺ وأتباعه هم الدعاة إلى الله على بصيرة. قال ابن القيم: «ومن اتبعني إنْ كان عطفًا على الضمير في أدعو إلى الله، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله»[(٢)].

الثالث: الرفق والحلم والتسامح:

من أعظم ما يجمع قلوب الناس على الداعية رفقه بهم وحلمه وتسامحه وصفحه عن زلاتهم وأخطائهم قال الله تعالى مخاطبًا نبيّه محمدًا ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾[آل عمران:١٥٩].

أي: برحمة من الله لك ولأصحابك أن منَّ الله عليك بأن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك ورفقت بهم وحسنت لهم خلقك وكثر احتمالك لهم وصبرك عليهم فلم تعجل بالغضب عليهم فيما كان منهم من خطأ فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك ولو كنت سيء الخلق قليل الاحتمال قاسي القلب لنفروا منك وأبغضوا دينك ثم وجهه الله إلى أمرين بهما يجتمع الناس على الداعية بعد الرفق وهما العفو والإحسان فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾.

وانظر إليه ﷺ حتى مع أعدائه. عندما فتح مكة عفى عن قريش الذين حاربوه أشد الحرب وعادوه أشد العداء وأخرجوه وآذوه وعذبوا أصحابه ومع ذلك عفا عنهم، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه مع من تكلم باتهام عائشة رضي الله عنها، كما في خبر عائشة في حديث

(١) «الزهد» لأبي داود (١١١).

(٢) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٥).

طويل وفيه: «فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ: وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره – والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٢٢] قال أبو بكر بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها أبدًا»[١].

أقسى الأشياء إيلامًا للنفوس وأشدها إحراقًا للأفئدة هو الكلام في العرض فعائشة ﷺ لم ترقأ لها دمعة منذ أن سمعت تلك التهمة الآثمة، وأمها أم رومان لما سمعتها خرت مغشيًا عليها[٢]، والرسول ﷺ عاش في غم وهم حتى نزلت براءة زوجه عائشة ﷺ، وأما أبو بكر فقد احترق فؤاده مما قيل في ابنته حتى حلف ألّا ينفق على من تكلم فيها مع قرابته له. ومع ذلك كله عفا عنه لما رغبه الله بالعفو عنه.

وهذا أحمد بن حنبل عفا عمن ظلمه فعفا عن المعتصم وقال ما خرجت من داره حتى جعلته في حل. وعفا عن الجلادين الذين جلدوه جلدًا يهد الفيلة فقال: «جعلت المعتصم ومن تولى ضربي ومن غاب ومن حضر في حل»[٣].

وتبعهم شيخ الإسلام ابن تيمية فعفا عمن ظلموه، ولم يكتف بالعفو، بل دافع عنهم، قال ابن مخلوف قاضي المالكية: «ما رأينا مثل ابن تيمية حرَّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٥٥) كتاب «التفسير»/ باب لولا إذا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. رقم (٤٧٥٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٨٢) كتاب «التفسير»/ باب لولا فضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. رقم (٤٧٥١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٤٤-٣٤٥) و«حلية الأولياء» (٩/ ٢٠٤).

علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[١].

وقال أيضًا: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكنات في السعي فيه ولما قدر علينا عفا عنا»[٢].

الرابع: الصبر وعدم الملل:

الدعوة إلى الله شاقة وعسيرة وأشق منها ألّا يجد من يجيب دعوته، بل يتهمه بسوء النية والتصرف، ولهذا كان الله يسلي نبيه ﷺ عندما آذاه قومه مبينًا له أن هذه سنة جارية فيمن سبقه ولكن النصر مع الصبر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[الأنعام:٣٤] وقال سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[فصلت:٤٣]. ما أعظم وأعجب صبر نوح عليه السلام فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو ينوع الطرق والأساليب[٣] لعلها تنفع ولم ييأس إلا بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. عند ذلك دعا عليهم.

والقدوة في الصبر هم أولوا العزم، ولذلك أمر الله نبيه بالاقتداء بهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥].

وصبر نبينا محمد ﷺ وعدم ملله نموذجٌ حيٌّ للدعاة إلى الله فهو من أول يوم يدعو إلى التوحيد ويحذر من الشرك واستمر حتى آخر عمره يحذر منه قائلًا وهو في سكرات الموت: «**لعنة الله على اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يُحذِّر ما صنعوا[٤].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٤).

(٢) «العقود الدرية» (٢٨٣).

(٣) انظر سورة نوح فقد ذكر الله الأساليب التي استعملها نوح في دعوته.

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٤) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٣ و٣٤٥٤)، ومسلم (١/ ٣٧٧) كتاب «المساجد»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور =

الخامس: التفاؤل والثقة بنصر الله:

كان النبي ﷺ عظيم الثقة بربه وبنصره للمؤمنين، وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم ولا أبلغ في ذلك من ثقتهم بنصر ربهم لهم يوم الأحزاب حين تحزبت ضدهم حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ومع ذلك كله لم تتزعزع ثقتهم بالله وبنصره قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢].

«قال ابن عباس وقتادة يعنون قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤] أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال وصدق الله ورسوله ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانًا بالله وتسليمًا أي انقيادًا لأوامره وطاعة لرسوله»(١).

السادس: الشجاعة في إظهار الحق والانتساب إليه:

الشخص المصاب بالهزيمة الداخلية لا يمكن أن يدعو الناس إلى ما عنده فإذا ما شعر أنه الأعز، وأنه الأعلى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]؛ لأنه يستمد العزة ويبتغيها ويطلبها ممن يملكها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨]، مقتديًا بنوح عليه السلام الذي لم يأبه بسخرية قومه المشركين الضالين، وإن كانوا علية القوم، بل قال لهم كما قال الله عنه: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا

= فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣١).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٩٤).

تَسۡخَرُونَ ﴾[هود: ٣٨]. فاستطاع أن يعطي الناس ما عنده ويدعوهم إليه، لشعوره أن معه الحق، وأن غيره ليس معهم إلا الباطل المحض.

داعياً إلى دين الله منتسباً إليه مفتخرًا به قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣].

(ومن أحسن قولًا) استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن كلامًا منه ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق هذه الكلمة ومع استسلامه لله الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ وبيان الدين للناس.

السابع: عدم استعجال النتائج:

من أعظم آفات الدعاة استعجال النتائج فمنهم من يريد أن يرى نتائج دعوته في حياته فإذا لم يرها استعجل وتنازل عن بعض دينه ظانًا أن هذا التنازل سيعجل له النصر، ولأجل ذلك خاف النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم من الاستعجال فحذرهم وصبّرهم على ما ينالهم من الأذى ثم بشرهم بعد ذلك بالنصر فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرَّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاءُ بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله والذِّئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون**»(١).

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣١٥) كتاب «الإكراه»/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر. رقم (٦٩٤٣).

الثامن: الثبات:

الثبات ضد الزوال. وهو الاستمرار على الشيء مع التمكن فيه دون تحول عنه.

والثبات على دين الإسلام أعظم المطالب؛ لأن به سعادة الدنيا والآخرة ولهذا امتن الله تعالى على عباده عمومًا بتثبيتهم عليه فقال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[إبراهيم:٢٧].

وخص بهذه المنة أكرم خلقه رسوله محمدًا ﷺ فقال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٧٤].

فإذا كان هذا رسول الله فكيف بغيره. ولقد استشعر النبي ﷺ شدة افتقاره إلى ربه وحاجته إلى تثبيته، فكان من دعائه: «**اللهمَّ إني أسألك الثبات في الأمر**»(١)، وكان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشّهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ**»(٢). قال النووي قوله ﷺ: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق**» معناه أي ثبتني عليه كقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(٣).

---

(١) أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٥/ ٤٧٦) كتاب «الدعوات». رقم (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤)، كتاب «السهو»/ نوع آخر من الدعاء، وابن حبان في «صحيحه» (٥/ ٣١٠) رقم (١٩٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٨٨)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وقال ابن رجب: «وله طرق متعددة عن شداد» حديث شداد بن أوس: «إذا كنز الناس الذهب والفضة» (١٥)، وقال الشوكاني: «رجال إسناده ثقات». «نيل الأوطار» (٢/ ٢٩٥).

(٢) مسلم (١/ ٥٣٤)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧٠).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٥٧).

ولأهمية الثبات وصّى النبي ﷺ المسلمين بالثبات على الدين عندما تنزل بهم فتنة المسيح الدجال فقال «**يا عباد الله فاثبتوا**»(١).

ولقد سطر لنا التاريخ ثبات العلماء على الدين وعدم تنازلهم بمداد من نور فصاروا تيجانًا للأمة تفخر بهم، ويقتدي بهم من جاء بعدهم ومن ذلك:

١- هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارًا بدينهم من أذى قريش ولكن قريشًا لحقتهم في مهاجرهم طامعة في صدهم عن دينهم. فطلبوا من النجاشي أن يسلمهم إليهم فأبى. فأراد عمرو بن العاص أن يوقع بينهم وبين النجاشي فقال إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا فادعهم فليخبروك بما يقولون في عيسى.

هنا جاء الاختبار الصعب الذي لم ينزل بهم مثله قط. فماذا اختاروا؟

أيتنازلون عن شيء من دينهم لإرضاء قوم هم في ملكهم وتحت سلطانهم؟ أم يثبتون على دينهم وليكن ما يكون.

فاختاروا الثبات على المبدأ. قال ابن إسحاق قالت أم سلمة «ولم ينزل بنا مثلها قط فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا محمد ﷺ «هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال وإن نخرتم والله»(٢).

٢- المثال الثاني: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رمز عالٍ للثبات على المبدأ وعدم التنازل عنه مهما كلفه ذلك من تضحيات.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥)، كتاب «الفتن»/ باب ذكر الدجال وصفته وما معه. رقم (٢٩٣٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٠).

ظهر ذلك جليًا عندما ادلهم الخطب وعصفت الفتنة الهوجاء بالمسلمين كي يقولوا بأن القرآن مخلوق، فإذا به يمتنع عن قول الكفر فيأتوه بأسلوب الترهيب فيتوعدونه بالقتل ويحمل على الراحلة مقيدًا حتى كاد أن يسقط منها مرارًا. ويسجن ثمانية وعشرين شهرًا ولكنه لم يبال بالحبس وكان يقول لست أبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد. وجلد وضرب أكثر من ألف سوط من خلفه وقدّامه وأصاب الضرب وجهه وبقي وجع الضرب ثلاث سنين قال شاباص الثابت: «لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا لو ضربتها فيلًا لهدته»(١).

وكان المعتصم إذا عجز عنه أن يجيبه بالضرب والقوة جاءه بأسلوب الترغيب فيقول له «يا أحمد والله إني عليك لشفيق كشفقتي على هارون ابني فأجبني، والله لوددت أني لم أكن عرفتك يا أحمد، الله الله في دمك فلما كان في آخر ذلك قال لعنك الله لقد طمعت أن تجيبني» فلما لم يجبه الإمام أحمد إلى ما طلب قال: خذوه واسحبوه وأمرهم بجلده بكل قسوة وهمجية حتى كان يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربه سوطين ثم يتنحى ويقول للجلاد شد عليه قطع الله يدك، فلما خشي أن يموت من الضرب أسلمه إلى أهله.

قال الذهبي: «ترك أحمد عند الإياس منه»(٢).

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الإمام صار مثلًا سائرًا يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، حتى صار اسم الإمام مقرونًا باسمه في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد. لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:٢٤] فإنه أعطي من الصبر واليقين ما

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٩/ ١٩٧-٢٠٤)، «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (٣٠٨-٣٩٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧-٣٠٠)، و«محنة الإمام أحمد بن حنبل» للمقدسي.

يستحق به الإمامة في الدين. وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلطون من شرق الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلمين، والقضاة، والوزراء والسعاة والأمراء، والولاة من لا يحصيهم إلا الله. فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره، وبالترغيب في الرئاسة والمال ما شاء الله. وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون والأبرار، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره. ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه وإخوانه المتقدمين والمتأخرين. ولهذا قال بعض شيوخ الشام: لم يظهر أحد ما جاء به الرسول ﷺ كما أظهره أحمد بن حنبل»(١).

أما المثال الثالث:

فهو ذلك الجبل الأشم شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية رحمه الله الذي فتح عينيه على المجتمعات الإسلامية وقد عجّت بالانحرافات من كل جانب ما بين متفلسفة ومتكلمة، وصوفية مشركة وباطنية زائغة فصدع بالحق جاهرًا به. ولكن أهل البدع من العلماء والقضاة لم يرضوا بقوله فحاولوا إسكاته، فعقدوا له المناظرات فغلبهم بالحجة والبيان. فكتبوا له ألفاظًا اقترحوها عليه وهددوه بالقتل إن لم يكتبها فلم يجبهم وحاولوا إلزامه بالرجوع عن بعض العقيدة فلم يوافقهم.

فنادوا في البلد على بطلان عقيدته وأشاعوا أنه رجع عنها وزَوَّرُوا عليه عقيدة محرفة ونودي عليه ألّا يستفتى، وسجن مرات عديدة كان مجموعها سبع سنين ومع ذلك كله كان «ثابت الجأش قوي القلب واثقًا بالنصر الإلهي لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعول عليه».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٣٩).

عند ذلك قرروا نقله إلى الإسكندرية لعل أحدًا أن يقتله فلما أرادوا الذهاب به جاءه إنسان فقال له هذا مقام الصبر فقال بل هذا مقام الحمد والشكر. والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ولو أن معي في هذا الموضع ذهب وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها.

وبعد عام من سجنه تكلم الفقهاء والقضاة بإخراج الشيخ، ولكن ليشترطوا عليه أن يرجع عن بعض العقيدة فأرسلوا إليه من يحضره من السجن ليكلموه فأبى أن يحضر وتكرر الرسول ست مرات وصمم على عدم الحضور. وكان وهو مسجون يكتب الرسائل والردود ومات وهو محبوس في سجن القلعة بسبب فتواه حول شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ولم يتنازل عن شيء من دينه يراه حقًا[1].

(١) انظر «العقود الدرية»، و«ناحية من حياة شيخ الإسلام» بقلم خادمه إبراهيم العياشي.

(الرابعة): الصبر على الأذى فيه.

....

الصبر لغة: المنع والحبس.

اصطلاحًا: هو حبس النفس على الطاعة وعن المعصية والجزع.

فأما حبس النفس على الطاعة فهو بحملها ومجاهدتها على فعل الطاعة فلا يتركها وأما عن المعصية فهو بكفها ومجاهدتها ومنعها عن ارتكاب المعصية، فلا يفعلها.

وأما عن الجزع، فهو بكفها عن التسخط والشكوى لغير الله، ولطم الخدود، وشق الجيوب فيكون منعها من الجزع باللسان والأركان.

«فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور وترك السيء المحظور ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال والصبر على ما يصيبه من المكاره والصبر على البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر»(١).

حكم الصبر: «الصبر واجب باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه»(٢).

حقيقة الصبر: «النفس فيها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره»(٣).

مقابل الصبر: يضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٦١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩).

(٣) «عدة الصابرين» (١٦).

النعمة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج:١٩-٢١](١) قال البخاري: هلوعًا: ضجورًا(٢). وقال أبو عبيدة: الهُلاع مصدره وهو أسوأ الجزع(٣).

والسبب في ذلك كله قلة صبره أو انعدامه. **ومن لم يصبر فلابد أن يشتكي والشكوى نوعان:**

١- شكوى المبتلى لغير الله: فهذه تضاد الصبر وتبطله وهي من الجزع؛ لأنه يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، يشكو الخالق إلى المخلوق.

٢- شكوى المبتلى إلى الله: فهذه لا تنافي الصبر كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام إنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]، وعن أيوب: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]؛ لأنها افتقار إلى الله وعبودية له.

الباعث على الصبر:

يجب على المسلم أن يصبر، ويعلم أنه لا ينتفع بالصبر إلا إذا كان الباعث عليه ابتغاء وجه الله. قال تعالى بعد أن ذكر صفات عباده المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآية [الرعد:٢٢].

أي «والذين صبروا على المأمورات بامتثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد عنها وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها، لكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ابتغاء وجه

(١) «عدة الصابرين» (٢٧٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥١١)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١].

(٣) «مجاز القرآن» (٢/ ٢٧٠).

ربهم، لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة فإن هذا هو الصبر النافع الذي هو من خصائص أهل الإيمان»(١).

أنواع الصبر:

أنواع الصبر ثلاثة هي:

الأول: الصبر على طاعة الله:

الصبر على الطاعة يكون بالإخلاص فيها ووقوعها على مقتضى العلم وهو متابعة الكتاب والسنة والمداومة والاستمرار عليها إلى أن يلقى الله، فالعبد محتاج إلى الصبر على الطاعة قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان:٢٤-٢٦] وكل هذه لا تتأتى إلا بالصبر، ولهذا لما امتن الله على نبيه ﷺ بإنزال القرآن أمره بالصبر.

وقال تعالى عن الأمر بالصلاة المفروضة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢] فالصلاة وبخاصة صلاة الفجر تميل النفس وقتها إلى النوم والراحة فيحتاج العبد إلى صبر للقيام إليها وأدائها.

وكذلك إخراج الزكاة لابد فيه من صبر لقوة شهوة المال وتغلغل محبته في النفوس وكذلك الجهاد فإن فيه قطع الرقاب ونفاد الأموال ولذلك يجب على العبد أن يصبر على الطاعة في أحوالها الثلاث:

١- **قبل العمل**: أي قبل الابتداء به بتصحيح النية والإخلاص والبعد عن دواعي الرياء والسمعة وعقد العزم على أداء العمل كما يرضي الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[هود:١١] فقرن بين الصبر والعمل

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧١) بشيء من الاختصار.

الصالح وقدم الصبر عليه في اللفظ لأنه لا عمل صالح إلا بالصبر ولا عمل صالح إلا بنية صالحة. قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنيَّاتِ**»[١].

وقد بدأ البخاري «صحيحه» بهذا الحديث ليبين أهمية تصحيح النية قبل العمل.

٢- حال العمل: فيلازم استصحاب النية الصالحة المخلصة لله حال عمله، والصبر عن دواعي التقصير القلبية والبدنية. لئلا تغير نيته فتنقلب إلى غير الله فيحبط عمله، أو يؤدي العمل على غير السنة فيحبط العمل أو ينقص الأجر قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥]، فمخلصين حال؛ أي: ما أمروا إلا ليعبدوا الله حال كونهم مخلصين له عملهم.

فمن أشرك مع الله تركه الله وشركه، قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢].

فلا بد من الإخلاص مع الاستمرار في العمل والاجتهاد فيه.

٣- بعد الفراغ من العمل:

وذلك بأمرين:

أ- أن يصبر عن الإتيان بما يبطل العمل:

والإتيان بما يبطل العمل ويحبطه باب خطير ينبغي التنبه له لأن: «محبطات الأعمال أكثر من أن تحصر وليس الشأن في العمل إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه»[٣].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[محمد:٣٣]، قال قتادة:

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٩) كتاب «بدء الوحي»/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم (١).

(٢) مسلم (٤/ ٢٢٨٩) كتاب «الزهد والرقائق»/ باب من أشرك في عمله غير الله. رقم (٢٩٨٥).

(٣) «الوابل الصيب» (٢٩) وقد أطال في بيان ذلك فراجعه إن شئت.

«من استطاع منكم أن لا يبطل عملًا صالحًا عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله فإن الخير ينسخ الشر وإن الشر ينسخ الخير وإن ملاك الأعمال خواتيمها»[(١)].

ومن ذلك: إبطال الصدقة بالمن والأذى قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[البقرة:٢٦٤].

ومن ذلك: حبوط العمل برفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:٢] وبرفع الصوت فوق سنته بعد مماته. وذلك بردها وعدم قبولها.

ومن ذلك: العُجْبُ بالعمل والتكبر والتعاظم بسببه، فإن هذا أضرُّ على العبد من كثير من المعاصي الظاهرة كما وقع للرجلين المتآخيين من بني إسرائيل حيث كان أحدهما عابداً والآخر عاصياً فرآه على ذنب استعظمه فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة فقال الله ﷻ: «**من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**»[(٢)]، وفي رواية أبي هريرة في آخرها: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[(٣)].

قال السعدي معلقًا على هذا الحديث: «والإقسام على الله في الغالب من باب العُجْبِ بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه ولا يتم الإيمان حتى يَسْلَمَ من ذلك كله»[(٤)].

ومن ذلك: تنقص الآخرين واتهامهم: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم»[(٥)]،

---

(١) «جامع البيان» (٢٦/ ٦٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٢٣)، كتاب «البر والصلة»/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله. رقم (٢٦٢١).

(٣) أبو داود (٥/ ٢٠٧)، كتاب «الأدب»/ باب النهي عن البغي. رقم (٤٩٠١).

(٤) «القول السديد» (١٥٣).

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٢٤) كتاب «البر والصلة»/ باب النهي عن قول هلك الناس. رقم (٢٦٢٣).

فمن تنقص الناس هلك، وذلك لأنه يتهم الناس ويزكي نفسه وهذا يقوده إلى العجب بعمله فيحبط عمله والعياذ بالله فيكون أهلكهم، فلا أبلغ من هذا التحذير.

وكان السلف يحاسبون أنفسهم وينأون بها عن العجب.

قال مطرف بن عبدالله: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا»(١).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية إذا أثني عليه يقول: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا».

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدّي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي(٢)

واسمع إلى ابن القيم كيف يهضم نفسه، فيقول:

بُنَيُّ أبي بكر كثيرٌ ذُنوبُه ... فليس على مَنْ نال من عرضه إِثْمُ
بُنَيُّ أبي بكر جهولٌ بنفسه ... جهولٌ بأَمْرِ الله أَنَّى له العِلْمُ
بُنَيُّ أبي بكر غدا متمنيًا ... وصالَ المعالي والذنوبُ له هَمُّ(٣)

ب- أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية:

لا شك ولا ريب أن كون العمل سرًا أدعى للقبول وأبعد عن العجب والتعاظم، وأقرب إلى الإخلاص وأعظم للأجر فهاهم السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم اثنان أخفيا أعمالهما وهما: «رجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه... ورجل

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٦٢).

(٣) «الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧١).

تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»[١]، ولذلك يخطئ بعض الناس عندما يعمل الصالحات بينه وبين ربه ثم يصبح يتحدث للناس بها.

قال سفيان الثوري: «بلغني أن العبد يعمل العمل سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يحب أن يحمد عليه، فينسخ من العلانية فَيُثْبَتُ في الرياء»[٢].

«فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل»[٣].

ومن الصبر على الطاعة «**الصبر على مشاق الدعوة**».

من أشق الواجبات واجب الدعوة إلى الله لكثرة من يحارب الداعية من الملأ ومعهم الدنيا بإعلامها وتعليمها وأسلحتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قلة النصير والمعين. بل ووجود المثبطين وهم كثر، فلهذا يحتاج الداعية إلى الصبر. كيف والله أمر نبيه بالصبر وبين له القدوة في ذلك فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]، فكان ﷺ قدوة الصابرين بجميع أنواع الصبر.

وقرن الله التواصي بالحق بالتواصي بالصبر كما في سورة العصر لأنه لا قيام للحق إلا بالصبر.

وهذا السر فيما ذكره الله عن لقمان حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من الأذى بعد وصيته له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[لقمان:١٧].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ١١٢) كتاب «الحدود»/ باب فضل من ترك الفواحش. رقم (٦٨٠٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٠-٣١).

(٣) «عدة الصابرين» (٦٧).

ويوضحه قصة الراهب الذي صبر حتى قتل. وكذلك الغلام وصبره حتى قتل، بل إخباره الملك بكيفية قتله لعلمه أن ذلك سبب لإيمان الناس[١].

ومن مظاهر مشاق الدعوة ما يلي:

١ - الإعراض من المدعوِّين:

الإعراض من المدعوين من أعظم ما يشق على نفس الداعية حيث يقابلون نصيحته لهم وشفقته عليهم بالإعراض عنه مع أنه لا يريد منهم جزاءًا ولا شكورًا. قال تعالى واصفًا قوم نبينا محمد ﷺ في إعراضهم عنه حينما دعاهم لدين الله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[فصلت:٤-٥]، فأعرضوا عنه مستكبرين عن سماع ما يدعوهم إليه، ثم اعْتَلُّوا بأن القلوب مغلفة عليها الأغطية لا تفقه ما يقول، وآذانهم فيها صمم، فلا يسمعونه وهو يحدثهم من كراهتهم لما يقول.

وها هو نوح عليه السلام يشكو حاله مع قومه وإعراضهم عنه إلى ربه فيقول كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[نوح:٥-٧].

فهل بعد هذا الإعراض إعراض فلا يريدون أن يسمعوا له قولًا فيضعون أصابعهم في آذانهم. ولا أن يروا له وجهًا فيغطون وجوههم بثيابهم.

٢ - الأذى بالقول والفعل:

من أشق ما يصيب الداعية المخلص المحب للخير الذي يمحض النصح للناس أن

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٩٩-٢٣٠١)، كتاب «الزهد»/ قصة أصحاب الأخدود. رقم (٣٠٠٥).

يتهم بما ليس فيه مع أنه يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومن ذلك اتهام الملأ للرسل عليهم السلام بالجنون والسحر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[الذاريات:٥٢].

وقد لا تقف الأذية عند اللسان فقط فربما امتدت إلى الأموال فنهبتها وإلى الأبدان فعذبتها وإلى الحريات فسلبتها وإلى الأنفس فقتلتها قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[آل عمران:١٨٦].

ونماذج الأذية الواقعة على عباد الله الصالحين كثيرة، كما وقع لصهيب وبلال وعمار وخبيب، ومن بعدهم من أهل العلم والصلاح كسعيد بن المسيب فقد ضربه عبدالملك بن مروان مائة سوط وصب عليه جرة ماء في يوم شات وألبسه جبة الصوف. ومالك بن أنس ضربه المنصور سبعين سوطًا في يمين المكره وعبدالرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج أربعمائة سوط ثم قتله وأحمد بن حنبل سجن ثمانية وعشرين شهرًا وجلد حتى انفتقت خاصرته واندلقت أمعاؤه[1] وغيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلاج ذلك كله هو الصبر حيث أرشد الله المؤمنين إليه بقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران: ١٢٠]، بل أرشد إليه نبيه ﷺ على وجه الخصوص بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[المزمل:١٠].

وبه عالج الرسل عليهم السلام أذية أقوامهم، قال تعالى ذاكرًا قولهم لأقوامهم ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم:١٢]؟

---

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٤٢-٣٤٣)، و«المحن» لأبي العرب التيمي.

٣- استبطاء النصر وعدم الصبر على طول الطريق:

جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لأوليائه المخلصين قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[المجادلة:٢١].

وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[غافر:٥١].

ولكن النصر والرفعة والتمكين لا يكون إلا بعد النصب والتعب والمشقة والعناء والمحن المتعاقبة والزلازل الشديدة والبأساء المفزعة كما وقع للصحابة رضي الله عنهم عام الأحزاب.

قال تعالى مبينًا هذه الحقيقة: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[البقرة:٢١٤].

أي أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بمثل ما ابتلوا به من الشدة والفظاعة فمستهم البأساء والضراء أي الفقر والأمراض في أبدانهم وأزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة التي تكاد تهد الأرض وتدك الجبال حتى انتهى أمرهم من الشدة إلى أن قال (الرسول ﷺ) وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم الأثبت بعده العازمون على الصبر الموقنون بوعد الله ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ استبطاءً له واستطالة لمدة الشدة والعناء.

وعالج النبي ﷺ بالصبر الشدة واستبطاء النصر عندما شكا إليه أصحابه قائلين: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فأجابهم قائلًا: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرَّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدُّهُ ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذِّئب على غنمه، ولكنَّكم**

تستعجلون»(١)، فبين لهم خطأ الاستعجال وأنه لا بد للمسلم من الصبر الذي يعصمه منه.

الثاني: الصبر عن معصية الله:

ركبت في بني آدم الشهوة وزينت له بكل أصنافها قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران:١٤].

فمحبة الدنيا والنساء والذرية قد تطغى على الإنسان فيرتكب المحرم لأجلها، وقد يعبد الدرهم والدينار لسبب فرط محبته له، فيحب له، ويبغض من أجله، ويحرص على جمعه بأي طريق، سواء كان مباحًا أو محرمًا ثم يمنع حق الله فيه.

وقد تدفعه محبة ذريته إلى أن يترك ما أوجب الله عليه من أجلهم أو يعصي الله لأجل إرضائهم وقد تطغى الشهوة الجنسية للإنسان فيرتكب المعصية ويزني فيرتفع الإيمان فوقه كالظلة.

وعلاج ذلك كله بالصبر عن هذه المعصية أو تلك، فينجو بنفسه ولذلك كان حكمه الوجوب قال شيخ الإسلام: «وأما الصبر عن المحرمات فواجب وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النور:٣٣] والاستعفاف: هو ترك المنهي عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبره الله، وما أعطى أحدٌ عطاءً خيرًا، وأوسع من الصبر**»(٢)(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٣٥)، كتاب «الزكاة»/ باب الاستعفاف عن المسألة. رقم (١٤٦٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧٤).

ومن أمثلة الصبر عن المعصية: صبر يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز فصبر عن المعصية مع قوة الدواعي لها: «فإنه كان شابًا -عزبًا- غريبًا- مملوكًا والمملوك ليس وازعه كوازع الحر -والمرأة جميلة- ذات منصب وهي سيدته - وقد غاب الرقيب -وهي الداعية له الحريصة على ذلك- التهديد بالسجن، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله»(١).

وكما صبر الربيع بن خُثيم وقد لقيته المرأة في مكان لا يراهما أحد. وذلك أن الربيع كان يمر على شباب لاهين فينصحهم ويذكرهم فأتوا إلى غانية وقالوا لها نريد قُبلة من الربيع وأغروها بالمال فقالت لهم بل أكثر من ذلك فوقفت في طريقه وكان خاليًا لا يراهما أحد من البشر فلما أقبل كشفت عن جسمها تريد أن تفتنه، فصرخ بها وقال: كيف بك يا أمة الله إذا نزل بك ملك الموت وبدأ يذكرها بالمستقبل حتى تابت فقالوا: أردناها أن تفسد الربيع فأفسدها الربيع علينا(٢).

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة:

الدنيا دار النكد والكبد والأسقام قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[البلد:٤] وكل حي في الدنيا لابد أن يصيبه ما يصيبه من ألم أو مرض أو ضيق صدر أو تشريد أو فقد حبيب أو خسران مال أو متاعب عيش أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦) بشيء من الاختصار.

(٢) انظر: «صفة الصفوة» (٣/ ١٩١).

«أي لنختبركم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة وتتعذر المطالب عليكم فتنقص لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار فينقص لها عددكم، وموت ذراريكم وأولادكم، وجدوب تحدث فتنقص لها ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم واختبار مني لكم فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه»(١).

ثم أمر الله ببشارة الصابرين على الامتحان المحافظين على الطاعة مع البلوى بأنهم هم الفائزون بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦]، فصبروا واعترفوا بأنهم مملوكون لله تحت تدبيره وتصرفه وأنهم راجعون إليه سبحانه وأنه لا يضيع لديه مثقال ذرّة فجمع الله لهم أشياء لم يجمعها لغيرهم:

١- ثناء الله عليهم «الصلوات».

٢- الأمنة من العذاب «الرحمة».

٣- الاهتداء.

فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٧] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نعم العدلان ونعمَ العلاوة»(٢).

«فالعدلان هما الصلاة والرحمة والعلاوة هي الاهتداء»(٣).

«فبالهدى خلصوا من الضلال وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٢٠) تحقيق محمود شاكر.

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٧١) كتاب «الجنائز»/ باب الصبر عند الصدمة الأولى.

(٣) «فتح الباري» (٣/ ١٧٢).

نالوا منزلة القرب والكرامة»(١).

فعلى المسلم الصبر على أقدار الله، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ «هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي بها وعرف أنها من الله»(٢).

أيهما أفضل الصبر بالله أو الصبر لله؟

الصبر لله أفضل من الصبر بالله وأعلى درجة لأمور:

١- الصبر لله متعلق بالألوهية. أما الصبر بالله فهو متعلق بالربوبية.

وما تعلق بالألوهية فهو أعلى وأكمل.

٢- الصبر لله عبادة والعبادة غاية. أما الصبر بالله فهو استعانة والاستعانة وسيلة.

والغاية مرادة لنفسها أما الوسيلة فهي مرادة لغيرها.

٣- الصبر لله للأنبياء والرسل والصالحين. أما الصبر بالله فهو مشترك بين المؤمن والكافر.

٤- الصبر لله صبر فيما هو حق له محبوب له مرضي له. أما الصبر بالله فيكون فيما هو محبوب لله أو مباح أو مكروه أو محرم(٣).

ترتيب أنواع الصبر حسب الأفضلية:

الأول: الصبر على الطاعة:

«الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٧٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٢) كتاب «التفسير»/ تفسير سورة التغابن.

(٣) انظر: «عدة الصابرين» (٨٠-٨٥).

أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[١].

الثاني: الصبر عن المعصية:

الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على المصيبة.

قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز واختيار السجن على معصية الله، أعظم من إيمانه ودرجته عند الله وأجره من صبره على ظلم إخوته له. ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك. ولهذا قال تعالى فيه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤]»[٢].

الثالث: الصبر على أقدار الله «على المصائب»:

فهذا لصاحبه أجر عظيم[٣] والأدلة في بيان أجره كثيرة جدًا لكن الصبر عن المعصية أو على الطاعة أفضل منه وأكمل.

ووجه الترتيب أن الصبر على الطاعة يتضمن إلزامًا وفعلًا فتلزم نفسك الصلاة فتصلي... ففيه إلزام وفعل، أما الصبر عن المعصية ففيه إلزام فقط أي إلزام للنفس بالترك.

أما الصبر على أقدار الله فلأن سببه ليس باختيار العبد فليس فعلًا ولا تركًا وإنما هو من قدر الله المحض[٤].

وللناس حيال المصائب أحوال أربعة، هي:

١- **الجزع**: وهو محرم باتفاق العلماء للأحاديث الناهية عنه، كقوله ﷺ: «**ليس منا من**

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣-٢٤) وانظر: (١٠/ ٥٧٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٦٤).

(٤) «القول المفيد شرح كتاب التوحيد» (٢/ ٢١٣) بشيء من الاختصار.

لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[(١)].

٢- **الصبر**: وهو واجب بالاتفاق.

٣- **الرضا**: والراجح فيه الاستحباب، وهو أعلى من الصبر.

٤- **الشكر**: وهو مستحب وليس بواجب، وهو أعلاها.

قال شيخ الإسلام ﷺ: «فالصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها حيث جعلها لتكفير خطاياه، ورفع درجاته وإنابته، وتضرعه إليه»[(٢)].

وقد جمع الله أنواع الصبر الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

وينقسم الصبر بحسب أحواله إلى قسمين:

١- **الصبر الجميل**: «صبر بغير شكوى إلى المخلوق». ولهذا لما قيل لأحمد بن حنبل وهو في مرضه إنَّ طاووسًا يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى ما أنّ أحمد حتى مات، وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف:١٨] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]»[(٣)].

صبر جميل فلا شكوى إلى أحد   إلا الإله فذو الإحسان مسدينا

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦٣)، كتاب الجنائز/ باب ليس منا من شق الجيوب. رقم (١٢٩٤)، ومسلم (١/ ٩٩) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب. رقم (١٠٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٦٠)، وانظر أيضًا: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠) فقد بسط فيه القول أكثر، فراجعه إن شئت.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٣-١٨٤).

ولأهمية الصبر الجميل وعظم منزلته أمر الله نبيه به فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾[المعارج:٥] «أي اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرًا جميلًا لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله»[(١)].

٢- الصبر المحمود: «الصبر المحمود ما كان في موضعه».

إذا كان الصبر عند الصدمة الأولى صار محمودًا يثاب عليه المسلم أما إذا تأخر عن موضعه فلا ثواب فيه فعن أنس بن مالك قال مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال لها: «**اتَّقِي الله واصْبِرِي**» قالت إليك عنّي فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال: «**إنَّما الصَّبر عند الصَّدمة الأولى**»[(٢)].

«قال لها ذلك منبهًا على أنها قد فاتها مَحَلُّ الصبر والأجر»[(٣)].

«والمعنى أنّ الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو»[(٤)].

أهمية الصبر:

لا يمكن أن يقوم عمل ديني أو دنيوي إلا بالصبر. فالصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله إلا من ضعف صبره، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص. ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٢٨٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٤٨) كتاب «الجنائز»/ باب زيارة القبور. رقم (١٢٨٣).

(٣) «المفهم شرح مسلم» (٢/ ٥٧٩).

(٤) «فتح الباري» (٣/ ١٥٠).

كامل، ولهذا كان في دعاء النبي ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرُّشْد**»(١)، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر.

إذ لا إيمان بدون صبر كما يقرر هذه الحقيقة علي بن أبي طالب فيقول: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»(٢) وفي لفظ: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بان الجسد ثم رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له»(٣).

ولأجل ذلك ورد الصبر في أكثر من تسعين موضعًا من القرآن الكريم(٤) منها عشرون موضعًا للنبي ﷺ. ففي أوائل ما أنزل الله على رسوله أمره بالصبر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[المدثر:١-٧].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار وختمها بالصبر ليبين تعالى أنه لا دعوة بدون صبر.

وحينما امتن الله عز وجل على رسوله ﷺ بإنزال القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾[الإنسان:٢٣] «كان من المنتظر أن يقال: فاشكر نعمة ربك ولكنه عز وجل قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يناله ما يناله مما يحتاج إلى صبر»(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الإيمان» لابن أبي شيبة (٤٤) رقم (١٣٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠).

(٤) قال الإمام أحمد «ختمت القرآن في يوم فعددت موضع الصبر فإذا هو نيف وتسعون»، «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٨٧)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩).

(٥) «شرح الأصول الثلاثة» للعثيمين (١٨).

ومما يدل على أهميته أنه نصف الدين قال عبدالله بن مسعود ﵁: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله»[(١)]. وبمثله قال الشعبي[(٢)].

وقال ابن القيم: «الإيمان نصفان، نصفٌ صبر ونصفٌ شكر»[(٣)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم:٥].

بل هو أوسع عطاء يعطاه ابن آدم قال ﷺ مبينًا سعة عطاء الصبر حين طلب منه بعض الصحابة مالًا فأعطاهم ثلاث مرات ثم بين لهم أهمية الاستعفاف. وأن خير العطاء وأوسعه هو الصبر لأنه يثمر رضى النفس وطمأنينتها فيقنع بما آتاه الله. كما في حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، قال: «**ما يكون عندي من خيرٍ فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يعفه اللهُ، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره اللهُ، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصَّبر**»[(٤)].

ولما عاش عمر ﵁ هذه الحقيقة عمليًا استوعبها ثم قال: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[(٥)].

ولأهميته نوّع الله أساليب ذكره في القرآن أنواعًا كثيرة، منها:

١- الأمر به: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[النحل:١٢٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[آل عمران:٢٠٠].

---

(١) «الزهد» لوكيع (٢/ ٤٥٦) رقم (٢٠٣) و«السنة» لعبدالله بن أحمد (١/ ٣٧٤) رقم (٨١٧).

(٢) «جامع البيان» (٢١/ ٨٤).

(٣) «عدة الصابرين» (١١٠) وبيّن/ هذا التنصيف من عشرة أوجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٠٣) كتاب «الرقاق»/ باب الصبر عن محارم الله.

٢- النهي عن ضده: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾[الأنفال:١٥] فإن تولية الأدبار سببها فقدان الصبر. ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[محمد:٣٣] فإن إبطالها دليل على عدم الصبر على إتمامها، أو المحافظة عليها.

٣- الثناء على أهله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

٤- إخباره أن الصبر خير لأصحابه: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[النساء:٢٥].

٥- إيجاب الجزاء لهم بأحسن الأعمال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[النحل:٩٦].

٦- ضمان النصر والمدد لهم: لقوله ﷺ: «**أنَّ النصر مع الصَّبر**»(١).

٧- أن أهل الصبر هم أهل العزم قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[الشورى:٤٣].

٨- الإخبار بأنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:٨٠]، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[فصلت:٣٥](٢).

أسباب الصبر عن المعصية:

١- علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها.

٢- الحياء من الله سبحانه.

---

(١) أحمد (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٣-١٥٤) فراجعه إن شئت فقد ذكر ستة عشر نوعًا.

٣- مراعاة نعم الله علينا وإحسانه إلينا، وأنَّ الذنوب تزيل النعم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

٤- خوف الله وخشية عقابه.

٥- محبة الله وإجلاله وإكرامه: قال عمر: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»[١].

٦- شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحط من قدرها.

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها.

٨- قصر الأمل وعلم العبد بسرعة انتقاله من الدنيا، وأنه ربما مات وهو على المعصية، فلقي الله وهو على تلك الحال.

أما الصبر على الطاعة فينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة.

أسباب الصبر على البلاء:

الصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة، منها:

١- شهود جزائها وثوابها.

٢- شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

---

(١) «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٣٩٤)، ونسبه إلى عمر رضي الله عنه ابن تيمية، فقال: «كما قال عمر رضي الله عنه: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه». «درء التعارض» (٦/ ٦٨)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤) و(١٥/ ٢٤٠)، وفي الكلام محذوف تقديره: «فكيف وقد خافه»، ولهذا قال ابن تيمية في شرحه لهذا الحديث: «أي هو لم يعصه، ولو لم يخفه، فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته». «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤).

٣- شهود القدر السابق الجاري بها.

٤- شهوده حجة الله عليه في تلك البلوى وواجب الصبر فيه.

٥- ترتبها على ذنبه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[الشورى:٣٠].

٦- أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجرعه.

من ثمرات الصبر:

١- الجنة: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[الإنسان:١٢].

٢- محبة الله لهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٦].

٣- البشرى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥].

٤- الأجر بدون حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

٥- المعية الخاصة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣].

٦- أن الله جمع لهم ثلاثة أمور لم تجمع لغيرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

٧- بطلان كيد الأعداء: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١٢٠].

٨- سلام الملائكة عليهم: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد:٢٣-٢٤].

٩- التوفيق لخصال الخير: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:٨٠].

١٠- الانتفاع بالذكرى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم:٥].

١١- الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

قوله: الأذى فيه: أي كل ما يؤذيك من قول وفعل بسبب عبادتك ودعوتك إلى دين الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾[آل عمران:١٨٦]، ثم ذكر علاجها وبأي شيء تقابلها، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:١٢٠].

ونبه الشيخ على الصبر على الأذى فيه لأمور:

١- أن كثيرًا من الناس لا يصبر فيتنازل من أول الطريق وقليل من يثبت وخاصة في زمن الغربة.

٢- أن من لم يصبر على الأذى في طاعة الله بل اختار المعصية كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فرَّ منه بكثير: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾[التوبة:٤٩][1].

٣- أن الصبر على الأذى في الطاعة والدعوة من جنس الجهاد في سبيل الله. قال شيخ الإسلام: «فصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله إذ كان الجهاد مقصودًا به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال»[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٣٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٥-٢٦).

فبهذه المسائل الأربع يكملُ الإنسان نفسه ويكمل الآخرين فيترقى في مدارج الكمال بل قد «انحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقًّا.

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للسالكين عيانا»[١].

(١) «الرسالة التبوكية» (٥٥)، وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر:١- ٣].

....

سر الاستدلال بسورة العصر مع أن هناك أدلة كثيرة غيرها:

١- أن الله ربط هذه الأمور المأمور بها في الدهر الذي هو زمن الأرباح والخسائر وهذا تنبيه على المحافظة عليه فإنه وقت الزرع.

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع

٢- أن الله ربط هذه الأمور بالخسران الذي هو نتيجة تضييع أمر الله والتفريط فيه فمن تعلم وعمل وعلّم وصبر فقد فاز، ومن فرط فقد خسر.

قال ابن القيم: «فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم وجعلها قسمين خيرًا وشرًا تأبى أن يسوي بينهم وأن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين. بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به»[١].

٣- أن في هذه السورة بياناً لوحدة المنهج فيجب أخذ الدين كله، فلا يجوز أن يؤخذ بعضه ويترك البعض الآخر.

٤- أن هذه السورة جمعت المسائل الأربع في موضع واحد وهذا أدعى لأخذها جميعًا. إذ لو كانت الأدلة متفرقة لربما تفطن المتعلم لبعضها، ونسي الآخر.

---

(١) «التبيان» (٨٣).

٥- أن الصحابة وهم أفقه الأمة إذا اجتمعوا لم يتفرقوا حتى يقرؤوها.

فعن أبي مدينة الدارمي -وكانت له صحبة- قال «كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا، ثم أرادا أن يفترقا، قرأ أحدهما: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ حتى يختمها، ثم يسلم كل واحد منهما على صاحبه»(١) وذلك ليذكروا أنفسهم بها لأنها منهج متكامل.

والعصر: الواو واو القسم ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، كما في آي كثيرة من كتابه، كقسمه بالنجم والفجر وغيرها، والحكمة في ذلك كما نقل مطرف عن عبد الله قال: «إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين، ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلالتها على خالقها»(٢).

وقال ابن تيمية: «لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه، وذكر آياته»(٣).

وقال رحمه الله: «فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ لأنها آياته ومخلوقاته، فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته فهو سبحانه يقسم بها؛ لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه»(٤).

أما الخلق فليس لهم أن يقسموا إلا به سبحانه لقوله ﷺ: «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(٥)، وفي رواية: «**من كان حالفًا، فلا يحلف إلا بالله**»، وقوله ﷺ: «**لا**

---

(١) «الزهد» لأبي داود (٣٤١) رقم (٤١٧)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٥/ ٢١٥) رقم (٢١٤٥)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة، وهو ثقة. «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٠٧) رقم (١٨١٩٨).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٥٣٥)، وبمثله قال قطرب والفراء. «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٢٢٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤٥).

(٤) المرجع السابق (١/ ٢٩٠).

(٥) البخاري مع الفتح (٥/ ٢٨٧)، كتاب «الشهادات»/ باب كيف يُستحلف. رقم (٢٦٧٩)، ومسلم (٣/ ١٢٦٦)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. رقم (١٦٤٦).

تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم»(١)، وقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك**»(٢).
وفي رواية: «**من حلف بشيء دون الله تعالى؛ فقد أشرك**»(٣).

وقوله ﷺ: «**لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون**»(٤).

ولما روت قتيلة بنت صيفي الجهنية: «أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله، ثم شئت»(٥).

---

(١) مسلم (٣/ ١٢٦٧)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله. رقم (١٦٤٨).

(٢) أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود (٣/ ٥٧٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب في كراهية الحلف بالآباء. رقم (٣٢٥١) واللفظ له، والترمذي (٤/ ١١٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله. رقم (١٥٣٥)، وقال «حديث حسن»، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩) رقم (٤٣٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذا اللفظ». وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «الوابل الصيب» (٢٩١)، وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٨).

(٣) «المصنف» لعبد الرزاق» (٨/ ٤٦٨) رقم (١٥٩٢٦)، وأحمد (٢/ ٣٤). قال ابن كثير: «إسناده على شرط الصحيحين». «مسند الفاروق» (١/ ٤٣١).

(٤) أبو داود (٣/ ٥٦٩)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب في كراهية الحلف بالآباء. رقم (٣٢٤٨)، والنسائي (٧/ ٥)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الحلف بالآباء، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩) رقم (٤٣٥٧). قال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٥)، وصححه ابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٥/ ٣٠٧).

(٥) أحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، والنسائي (٧/ ٦)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الحلف بالكعبة. واللفظ له، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٥/ ١٣)، و«المستدرك» للحاكم (٤/ ٣٣١)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه النسائي. «فتح الباري» (١١/ ٥٤٠)، وقال ابن حجر: «سنده صحيح». «الإصابة» (١٤/ ١٣٠-١٣١).

«والأدلة المانعة عن الحلف بغير الله أكثر من أن تحصر»(١).

«والحلف بالمخلوقات كلها في حكم الحلف بالآباء، لا يجوز شيء من ذلك»(٢) لما «ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، ولا فرق بين نبي ونبي»(٣).

قال جبلة بن سحيم: أقبلت مع زياد بن حُدَيْر الأسدي من الكناسة، فقلت في كلامي «لا والأمانة»، فجعل زياد يبكي، ويبكي، فظننت أني أتيت أمرًا عظيمًا، فقلت له: أكان يُكره هذا؟ قال: نعم، كان عمر ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي»(٤).

وقال القاسم بن مخيمرة: «ما أبالي حلفت بحياة رجل أو بالصليب»(٥)، أي: أنه لا فرق بينهما، فكلاهما شرك، ولهذا قال البخاري: «وليس لأحد أن يحلف بالمخلوقين ولا بأعمارهم، ولا بكلامهم»(٦).

ولخطورة الحلف بغير الله امتنع منه عمر رضي الله عنه في جميع أحواله، كما روى ذلك ابنه عبد الله، فقال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**». قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ، ذاكرًا ولا آثرًا(٧).

---

(١) «حكم الله الواحد الصمد» للمعصومي الحنفي (١٣٧)، وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (٤٤٤)، و«مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز (٤/ ١٤٦).

(٢) «التمهيد» (١٤/ ٣٦٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩١).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٧٠-٧١).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٤١٧).

(٦) «خلق أفعال العباد» (١٥٦).

(٧) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٣٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب لا تحلفوا بآبائكم. رقم (٦٦٤٧)، ومسلم (٣/ ١٢٦٧)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. رقم (١٦٤٦).

وعاتب الزبير وكاد أن يضربه بالدرة لما سمعه يقول: لا والكعبة، فرفع عليه الدرة، وقال: «الكعبة لا أم لك، تطعمك وتسقيك؟!»(١).

ولقد فقه الصحابة والتابعون عظم إثم الحلف بغير الله، فقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره وأنا صادق»(٢)، وقال الشعبي: «الخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، والذي نفسي بيده لأن أقسم بالله فأحنث، أحب إليَّ من أن أقسم بغيره فأبر»(٣).

هذا مع أن الحلف بالله كاذبًا قد يكون يمينًا غموسًا يغمس صاحبه في النار، ومع ذلك كله صار أخف إثمًا وأقل جرمًا من الحلف بغير الله مع الصدق، «وذلك لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم إثمًا من الكبائر»(٤).

قال ابن القيم: «صاحب الشرع يجعله -أي الحلف بغير الله- شركًا، فرتبته فوق رتبة الكبائر»(٥).

والسر في ذلك: «أن من حلف بغير الله فقد عظم غيره تعظيمًا يشبه تعظيم الرب تبارك وتعالى، ولهذا سمي شركًا لكونه أشرك غير الله مع الله تعالى في تعظيمه بالقسم به»(٦).

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٤١٦).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٤١٦)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٩/ ١٨٣) رقم (٨٩٠٢)، وقال المنذري: «رواه الطبراني موقوفًا، ورواته رواة الصحيح». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٦٠٦-٦٠٧).
قال ابن حجر: «وجاء مثله عن ابن عباس وابن عمر ﵄، والشعبي ؒ». «فتح الباري» (١١/ ٥٣٥).

(٣) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٦/ ٩٧).

(٤) «جامع المسائل» لابن تيمية - المجموعة الخامسة (١١٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٥٠).

(٥) «إعلام الموقعين» (٤/ ٤٠٣).

(٦) «الشرح الكبير» لابن قدامة المطبوع مع «الإنصاف» (٢٧/ ٤٦٤).

والقاعدة في ذلك: «كل معصية سُمِّيَتْ شركًا أو كفرًا أعظم من معصية لم تسم شركًا أو كفرًا».

وقد أجمع العلماء على تحريم الحلف بغير الله، ومن ذلك: ما رواه الكوسج، قال: قلت لأحمد: تكره أن يحلف الرجل بعتق أو طلاق، أو مشي؟

فقال أحمد: سبحان الله تعالى! من لا يكره ذلك؟ لا يحلف إلا بالله»(١).

فقوله: من لا يكره ذلك؟ يدل على أنه ليس في المسألة خلاف، فالمسألة إجماع.

قال ابن عبد البر: «لا يجوز الحلف بغير الله عز وجل في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال، وهذا أمر مجمع عليه»(٢).

وقال ابن تيمية: «ونحن المخلوقين ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك بل ذلك شرك منهيٌّ عنه»(٣).

وقال الشنقيطي: «اعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بأسماء الله وصفاته، فلا يجوز القسم بمخلوق لقوله ﷺ: «**من كان حالفًا، فليحلف بالله أو ليصمت**»، ولا تنعقد يمين بمخلوق كائنًا من كان، كما أنها لا تجوز بإجماع من يعتد به من أهل العلم، وبالنص الصريح في منع الحلف بغير الله»(٤).

وبعد أن ذكر ابن باز نماذج ممن يحلف به من دون الله، كالنبي ﷺ، والكعبة، والملائكة والمشايخ، قال: «وغير ذلك مما يحلف به كثير من الجهلة بأمور الدين، فهذه الأيمان كلها لا

---

(١) «مسائل الكوسج» (٥/ ٢٤٧٥).

(٢) «التمهيد» (١٤/ ٣٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩٠)، وانظر (٣/ ٣٩٨).

(٤) «أضواء البيان» (٢/ ١٢٣).

تجوز بإجماع أهل العلم»(١).

العصر: فسِّر العصر بعدة معانٍ مردها إلى الدهر ففسر بالدهر والسنة والشهر والليل والنهار وبصلاة العصر.

المقسم به العصر وأقسم الله به لأمرين:

الأول: أهميته:

وتتجلى أهميته بما يلي:

أ- أنه زمن الأرباح للمؤمنين، والخسائر للكافرين والفاسقين.

ب- لما فيه من العبر والعجائب للناظرين والمتفكرين من تعاقب الليل والنهار والظلام والنور وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان:٦٢].

جـ- أنه ينقلنا من الدنيا إلى الآخرة فالزمان بحركته الدائبة يجري بالإنسان نحو نهايته المحتومة.

وأرى الزمان سفينة تجري بنا نحو المنون ولا نرى حركاته

ولذلك فإن الله تعالى أقسم بجميع أجزائه والفجر وليال عشر - والضحى والليل إذا سجى - والعصر - والليل إذا يغشى.

الثاني: لما فيه من التذكير بالآخرة: فأقسم الله بالعصر في حق الخاسر كما أقسم بالضحى في حق الرابح لما فيهما من دلائل قدرة الله فإن كل بُكْرَةٍ كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء وتنصب الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت وكل واحدٍ من هاتين الحالتين شاهد عدل. ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٨/ ٣٥٧).

عد خاسرًا فهكذا الإنسان إذا لم يعمل صالحًا.

قال الحسن: أقسم بالعصر تنبيهًا على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألونك حقهم فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين. وهكذا فالقيامة قد دنت فإذا أنت لم تستعد وفجأك الأجل تكون من الخاسرين.

إن الإنسان لفي خسر: هذا هو جواب القسم.

الإنسان: لفظ يقع على الذكر والأنثى من بني آدم.

فهو اسم جنس ويراد به العموم **ويدل على ذلك أمران:**

١ - الألف واللام وهما يفيدان الاستغراق أي استغراق جميع الإنسان وهم بنو آدم، ويدخل معهم الجن؛ لأنهم قوم مكلفون بالشريعة كالإنس.

٢ - الاستثناء منه حيث قال: إلا الذين آمنوا.

لفي خسر: الخسر هو: النقصان وذهاب رأس المال. وقيل: العقوبة. قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[الطلاق:٩] ونكر الخسر للتعظيم والتهويل والمبالغة في الخسارة أي إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل.

فالذنب والعصيان عظيم لأمرين:

١ - أنّ الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب.

٢ - أنه وقع في مقابلة النعم العظيمة.

وأكد ذلك بمؤكدات:

١ - إنَّ تفيد التوكيد.

٢ - حرف الظرفية «في» يفيد الاستغراق فهو مستغرق في الخسران فهو كالمغمور فيه.

٣- حرف اللام في «لفي خسر».

فدل ذلك على أن الإنسان لا يكاد ينفك عن خسر لأن الخسر هو تضييع رأس المال ورأس ماله هو عمره والإنسان قلما ينفك عن تضييع شيء من عمره وذلك **لأن ساعات الإنسان ثلاث هي:**

١- ساعة مصروفة في معصية، فهذه لاشك في خسرانها.

٢- ساعة مصروفة في المباحات، فخسرانها حاصل لأنها إذا ذهبت لم يبق منها أثر ينفعه.

٣- ساعة مصروفة في الطاعة فهذه ساعة خير وربح، فلنحرص على الإتيان بالطاعة الفاضلة على أحسن وجه؛ لئلا نخسر الدرجة العليا.

إذًا: هذه الآية تنبه على أن الأصل في عموم الإنسان هو الخسران وذلك لأن سعادة الإنسان أن يكون همه الآخرة والعمل لها والإعراض عن الدنيا ولكن معظم الخلق معرضون عن الآخرة إلى الدنيا لأن الأسباب الداعية لحب الدنيا ظاهرة أمامهم وأما الأسباب الداعية إلى الآخرة فهي خفية فلذلك انهمكوا في طلب الدنيا قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦].

قال شيخ الإسلام: «فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين»(١).

وقال ابن القيم: «بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه وأمر غيره به»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٥).

(٢) «التبيان» (٨٣).

قال بعض السلف: تعلمت معنى سورة العصر من بائع ثلج كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ فكما أن الثلج تذيبه الدقيقة والساعة، كذلك عمر الإنسان تفنيه السنة والشهر واليوم والساعة والدقيقة، ولا يستطيع إرجاع شيء من عمره. فما ذهب لا يعود.

أقسام الخسر:

ينقسم الخسر إلى قسمين:

١- خسر كامل مطلق: كخسران الكفار والمنافقين الذين خسروا دنياهم وأخراهم وفاتهم النعيم واستحقوا الجحيم.

قال تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج:١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الزمر:١٥] فهؤلاء في جهنم خالدون.

٢- **خسر ناقص:** «جزئي مقيد» كمن فاته عمل صالح لم يعمله، روى سعد ابن أبي وقاص أنه كان قاعدًا عند عبدالله بن عمر: إذ طلع خباب صاحب المقصورة فقال: يا عبدالله بن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ مِنْ بَيْتِها وصَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ تَبِعَهَا حَتّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قَيرَاطَانِ مِن أَجْرٍ كُلُّ قيرَاط مِثْلُ أُحُدٍ وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجِعَ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ**». فأرسل ابن عمر خبابًا إلى عائشة يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت: وأخذ ابن عمر قبضة من حصباء المسجد يقلبها في يده حتى رجع إليه الرسول فقال: قالت عائشة صدق أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض ثم قال: لقد أضعنا قراريط كثيرة»(١)

(١) مسلم (٢/ ٦٥٤) كتاب «الجنائز»/ باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها. رقم (٩٤٥).

وفي رواية البخاري «لقد فرطنا في قراريط كثيرة» فرطت: ضيعت من أمر الله[١].

«فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك»[٢].

وأشد من ذلك أن الإنسان يعلم ما أمر الله به من عمل صالح ويعلم فضله ثم لا يستطيع القيام به من غير مانع ظاهر وإنما الذنوب هي التي قيدته فمنعته العمل الصالح. قال الفضيل بن عياض: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك»[٣].

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد خسر ربح الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر قال ابن القيم: «فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر»[٤].

وكمن ارتكب معصية لا توصله إلى الكفر فاستشعر بذلك خسارته ونقص إيمانه كما فعل ماعز عندما زنى أتى إلى النبي ﷺ فقال: طهرني[٥].

فعموم الخسران حاصل ويتبين أكثر عند النظر إلى المستثنى وأضداده بـ:

١ - الإيمان ضده الكفر قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٥] فخسران الدين سببه الكفر وهذا من الخسر الكامل ويوضحه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[إبراهيم:١٨].

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١٩٢) كتاب «الجنائز»/ فضل اتباع الجنائز. رقم (١٣٢٤).

(٢) «التبيان» (٨٣).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٥).

(٤) «التبيان» (٨٨).

(٥) مسلم (٣/ ١٣٢٢) كتاب «الحدود»/ باب من اعترف على نفسه بالزنى. رقم (١٦٩٥).

٢- العمل الصالح ضدُّه العمل الفاسد قال تعالى مبينًا خسران صاحب الأعمال الفاسدة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠٣].

٣- التواصي بالحق ضده التلهي بالباطل. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

٤- التواصي بالصبر ضده الهلع والجزع، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج:١١].

إلا: أداة استثناء.

وللاستثناء فائدتان:

١- أنه تسلية للمؤمن من فوات عمره وشبابه؛ لأن العمل الصالح قد أوصله إلى ما هو خير منه.

٢- تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الفوز، والفلاح وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الخسار والفساد.

الذين آمنوا: أي شهدوا أن لا إله إلا الله بألسنتهم، وأقروا واعتقدوا بقلوبهم صحة ما جاء به النبي ﷺ من الدين، وعملوا بما تقرر في شرع الله ودينه.

والإيمان لا يمكن أن يكون إلا بالعمل فلا يصح إلا به، ولهذا قال:

وعملوا الصالحات: أي أدوا ما أمرهم الله به.

والعملُ الصالح شاملٌ لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

والصلاح: هو ما اجتمع فيه شرطا القبول وهما الإخلاص والمتابعة.

وقيد العمل بالصلاح لأن العمل إذا لم يكن صالحًا لم يقبل ولم ينفع صاحبه بل ربما كان وبالًا عليه.

والآية هنا جمعت الأعمال الباطنة والظاهرة.

إلا الذين آمنوا: الأعمال القلبية الباطنة.

وعملوا الصالحات: الأعمال البدنية الظاهرة.

قال الشافعي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[البينة:٧] علمنا: أنهم خير البرية بالإيمان والعمل الصالح»[١].

وتواصوا: التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وقبوله من الآخرين إذا وصّوْهم به فجمعوا بين المنقبتين: الوصية وقبولها.

الحق: هو الإيمان والتوحيد بل هو الدين كله.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب[٢].

والتواصي بالحق ضرورة لأن النهوض بالحق عسير ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]، والمعوقات كثيرة فالشيطان معوق وهوى النفس آخر ومنطلق المصلحة الخاطئ ثالث وطغيان الطغاة وظلمهم وجورهم رابع... إلخ.

أضف إلى ذلك أن التواصي تشجيع وتذكير وإشعار بالقرب في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة، فبالتواصي يشعر كل مسلم أنه حارس للحق وأن أخاه معه يعينه وينصره ولا يخذله.

---

(١) «اعتقاد الشافعي» للهكاري (٢٤).

(٢) «التبيان» (٥٤).

وتواصوا بالصبر: أي أمر بعضهم بعضًا بالصبر فَوَصَّوا به وقبلوا الوصية به إذا وجهت إليهم، **والتواصي بالصبر لأمرين**:

١- لأنه ضرورة مُلِحَّة: لأن الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة فلا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير والصبر على ما يصيب الإنسان من الأذى، وتبجح أهل الباطل بباطلهم. قال ابن القيم: «ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه»[1].

٢- أن الصبر يزيد من قوة المسلم في تمسكه بالحق والدعوة إليه فيندفع في سبيل دعوته ولا يبالي بما يعترضه من المعوقات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

كرر الله تعالى كلمة تواصوا لأمور:

١- لتبرز الأمة ذات الكيان الخاص والوجهة الموحدة والرابطة المتميزة.

٢- عدم الأنانية فيذكِّر بعضهم بعضًا وينصح له كما ينصح لنفسه.

٣- لما فيها من استشعار الرحمة والألفة والشفقة والمحبة فمن المعلوم أن الوصية تأتي من الحبيب لحبيبه.

وجمع الله بين الحق والصبر لـ «أن الدين مبني على هذين الأصلين الحق والصبر»[2].

(١) «عدة الصابرين» (٢٠٩).

(٢) المرجع السابق (١١٢).

أقسام الناس عند الوصية:

١ - من لا يوصي غيره، لكن إذا وصاه غيره قبل منه.

٢ - من لا يوصي غيره ولا يقبل وصية غيره له.

٣- من يوصي غيره لكن لا يقبلها إذا جاءته من غيره.

٤ - من يوصي غيره ويقبل وصية غيره له.

وهذا هو خيرهم وأفضلهم وأكملهم. وهذه صفة المؤمنين الخُلَّصْ، فلنحرص ولنجاهد أنفسنا لعلنا أن نكون منهم.

قال شيخ الإسلام: «وكما أننا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر، فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها»(١).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٥).

قال الشافعي رحمه الله: «لو ما أنزل الله حُجَّةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

....

لو ما أنزل الله: النزول يكون من الأعلى إلى الأسفل، **والإنزال في القرآن ورد على ثلاثة أحوال، هي**:

١- ورد مطلقًا غير مقيد، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[الزمر:٦].

٢- ورد مقيدًا بشيء من خلق الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[الفرقان:٤٨].

ففي هاتين الحالتين المنزل خلق من خلق الله.

٣- ورد مقيدًا بالله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الجاثية:١-٢].

أما في هذه الحالة فالمقصود به صفة من صفاته، وهي كلامه سبحانه، ومنه سورة العصر.

حجة: والحجة هي الكلام المقنع الذي لا يستطيع الخصم ردّه. بل يلزمه الاستسلام له وقبوله.

على خلقه: يقصد بذلك أن الله أنزلها على رسوله وكلف بها خلقه، فكأنها أنزلت إليهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء:١٧٤]، والخلق هم المكلفون من الإنس والجن.

لكفتهم: أي أغنتهم عن غيرها، فلو لم ينزل الله من وحيه على عباده إلا سورة العصر لكانت مقنعة لهم ومغنية لهم عن غيرها فقد وضحت المنهج السليم الذي ينبغي أن يسير عليه المسلم.

وفي رواية: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»(١).

وفي رواية: «لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم»(٢).

«وذلك لأن الله تعالى أخبر فيها أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا ومع غيره موصيًا بالحق موصيًا بالصبر»(١).

وشرحها ابن باز فقال: «أي لو نظروا فيها وتأملوا لكانت كافية في إلزامهم الحق وقيامهم بما أوجب الله عليهم وترك ما حرمه عليهم لأن الله بين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ناجون ومن سواهم خاسر وهذه حجة قائمة على وجوب التواصي والتناصح والإيمان والصبر والصدق وأنه لا طريق للسعادة والربح إلا بهذه الصفات الأربع(٣).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤٧).

(٢) «الاستقامة» (٢/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٣) «شرح ثلاثة الأصول«(٢٦).

قال البخاري رحمه الله: «**باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى:** ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩]» **فبدأ بالعلم قبل القول والعمل**(١).

....

في سورة العصر دلالة واضحة على العلم وذلك أنه لا يمكن أن يؤمن الإنسان ويعمل ويدعو إلا عن علم وبصيرة ولذلك أجمع من شرحوا سورة العصر أو تكلموا على معانيها وفوائدها أن العلم والعمل هما الأمران اللذان يكمل بهما الإنسان نفسه. لكن المؤلف عليه رحمة الله أراد أن يزيد الأمر وضوحًا فذكر تبويب البخاري رحمه الله ودليله الذي استدل به على أن البداءة بالعلم قبل القول والعمل.

قال ابن المنير: «أراد به أنَّ العلم شرطٌ في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه المصنف على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إن العلم لا ينفع إلا بالعمل» تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه»(٢).

وهذا العلم الذي أمر الله به هو العلم بأصل العلوم وهو العلم بتوحيد الله.

لكن لابد من إقرار القلب به وعمل الجوارح بمقتضاه أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية ويجوز للخلق عبادته إلا الله خالق كل شيء ومالك كل شيء واسأل ربك غفران ذنوبك السالفة وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

ولقد فعل النبي ﷺ ذلك فاستغفر لأمته فعن عاصم عن عبدالله بن سَرْجِس قال رأيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزًا ولحمًا أو قال ثريدًا قال فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٥٩) كتاب «العلم».

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

قال نعم. ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(١) [محمد:١٩].

والطريق إلى العلم بأنه (لا إله إلا الله) أمور:

١- تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على عظمته وكماله.

٢- العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

٣- معرفة أوصاف الأوثان التي عبدت مع الله واتخذت آلهة وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات لا تملك لنفسها وغيرها ضرًا ولا نفعًا.

٤- شهادة الرسل والأنبياء وأولو العلم بالتوحيد.

٥- الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة.

٦- تدبر القرآن العظيم «وهو الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره»(٢).

ومن لطائف هذه الآية الجمع بين التوحيد والاستغفار، لأن الدين مجموع فيهما، قال شيخ الإسلام: «وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم ومن آخرهم إلى أولهم ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم. فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجلّه، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.

والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته ويمحو الذنب الذي هو من شعب الشرك فإن الذنوب كلها من شعب الشرك فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه

---

(١) مسلم (٤/ ١٤٢٣-١٤٢٤)، كتاب «الفضائل»/ باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده ﷺ. رقم (٢٣٤٦).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧٣١-٧٣٢).

فأبلغ الثناء قول لا إله إلا الله وأبلغ الدعاء قول أستغفر الله، فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولإخوانه من المؤمنين»[١].

وبعد أن ذكر المؤلف ﵀ مقومات الشخصية الإسلامية التي عنون لها بالمسائل الأربع. انتقل إلى بيان المناهج الموجودة في المجتمعات وما هو الصحيح الذي يجب اتباعه والفاسد الذي يجب اجتنابه ومن ثم معرفة السياج الواقي من الوقوع في المنهج الفاسد فقال: اعلم رحمك الله....

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٦-٦٩٧).

اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل بهن.

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هملاً.

....

اعلم رحمك الله: كررها مرة ثانية ليفتح قلبك لما يلقيه عليك فتقبله وتنفذه.

أنه يجب على كل مسلم ومسلمة: أي أنه فرض لازم على كل المسلمين ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدهم صغيرهم وكبيرهم وجوبًا على الأعيان لا يسع أحدًا منهم جهله أو عدم العمل به لأنها هي أساس الدين ولبه.

وحصرها بهذه المسائل الثلاث التي هي أصل الدين وقاعدته لأن الاستمساك بالدين لا يكون إلا بها:

فأمر بالتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة مع بيان ثمرته.

ثم نهى عن ضده وما يبطله من الشرك مع بيان الشفقة على صاحبه.

وثَلَّثَ بالسياج الواقي من الوقوع في الشرك وهو مصاحبة الأخيار المؤمنين وموالاتهم ومعاداة الأشرار الكافرين وبغضهم.

ونبه على العمل بهن لأمرين:

١- لأن العمل هو ثمرة العلم فلا بد من العمل بالقلب واللسان والجوارح.

٢- لأن المدعين لذلك كثير ولكن العامل بهن قليل فكثير من الناس يقول بأنه مسلم ويصوم ويصلي ويحج ولكنه يصرف العبادة لغير الله فيدعوه ويرجوه من دون الله أو مع الله، أو يوحّد الله، ولكن لا يعادي الكافرين ولا يبغضهم.

الأولى: جعل مسألة التوحيد هي الأولى لأن الدعوة إلى التوحيد هي أول ما يبدأ به الداعية إلى الله إتباعًا لمنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما في حديث معاذ رضي الله عنه فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك لأن نور التوحيد يبدد ظلمات الشرك ويذهبه.

أن الله خلقنا:

الخلق: هو إبداع الشيء على مثال لم يسبق إليه. فقوله: خلقنا: أي أوجدنا من العدم قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم:٩].

والمادة التي خلقنا منها التراب: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[الروم:٢٠] ولذلك أنكر على المشركين الذين عبدوا معه غيره بصيغة الاستفهام الإنكاري فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾[الطور:٣٥]، أي: أم خلقوا من غير خالق، أم هم الخالقون لأنفسهم.

فالقسمة في هذه الآية ثلاثية وذلك أن احتمالات وجود الموجودين ثلاثة:

١ - أنهم خلقوا من غير خالق خلقهم ولا موجد أوجدهم وهذا عين المحال لأنه لا يمكن أن يوجد موجود إلا بموجد.

٢ - أنهم هم الخالقون لأنفسهم وهذا محال لأنهم كانوا عدمًا والعدم لا يوجد شيئًا لأنه ليس بشيء فكيف يوجد شيئًا.

٣- أن الله خلقهم وهذا هو المتعين لأنه إذا استحال الاحتمالان الأول والثاني لم يبق إلا الثالث وهو أن الله خلقهم وأوجدهم وهو القادر على كل شيء وهو الخلاق العليم.

وهذا هو الذي قرره أئمة السلف كما قال شيخ الإسلام عندما ذكر الآية قال فيها قولان:

١- الأكثرون قالوا: إن المراد أم خلقوا من غير خالق.

٢- وقيل أم خلقوا من غير مادّة؟ وهذا ضعيف لقوله بعد ذلك: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فدلَّ على أن التقسيم أم خلقوا من غير خالق أم هم الخالقون؟ ولو كان المراد من غير مادّة لقال: أم خلقوا من غير شيء أم من ماء مهين؟ فدل على أن المراد أنا خالقهم لا مادتهم... والاستفهام استفهام إنكار مقصوده تقريرهم أنهم لم يخلقوا من غير شيء، فإذا أقروا بأن خالقًا خلقهم نفعهم ذلك وأما إذا أقروا بأنهم خلقوا من مادة لم يغن ذلك عنهم من الله شيئًا[1].

ولهذا هزت هذه الآية جوانح جبير بن مطعم رضي الله عنه عندما سمعها وكان ذلك الوقت مشركًا. قال جبير بن مطعم: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾[الطور:٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير»[2]. زاد في رواية «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[3].

ورزقنا: الواو عاطفة أي أن الخلق الذي هو الإيجاد من العدم والرزق الذي هو سبب البقاء مِنَّة من الله وتكرم منه سبحانه وتعالى.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٣٦-٢٣٧) وراجع إن شئت «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٠٣)، كتاب «التفسير»/ سورة الطور. رقم (٤٨٥٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ٣٢٣) كتاب «المغازي»/ باب شهود الملائكة بدرًا. رقم (٤٠٢٣).

والرزق: كل ما يدخل تحت ملك العبد مما يؤكل ومما لا يؤكل. وقيل كل ما ينتفع به الإنسان، وقيل: «الرزق: اسم لكل ما يغتذي به الإنسان وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة»(١).

فالله هو الذي رزق خَلْقَهُ رزقًا بعد رزق وأكثره ووسعه لهم. رزقًا شمل خلقه كلهم فلا رازق سواه ولا معطي غيره. قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:٢٢-٢٣] فأكدت هذه الآية أن الرزق من الله بعدة مؤكدات:

١- شهادة الله بصحة ما أخبر به.

٢- القسم (فورب السماء).

٣- إنَّ.

٤- اللام في قوله لحق.

٥- (أنَّ) في قوله (أنكم تنطقون).

٦- ربطه بين النطق والرزق فالنطق معلوم بالحس والواقع لا يشك فيه أحد فكذلك الرزق يجب على العبد أن يثق بما عند الله من رزق ولا يشك فيه.

٧- الربط بين النطق وأكل الرزق لأن مكانهما واحد وهو الفم، فكما أنك لا تستطيع أن تنطق بلسان غيرك لا تستطيع أن تأكل رزق غيرك.

يرزق خلقه وإن ارتكبوا الجرائم والعظائم قال ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أذىً سَمِعَهُ مِنَ الله يدَّعون لَهُ الوَلَدَ ثُمَّ يُعافيهم ويَرْزُقُهُم**»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٦٠) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. رقم (٧٣٧٨).

بل من كرمه أنه يسوق الرزق إلى الضعيف الذي لا حيلة له ولا قدرة له على الكسب قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا ﴾[العنكبوت:٦٠].

وحصر الله الرزق منه سبحانه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨]. فأتى بضمير الفصل «هو» ليفيد الاختصاص.

وتحدّاهم أن يجدوا رازقًا غيره فقال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[فاطر:٣] وهذا استفهام يراد به الإنكار والتحدي، أي: إن وجدتم رازقًا غير الله، فأتوا به.

فلو أمسك رزقه ما استطاع أحد أن يرزق أحدًا من دونه. قال سبحانه على وجه التوبيخ والتقريع وإقامة الحجة عليهم: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾[الملك:٢١].

وجه الجمع بين الخلق والرزق:

جمع المؤلف بينهما لأن الخلق إيجاد من العدم والرزق سبب للبقاء فمن لا يأكل ولا يشرب يموت ولذلك جمع الله بينهما في كتابه الكريم فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ ﴾[الروم:٤٠].

(والخلق والرزق فيهما حياة الأبدان) ففيه إشارة إلى توحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية هو «إفراد الله بأفعاله» أو: «إفراد الله بالملك والخلق والتدبير».

فدليل إفراده بالملك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ(١) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[آل عمران:١٨٩] فقدم ما

---

(١) ملك الله ملك مطلق، قال تعالى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣].

أما ملك المخلوق فهو ملك مقيد بزمان ومكان وأمر. أما الزمان فإن الإنسان لا يملك إلا وقت حياته فقط أما المكان فإن المخلوق لا يستطيع ملك كل شيء فتجده يملك هذا المكان ولا يملك غيره أما الأمر فإنه لا يجوز له أن يتصرف في ماله إلا بما شرع الله.

حقه التأخير ليفيد الحصر، أي: حصر الملك لله.

أما دليل إفراده بالخلق والتدبير فقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ[١] وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤] فأتى بـ(ألا) الدالة على التنبيه وقدم ما حقه التأخير وهو الخبر فأفاد الحصر.

وذكر الربوبية ليستدل به على الألوهية ولهذا قال:

(ولم يتركنا هملًا):

الواو: عاطفة.

لم: نافية.

يتركنا: يبقنا أو يدعنا.

هَمَلًا: الهمل هو السدى المتروك بلا أمر ولا نهي ولا بيان لما يحتاج إليه ومنه «بعير هامل» و«إبل هوامل» أي مُسَيَّبَةٌ لا راعي لها وأمر مهمل أي متروك.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦] أيحسب: الهمزة للاستفهام الإنكاري أي: أيظن الإنسان أن يترك هملًا مهملًا «لا يؤمر ولا ينهى»[٢]. وقيل: لا يثاب ولا يعاقب، والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة، واحتج سبحانه بأنه لا يترك الإنسان مهملًا معطلًا بخلق النطفة فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[القيامة:٣٧-٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة حتى صارت علقة ثم صارت خلقًا سويًا كاملًا فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا. فكيف

---

(١) الفرق بين خلق الله وخلق المخلوق أن خلق الله إيجاد من عدم وخلق المخلوق تحويل من صورة إلى أخرى.

(٢) «الرسالة» (٢٥).

يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له[١].

والظن بأن الإنسان لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب مِنْ ظَنّ السوء بالله وهو ظن الكافرين ولذلك نفاه الله عن نفسه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[ص:٢٧].

وفي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨].

وأنكره الله عليهم أشد الإنكار ونزه نفسه عنه فقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

والاستفهام في قوله أفحسبتم للإنكار والتوبيخ، والعبث: هو اللعب والباطل. أي أفظننتم أنا خلقناكم للإهمال واللعب والباطل وليس لوجودكم حكمة. وأنه ليس هناك أمر ولا نهي ولا بعث ولا نشور يثاب فيه مطيعكم ويعاقب فيه عاصيكم.

ثم نزه نفسه عن خلق شيء عبثًا فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ فهو الملك الحق الذي ملكه كامل على الإطلاق حق في جميع أقواله وأفعاله فيجب أن يعبد وحده لا شريك له، فإذا كان ربًا للعرش فكيف لا يكون إلهًا وربًا لما هو دون العرش من المخلوقات فاعترفوا بربوبيته واخضعوا لألوهيته سبحانه.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٦٥-١٦٦).

بل أرسل إلينا رسولًا، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

....

بل: للإضراب الإبطالي أي: إبطال ترك العبد هملًا لا يؤمر ولا ينهى.

أرسل: أي بعثه وأوحى إليه.

إلينا: أتى بنون الجمع في الجميع خلقنا رزقنا أرسل إلينا رسولًا: ليبين أن المنة منه سبحانه على الجميع والأمر بالعبادة كذلك للجميع.

رسولًا: نبينا هو محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه.

والغرض من إرسال الرسل أمران:

١- ليعبد الله وحده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]. وقال ﷺ: «**بعثت بين يديِّ الساعة بالسَّيف حتّى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي، وجعل الذلّ والصّغار على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم؛ فهو منهم**»(١).

وفي هذا دليل على أن تحقيق توحيد الألوهية لله وزوال الشرك من الأرض هو مقصود الدعوة إلى الله وأصلها وحقيقتها(٢).

---

(١) أحمد (٢/ ٩٢)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣). قال الذهبي: «إسناده صالح». «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٠٩).

وأخرجه أبو داود (٤/ ٣١٤) كتاب «اللباس»/ باب في لبس الشهرة. رقم (٤٠٣١) مختصرًا بلفظ: «من تشبه بقوم فهو منهم». قال شيخ الإسلام: «إسناده جيد». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٩٦)، وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٧١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٣-١٦٤).

٢- إبطال حجة المحتجين قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥].

فمن: الفاء رابطة.

من: شرطية.

أطاعه: الطاعة هي تنفيذ الأوامر فعلًا أو تركًا راضية بذلك النفس. وأعلاها التوحيد ثم ما دونه من الطاعات قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

فاجتمع الرضى القلبي مع العمل البدني.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها: فعل الصحابة عندما نُهوا عن شرب الخمر كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة:٩٠-٩١] قالوا: انتهينا، انتهينا وجاؤوا بالمدى فشقوا القرب حتى سالت في شوارع المدينة.

قال أنس بن مالك ﵁: «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة[1].

وعن أبي ميسرة: أن عمر بن الخطاب ﵁، قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة:٢١٩]، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ١١٢) كتاب «المظالم»/ باب صب الخمر في الطريق. رقم (٢٤٦٤).

ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء:٤٣]، فدعي عمر فقرئت عليه، ثم قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩١]، فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: انتهينا، انتهينا»(١).

ولما نزلت: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٩] خرج نساء الأنصار وكأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية(٢).

وطاعة الرسل فرض لازم. إذ هي ثمرة الإيمان بهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤].

وثمرتها الفوز بجنات النعيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[النساء:١٣].

ولهذا قال المؤِّلف مبينًا هذه الثمرة «فمن أطاعه دخل الجنة». ومن دخل الجنة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥] والضمير في قوله أطاعه يعود على الرسول محمد ﷺ.

ولقد أحسن عندما ربط العمل بثمرته؛ لأن هذا من أعظم ما يحرك الهمم للقيام به.

(ومن عصاه دخل النار):

أي: ومن عصى رسوله ﷺ دخل النار؛ لأنه لم يقبل ما أرسل به.

والمعصية: هي مخالفة الأوامر فعلًا أو تركًا.

---

(١) الترمذي (٥/ ٢٥٣-٢٥٤)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة المائدة. رقم (٣٠٤٩).

(٢) أبو داود (٤/ ٣٥٦-٣٥٧)، كتاب «اللباس»/ باب في قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾. رقم (٤١٠١)، وحسن سنده الشيخ عبد العزيز بن باز. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٢٤٣).

وبين نتيجة المعصية وهي دخول النار، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[النساء:١٤].

ولقد جمع بين الطاعة والمعصية وثمرة كل منهما رسول الله ﷺ ليحفز الهمم وليكون المسلم بين الرجاء والخوف بين طاعة يرجو ثمرتها ومعصية يخشى غبها وعقوبتها قال ﷺ: **«كل أمَّتي يدخلون الجنَّة إلا مَنْ أبى»**. قالوا يا رسول الله! ومن يأبى قال: **«من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني؛ فقد أبى»**[١].

وضرب ﷺ المثل في ذلك ليقربه إلى الأفهام فقال: **«إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينيَّ وإني أنا النذير العُرْيان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذَّب بما جئت به من الحق»**[٢].

قال الطيبي في كلامه أنواع من التأكيدات:

١- بعيني.

٢- قوله: وإني أنا النذير.

٣- العُرْيان، لأنه الغاية في قرب العدو ولأنه الذي يختص في إنذاره بالصدق[٣].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٤٩) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسوله ﷺ. رقم (٧٢٨٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥٠)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسوله ﷺ. رقم (٧٢٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٨٨-١٧٨٩)، كتاب «الفضائل»/ باب شفقة النبي ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم. رقم (٢٢٨٣).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣١٧).

وضربت الملائكة المثل في بيان ثمرة الطاعة، وعقوبة المعصية، كما في حديث جابر بن عبدالله ﵁ قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلًا. قال فاضربوا له مثلًا... فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدبةً وبعث داعيًا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أَوِّلُوها له يفقهها... فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله. ومحمد ﷺ فَرْقٌ بين الناس»[(١)]. والجمع بين ثمرة الطاعة ونتيجة المعصية التي هي الجنة أو النار. هيج مشاعر الصحابة وأحاسيسهم، فجعلهم يسألون عنها كلما حانت الفرصة قال معاذ بن جبل كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير فقلت يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «**قَدْ سألت عن عظيم، وإنَّه ليسير على من يسّره اللهُ عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا...**»[(٢)].

ولشدة تهييجه لمشاعرهم هيج حتى الأعراب فجاؤوا إلى النبي ﷺ يسألونه عن ذلك، فعن أبي أيوب الأنصاري ﵁: أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال يا رسول الله أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه ثم قال: «**لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ**» قال: كيف، قلت: قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي**

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٤٩)، كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)/ باب الاقتداء بسنن رسوله ﷺ. رقم (٧٢٨١).

(٢) أحمد (٥/ ٢٣١) الترمذي (٥/ ١١) كتاب «الإيمان»/ باب ما جاء في حرمة الصلاة. رقم (٢٦١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥)، كتاب «الفتن»/ باب كف اللسان في الفتنة. رقم (٣٩٧٣)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/ ٣١٠).

الزّكاة، وتصل الرّحم، دع الناقة»(١).

وعلى هذا يربي حذيفة رضي الله عنه القراء فيقول: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»(٢).

وهذا هو التكريم الحقيقي لبني آدم وذلك بتكليفهم بالأوامر والنواهي فمن أطاع أوامر الله فقد قبل كرامة الله له وتشريفه إياه دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء:٧٠]. فعلينا أن نفرح بهذا التكريم ونقبله.

قال السعدي: «وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة»(٣).

ومن لم يقبل التكريم فهو أضل من البهائم وأسوأ حالًا منها، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٤٤].

وقال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة:٥].

فلما لم يقبلوا تكريم الله لهم انحطت مرتبتهم حتى صاروا أحط من البهائم قال مقاتل: «البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها وهؤلاء لا

---

(١) مسلم (١/ ٤٢-٤٣). كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة. رقم (١٣)

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥٠) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم. رقم (٢٧٨٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤١٤).

ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم»[١].

فمن لم يقبل الأوامر والنواهي ارتكب محذورين:

١- اتهام الله بالعبث وإنكار اتصافه بالحكمة. لأنه لا يجتمع حكمة وعبث ولهذا نفى الله العبث عن نفسه فقال: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾[المؤمنون:١١٥]. وأثبت له الحكمة فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[الدخان:٣٨-٣٩].

وكفى به إثمًا وجرمًا ومعصية أن يُتَّهم الله بالعبث، وتُنْفَى عنه الحكمة.

٢- شبه نفسه بالمجنون والبهائم: فكلاهما لا عقل له ولا حساب عليه قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث، وذكر منها: وعن المجنون حتى يعقل**»[٢].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٤٤].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٦)

(٢) أحمد (٦/ ١٠٠-١٠١)، و الدارمي في «سننه» (٢/ ١٩)، كتاب «الحدود»/ باب رفع القلم عن ثلاثة. رقم (٢٢٩٦)، وأبو داود (٤/ ٥٥٨)، كتاب «الحدود»/ باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا. رقم (٤٣٩٨)، والنسائي (٦/ ١٥٦) كتاب «الطلاق»/ باب ما لا يقع طلاقه من الأزواج. قال النسائي: «ليس في الباب صحيح إلا حديث عائشة؛ فإنه حسن»، وقال ابن المنذر: «هو ثابت عن النبي ﷺ». «فتح الباري» لابن رجب (٥/ ٢٩٤).

قال الترمذي: «والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم». «سنن الترمذي» (٤/ ٣٢). قال شيخ الإسلام: «اتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول». «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩١).

ما مدى حسرة من لا يعرف الأوامر والنواهي؟

يجيب عن هذا التساؤل خبر الحنفاء الذين عاشوا في الجاهلية، وبه نعرف حسرتهم ومدى نعمة الله علينا بحفظ الدين وبقائه غضًّا طريًّا كما نزل على نبينا محمد ﷺ بكماله وتمامه، فلله الحمد والمنة والفضل.

فعن ابن عمر رضي الله عنه «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتَّبِعُهُ فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعَلِّي أن أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفرُّ إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنَّى أستطيع ذلك! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يَعْبُد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم»(١).

وكان يقول: «اللهم لو أني أعلم أحبَّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٢) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم (٣٨٢٧).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٩٦).

فانظر إليه ﷺ لما تحركت عنده الفطرة وأبى الشرك وعبادة الأوثان بحث عن دين يشبع جَوْعته، فسافر إلى الشام وقطع الفيافي والقفار بحثًا عن الدين الصحيح، فذهب إلى اليهود لعله أن يجد عندهم بغيته فلم يجدها، ثم ثنى بالنصارى فلم يجد عندهم ما يريد، ولم يجد إلا أن الدين الصحيح هو الاستقامة على التوحيد، فلم يعرف كيف يتقرب إلى ربه بأية قربة. وانظر إليه وهو في البرية لوحده لم يعرف إلا هذه الكلمة اللهم أني أشهد أني على دين إبراهيم.

فإذا نظر المسلم إلى تلك الصورة المؤثرة ثم رجع إلى واقعه فوجد القرآن غضًا طريًا كما نزل، ووجد السنة كذلك وعلم كيف يتقرب إلى ربه بدون مشقة ولا عناء أكسبه ذلك الحرص على طاعة الرسول ﷺ والتمسك بدينه والفرح به ممتثلًا قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨].

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل:١٥].

....

ولعل سبب اختيار هذا الدليل مع أن الأدلة المباشرة على أن ثمرة الطاعة الجنة ونتيجة المعصية النار كثيرة في القرآن الكريم، **ما يلي:**

١- أن فيه نموذجاً لعقوبة أحد العصاة المعروفين بجبروته وقوته وطغيانه. وهذا أدعى للاتعاظ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره»[١].

٢- أن هذا العاصي عوقب بثلاث عقوبات (الدنيا - البرزخ - الآخرة). فأما العقوبة الدنيوية فبإذلاله وإغراقه بم افتخر به على موسى عليه السلام وهو الماء حيث قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[الزخرف:٥١] فأغرقه الله به قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[الإسراء:١٠٣] فجمع الله عليه الغرق مع الإذلال. وأما عقوبة البرزخ فهي عرضه على النار مرتين كل يوم ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر:٤٦].

وأما العقوبة الأخروية فعقوبته بأشد العذاب قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[هود:٩٨] وجمع الله تلك العقوبات كلها بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[النازعات:٢٥].

وجمع العقوبات الثلاث في الدور الثلاث أشد في الزجر وأبلغ في التحذير.

إنا: الله يتحدث بضمير العظمة كي يعظم الناس أمره ويتبعوا رسوله.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٣٧) كتاب «القدر»/ باب كيفية خلق الآدمي. رقم (٢٦٤٥).

أرسلنا إليكم: الخطاب في قوله أرسلنا إليكم لقريش والمراد به سائر الناس[(١)].

رسولًا: هو نبينا محمد ﷺ وجاء منكرًا لتفخيمه وتعظيمه.

شاهدًا عليكم: أي شاهدًا عليكم بأعمالكم بإجابة من أجاب منكم دعوته وعمل الصالحات وامتناع من امتنع منكم عن الإجابة يوم القيامة[(٢)] يوضحه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ**» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: «**إنِّي أشتهي أن أسمعه من غيري**». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] قال لي: «**كُفَّ أو أَمْسِكْ**» فرأيت عينيه تذرفان»[(٣)].

قال ابن حجر: «بكى ﷺ رحمة لأمته لأنه علم أنه لابد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يفضي إلى تعذيبهم»[(٤)].

وشهادة الرسول ﷺ على العاصي من أمته شأنها عظيم فبها تكون الحجة على المسيء أبلغ والتبكيت له أعظم والحسرة أشد. أما المطيع فيكون سروره بشهادة الرسول ﷺ له أعظم من شهادة غيره فيا لها من شهادة ما أعظمها وأجلها.

كما أرسلنا إلى فرعون: الكاف للتشبيه. تشبيه الإرسال بالإرسال أي إرسالًا كائنًا مثل إرسالنا رسولًا إلى فرعون يدعوه إلى الحق والإيمان.

رسولًا: الرسول هو موسى عليه الصلاة والسلام فإنه رسول رب العالمين إلى فرعون.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢٣/ ٦٩٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٩/ ٩٨) كتاب «فضائل القرآن»/ باب البكاء عن قراءة القرآن. رقم (٥٠٥٥).

(٤) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).

فعصى فرعون الرسول: وعصيان فرعون الرسول هو تكذيبه إياه وعدم الإيمان به، والانقياد لما أمره به.

وفي إعادة فرعون والرسول مُظْهَرَين تفظيع لشأن عصيانه.

وأل في الرسول هنا للعهد الذكري.

فأخذْناه أخذًا وبيلًا: الوبيل هو العظيم الشديد الثقيل ومنه مطر وابل أي شديد قاله الأخفش وطعام وبيل: أي ثقيل واخم. وقيل الوابل: الثقيل الغليظ قاله الزجاج. وقال الطبري الوبيل: الشديد المتابع. وقيل الوبيل: الشر. والعرب تقول لمن تتابع عليه الشر لقد أوبل عليه قاله ابن زيد[١]، والمعنى: أي عاقبناه عقوبة غليظة شديدة متَتابعة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل:١٦] «خارج من التشبيه جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة»[٢].

والمراد من ذلك الحذر من تكذيب رسولكم محمد ﷺ فيصيبكم ما أصاب فرعون وجنوده من العذاب الأليم.

قال ابن كثير: وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذّبتم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران[٣].

وقال الألوسي: وفيه أن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم إذ زاد جل وعلا لهذا الرسول وصفًا آخر أعني شاهدًا عليكم وأدمج فيه أنه لو آمنوا كانت الشهادة لهم. وفائدة قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ لإيذان المخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد وأشد[٤].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٣/ ٦٩٣-٦٩٤) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٤٨).

(٢) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٦/ ٤٠٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٠).

(٤) «روح المعاني» (١٥/ ١٢٠).

إذًا مما سبق يتبين لنا من هذه الآية أمران:

١ - حمد الله وشكره على إرسال هذا النبي الكريم ليخرجنا الله به من الظلمات إلى النور.

٢- الحذر كل الحذر من كفران هذه النعمة بمعصية الرسول المرسل إلينا لأن العاصي مآله كمآل فرعون ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣].

وتأمل كيف جمع الله بين المشركين وفرعون وفي ذلك إشارة إلى ما بين هؤلاء المشركين وبين فرعون من المشابهة في العناد والجهل والضلال والاستعلاء عن سماع كلمة الحق والنفور منها.

فمن اتصف بهذه الصفات فله نصيب من عقوبتهم.

(الثانية): أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

....

ثم حذر المؤلف من طريق وعر المسالك يؤدي إلى المهالك يسلكه بعض الناس يظنون أنه يوصل إلى النجاة فإذا به طريق العطب، يوصلهم إلى النار وبئس المصير. إنه طريق مناقض للطريق الأول تمامًا. فإنه لا يجتمع الشرك الأكبر والتوحيد في قلب عبد أبدًا.

حذَّر منه المؤلف بعبارة تدل على اللطف والمحبة والشفقة، فقال «**إنَّ اللهَ لا يَرْضَى أنْ يُشْرَكَ مَعَهُ**»، ولعله اقتبسها من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر:٧] «لا يرضى لعبادة الكفر لكمال إحسانه بهم وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها»[(١)] فالرضى يشعر بالإذن مع محبة الفعل. أما عدم الرضى فيشعر بالمنع مع كراهية الفعل والسخط على فاعله. ولهذا كان الرضى يقابله الكراهة، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شيئًا وَأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرّقوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قيلَ وقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤالِ وَإِضَاعَةَ المَالِ**»[(٢)].

ويقابله السخط: «وهو نقيض الرضا»[(٣)] قال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[آل عمران:١٦٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٦٦).

(٢) مسلم (٣/ ١٣٤٠) كتاب «الأقضية»/ باب النهي عن كثرة المسائل. رقم (١٧١٥).

(٣) «تهذيب اللغة» (٧/ ١٥٩).

فمن اتبع رضوان الله فاز بجنات النعيم، ومن باء بسخط الله فعقوبته جهنم.

ولماذا لا يرضى الله شركًا به؟

لا يرضى الله شركًا به لثلاثة أمور، هي:

١- لكمال إحسانه بعباده، ولمحبته سعادتهم.

٢- علمه أن الشرك يشقي أهله شقاوة لا يسعدون بعدها أبدًا.

٣- لأنه أعظم الظلم، فهو مَسَبَّةٌ لله إذ هو تسوية للناقص بالكامل، وصرف خالص حق الله لغيره، قال تعالى مبينًا اعتراف المشركين وندمهم على فعلتهم الشنيعة إذا ألقوا في النار ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]. فهم لم يسووهم به في الربوبية؛ لأنهم قالوا: (رب العالمين)، وإنما سووهم به في الألوهية والعبادة.

فإذا ما عرف المسلم عدم رضى الله تعالى بالشرك معرفة قلب أثمر له **ذلك أمرين:**

١- أنه لا يرضاه لنفسه.

٢- لا يرضاه لغيره.

وذلك لأن المسلم يجب أن يكون هواه موافقًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيغضب لغضب الله ويرضى لرضاه، فيزيل الشرك أنى وجده بأسرع وقت ممكن.

وقد كان وجود الشرك مؤرِّقًا للرسل عليهم السلام، ومُقِضًّا لمضاجعهم، فلا يهنأ لهم عيش، ولا يهدأ لهم بال، حتى يزال من الأرض، ومن ذلك: صنع السامري لقوم موسى عليه السلام عجلًا له خوار ثم دعاهم إلى عبادته فأطاعوه، وذلك حين ذهب موسى إلى ربه فأخبره ربه بما فعل السامري مع قومه فرجع إليهم غضبان أسفًا ممتلئًا غيظًا وحنقًا، وغمًا وحزنًا وكمدًا، ومن شدة غضبه ألقى الألواح مع ما فيها من الهدى، ووبخ قومه على فعلتهم القبيحة وعاتب أخاه وشدَّد عليه وأخذ برأسه ولحيته يجره إليه، وعاقب السامري عقوبة دنيوية لم يعاقب أحد مثلها بأن لا يخالط أحدًا ولا يخالطه أحد طوال حياته، ونهى موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ بني إسرائيل أن يخالطوه ويقربوه فصار يهيم في البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد [١]. ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[طه:٩٧].

وتوعده بعقوبة أخروية وهي العقوبة الشديدة يوم يلقى الله ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾[طه:٩٧] فيجازيك الله بما تستحق من العقوبة على فعلك القبيح الذي هو إفساد الناس بنقلهم من التوحيد إلى الشرك.

ثم أخرج الآلهة المزعومة من قلوب بني إسرائيل بإحراقها ونبذها في اليم، وهم ينظرون. قال تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾[طه: ٩٧]، ولو كانت آلهة على الحقيقة؛ لدفعت عن نفسها، ثم أدخل في قلوبهم الإله الحق الذي لا يجوز أن يعبد ويوحد إلا هو: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾[طه:٩٨][٢].

وكذلك نبينا ﷺ لم يرض بقاء الأصنام، بل كان يصيبه الهم والغم وضيق الصدر والتألم التام عندما يرى مظاهر الشرك. فيزيلها أو يأمر بإزالتها ومن ذلك ما روى جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قال لي النبي ﷺ «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**». فقلت: بلى. فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: «**اللهمَّ ثبته واجعله هاديًا مهديًّا**». قال: فما وقعتُ عن فرس بعد. قال وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له الكعبة قال فأتاها فحرقها بالنار وكسرها...، ثم بعث جرير رجلًا من أَحْمس يكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك. فلما أتى النبي ﷺ

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٠). الزاني يغرب عامًا كاملًا، وما أشده عليه، فكيف بمن يغرب طول حياته.

(٢) سورة طه من آية (٨٥-٩٨).

قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب. قال فبرَّك النبي ﷺ على خيل أَحْمس ورجالها خمس مرات»(١).

قوله: (ألا تريحني): طلب يتضمن الأمر والمراد بالراحة راحة القلب وما كان شيء أتعب لقلب النبي ﷺ من بقاء ما يشرك به من دون الله تعالى(٢).

ومما يدل على شدة ارتياحه وفرحه ﷺ بإزالة ذلك الصنم مبالغته في الدعاء لأحمس بالبركة خمس مرات مع أنه ما كان يزيد على ثلاث في الدعاء صلوات ربي وسلامه عليه.

أن يشرك: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر أي شركًا، فيشمل جميع أنواع الشرك صغيره وكبيره.

والشرك لغة: المشاركة بين اثنين فأكثر في أمرٍ ما.

اصطلاحًا: مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وقيل: صرف شيء مما يختص الله به لغيره.

ولما كان الله لا يرضى الشرك حذر منه أيما تحذير، وحذر منه رسوله ﷺ بأساليب متنوعة منها:

١- **النهي المباشر عنه**: النهي المباشر يهز الأفئدة ويزجرها عن الوقوع في المنهي عنه قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[الحج:٣٠]، أي: فاجتنبوا الأوثان كلها فإنها رجس(٣).

٢- **بيان عدم مغفرته**: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٧٠) كتاب «المغازي»/ باب غزوة ذي الخلصة. رقم (٤٣٥٧).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٧٢).

(٣) «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٥٢).

الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين ووحدانيته، فكفى المشرك تنغيصًا وتكديرًا لحياته، شعوره بأنه لا يغفر الله له.

قال شيخنا العثيمين: الشرك الأصغر لا يغفر لأنه يفسد القلب والقصد فإذا فسد القصد فسد العمل، والعمل مبناه على القصد[1].

٣- فتنة أهله به: قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة:٩٣]. قال قتادة: «أُشربوا حُبَّه حتى خَلَصَ ذلك إلى قلوبهم»[2].

قال الراغب: «قال أهل النحو: أريد حب العجل، فحذف المضاف تحقيقًا، ويجب أن يعلم أنه لو قيل: حب العجل لم يكن من المبالغة ما له بحذفه؛ لأن فيه تنبيهًا أنه لفرط شغفهم به ثبتت صورة العجل في قلوبهم راسخة»[3].

«وعبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها»[4].

ومعناه: أنه داخلهم حب العجل، حتى خالط قلوبهم ودمهم وعروقهم.

قال ابن القيم: «لو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حُبًّا لها وتعظيمًا ويوصي بعضهم بعضًا بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل

(١) «القول المفيد» (١/ ٤٤٨).
(٢) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٨٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٧٦).
(٣) «تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٢٦٣).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣٢).

العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها»[1].

٤- **عظيم افتراء المشرك:** قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨] أي افترى جرمًا وذنبًا عظيمًا إثمه.

٥- **بيان عاقبة المشرك:** وذلك بتحريم الجنة عليه وإذا حرمت الجنة عليه صار مآله جهنم والعياذ بالله فيبحث عن أحد ينصره ويعينه لإخراجه من النار فلا يجد فيزداد ألمًا وحسرة قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

حرم الله عليه الجنة لأنه صرف خالص حق الله وهو العبادة لغيره، فاستحق الخلود في النار لأنه خبيث والنار دار الخبيثين يطلبون الخروج منها فلا يجابون ويطلبون التخفيف فلا يجابون ويطلبون الموت فلا يجابون. فهل من حسرة وندامة أشد من حسرتهم وندامتهم؟.

٦- **حبوط عمل المشرك:**

بعد أن ذكر الله عددًا من رسله مادحًا إياهم وآمرًا نبيه محمدًا ﷺ بالاقتداء بهم والسير على هداهم بين أنهم لو وقع منهم الشرك لحبطت أعمالهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨].

قال شيخ الإسلام: «والأنبياء معصومون من الشرك، ولكن المقصود بيان أنَّ الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله، فكيف بغيره، وكذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. مع أن الشرك منه ممتنع، لكن بيّن بذلك أنه إذا قُدِّرَ وجوده كان مستلزمًا لحبوط

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٥).

عمل المشرك وخسرانه كائنًا من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذاالذنب لا لغض قدر المخاطب»[١].

وقال ابن القيم: «وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة»[٢].

٧- التحذير منه بطريق الموعظة والنصيحة وبيان أنه أعظم الظلم.

قال تعالى عن لقمان: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان:١٣].

«ووجه كونه ظلمًا عظيمًا أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمالك الأمر كله. وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه وسوّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرَّة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه ولا يصرف السوء إلا هو. فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله تعالى لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب»[٣].

٨- توعد المشركين بالويل: قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[فصلت:٦-٧]. «قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقيل المعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص...

---

(١) «الرد على البكري» (٢٤٠).

(٢) «هداية الحيارى» (٣٠٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ١٥٥).

والتحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة»[١].

٩- التحذير من الشرك بضرب المثل الحسي:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١].

شبه الله تارك التوحيد الواقع في حمأة الشرك بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين حيث الضيق والشدة والآلام المتراكمة فتخطفه الطير بسرعة لا يستطيع التخلص منها فتمزقه وتقطع أعضاءه فلا يصل إلى الأرض منه شيء أو تحمله الريح إلى مكان بعيد فلا تبقي له على أثر ولا يوجد منه شيء فيراه الناس.

وكذلك الشرك إذا دخل القلب أطفأ نور التوحيد بل أخرجه من القلب فلم يبق للتوحيد أثر في القلب، وصار القلب مظلمًا بظلمات الشرك تتجاذبه الأهواء فاحذر من الشرك كبيره وصغيره فإنه يميت القلب ويحبط العمل إن كان أكبر، ويحبط ما قارنه إن كان أصغر.

١٠- خوف الرسل من الشرك:

لما كان الشرك أعظم الذنوب وأخطرها على القلوب خافه المؤمنون الخُلَّص على أنفسهم قبل غيرهم فها هو الخليل إبراهيم عليه السلام الإمام القدوة يبتهل إلى ربه أن يعافيه وذريته منه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٥-٣٦].

فإذا كان أبو الحنفاء إبراهيم عليه السلام مع علو مرتبته عند الله، ومع دعوته للتوحيد وتحطيمه للأصنام بيده خاف من عبادتها بل بالغ في الحذر منها فقال: واجنبني، ولم يقل:

(١) «تزكية النفس» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٩-٥٠).

احفظني أو عافني، ونحو ذلك؛ لأن اجنبني بمعنى اجعلني في جانب والشرك وأهله في جانب وهذه غاية المباعدة. فإذا كان هذا حَذَرُ إبراهيم عليه السلام وخوفه من الشرك فغيره ممن هو دونه من باب أولى أن يخاف. قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم»(١) فلنحذر من الشرك بالابتعاد عنه قدر الطاقة، ولنكثر من هذا الدعاء: «**اللهمَّ إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»(٢).

١١- بيان أن الشرك هو أعظم الذنوب:

إذا كان الشرك هو الذنب الذي لا يغفر دل ذلك على أنه أعظم الذنوب. قال عبدالله بن مسعود: «سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، قلت: إن ذلك لعظيم. قلت ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك تخافُ أن يطعم معك**». قلت: ثم أي قال: «**أن تزاني حليلة جارك**». وفي لفظ: «**أي الذنب أكبر**»(٣).

١٢- خفاء الشرك على الناس:

علينا أن نحذر أن نقع في أعظم الذنوب ربما ونحن لا نشعر. قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»(٤).

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٢٢٨).

(٢) «الأدب المفرد» للبخاري (٢٤٧)/ باب فضل الدعاء. رقم (٧١٦)، وصححه الألباني في تحقيقه له.

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ١٦٣)، كتاب «التفسير»/ باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. رقم (٤٤٧٧)، ومسلم (١/ ٩٠)، كتاب «الإيمان»/ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده. رقم (٨٦).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٦٢) رقم (٢٢٩). وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده جيد». «تيسير العزيز الحميد» (٥٨٧).

«أي أن هذه الأمور من الشرك خفية في الناس لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل، فإنه خفي فكيف إذا كانت على صفاة فكيف إذا كانت سوداء فكيف إذا كانت في ظلمة الليل. وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام وعسر التخلص منه ولهذا جاء في حديث أبي موسى قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**أيُّها النّاس اتقُوا هذا الشِّرك؛ فإنَّه أخفى من دبيب النّمل**»، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**»[1][2].

وفي رواية للبخاري قال معقل بن يسار: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «**يا أبا بكر للشّرك فيكم أخفى من دبيب النّمل**»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: «**والّذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النّمل، ألا أدلك على شيءٍ إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[3].

١٣- لعن الفاعلين له:

لعن النبي ﷺ وهو في أصعب المواقف. عند الموت وشدة النزع من اتخذ القبور مساجد؛ ليحذر أمته أن تفعل فعلهم كما في الحديث عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

---

(١) أحمد (٤/ ٤٠٣).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٨٧-٥٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

ففهما رضي الله عنهما أنه قاله محذرًا لأمته فقالا: «يحذر ما صنعوا»، وفي لفظ لمسلم عن عائشة رضي الله عنها: «فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»(١).

١٤- معاملة المشرك بنقيض قصده:

المشرك أشرك مع الله غيره طمعًا في الأمن في الدنيا والنجاة في الآخرة فعامله الله بنقيض قصده فأصابه بالرعب في الدنيا وجعل عاقبته النار في الآخرة، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران:١٥١]. والمثوى مكان الثُّويّ والثواء الإقامة على الدوام(٢).

فانظر كيف قذف الله الرعب في قلوبهم بسبب شركهم بالله وطلبهم النصر والنجدة من غيره، ثم جعل مستقرهم النار وبئس المستقر، فذكر الله مثواهم بعد مأواهم للدلالة على خلودهم فيها.

١٥- نجاسة المشرك:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[التوبة:٢٨].

«أنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يُلْمَسُ ولا يُشَمُّ ولا يُرى، فضلًا أن

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٠٠)، كتاب «الجنائز»/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور. رقم (١٣٣٠)، و(٦/ ٤٩٤)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٣، ٣٤٥٤)، ومسلم (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، كتاب «المساجد»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور. رقم (٥٢٩، ٥٣١).

(٢) «العذب النمير» (٢/ ٢٤٥).

يخالط ويلابس لقذارته ونفرة الطباع السليمة عنه... والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة وتارة تكون معنوية باطنة فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها»(١).

١٦- حسرة المشرك يوم القيامة وبعده:

وضّح الله تعالى حسرة المشركين وشدة ندمهم حيث لا ينفعهم ندمهم، فقال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٩١-١٠١]، وحسرتهم حين يتبرأ المتبوعون من التابعين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:١٦٥-١٦٧].

فالمشرك يتحسر ويندم ولكن لات حين مندم.

١٧- أن الرسل كلهم بعثوا بالتحذير منه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:٣٦].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٥٩-٦٠).

١٨ - استنكار الطيور للشرك:

إذا كانت الطيور التي لم تكلف ولا تعقل تستنكر الشرك فكيف بك أيها الإنسان العاقل المكلف يجب أن يكون استنكارك أعظم قال تعالى في قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٤-٢٦].

«حَذَفَ الله أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشياطين لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم»[١].

١٩ - حرمان المشرك من الاستغفار له إذا مات:

حقت كلمة العذاب على المشركين، ووجب عليهم الخلود في النار فلا ينفعهم استغفار مستغفر، بل لا يجوز أن يستغفر لهم أحد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ ثم ذكر علة النهي عن الاستغفار، فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] فعلة النهي هي كونهم من أهل الخلود في النار لكونهم ماتوا على الشرك فلا ينفعهم الاستغفار «فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده»[٢].

٢٠ - إثبات وقوعه في هذه الأمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى تضطرب إليات**

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ٢٤٢).

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٤١٠).

نساء دوس على ذي الخَلَصة»[١].

وكما في حديث ثوبان الطويل وفيه: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتَّى تعبد قبائل من أمتي الأوثان...**»[٢].

فإذا كان وقوعه في هذه الأمة حتماً وبهذه الكثرة أوجب لنا ذلك الفزع والخوف من الوقوع فيه مع من وقع، وأوجب علينا تعلم التوحيد ومعرفة ما يضاده من الشرك مع البعد عنه أشد البعد.

٢١- ذم المشرك وخذلانه:

قال تعالى ذامًا المشركين الذين عبدوا معه غيره: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢]، أي مذمومًا لا حامد لك، ومخذولًا لا ناصر لك[٣].

٢٢- ضلال المشرك وظلمه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾[الأحقاف:٥]، «من: استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالًا وأعجب حالًا ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهو أقصى حد من الضلالة»[٤].

---

(١) البخاري (١٣/ ٧٦) كتاب «الفتن»/ باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان. رقم (٧١١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٠)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة. رقم (٢٩٠٦).

(٢) أبو داود (٤/ ٤٥١) كتاب «الفتن»/ باب ذكر الفتن ودلائلها. رقم (٤٢٥٢) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤) كتاب «الفتن»/ باب ما يكون في الفتن (٣٩٥٢)، والترمذي (٤/ ٤٩٩)، كتاب «الفتن»/ باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون. رقم (٢٢١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٨).

(٤) «التحرير والتنوير» (٢٦/ ١١).

فالمشرك هو أضل الناس، فهل يرضى عاقل أن يوصف بهذا الوصف، لا سيّما وأن المدعوين عباد مربوبون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[الأعراف:١٩٤]. قال الشنقيطي: «فهذه الآيات تبين سخافة عقول المشركين حيث عبدوا من هو دونهم وهم أكمل منه»[١]، وهل هناك أسخف عقلًا ممن يعيش حياته طالبًا ممن لا يقدر على نفعه أو ضره.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦] والمشرك هو أظلم الناس وذلك لتعديه على حق الله بصرفه لغيره. وهذا التعدي أعظم الظلم وأقبحه.

٢٣- اغتنام الفرص للتحذير من الشرك:

ذكر النبي ﷺ الدجال ذات يوم فخفض فيه ورفع حتى ظنه الصحابة في طائفة النخل وخافوا منه أشد الخوف حتى عرف ذلك النبي ﷺ في وجوههم فلما رآهم على تلك الحال خَوَّفهم مما هو أخطر وهو الشرك فعن أبي سعيد الخدري قال كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فيكثر المحتسبون وأهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال: «**ما هذه النَّجوى، ألم أنهكم عن النَّجوى**» قال: قلنا نتوب إلى الله يا نبيَّ الله إنما كنا في ذكر المسيح فرقًا منه، فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟**». قال: قلنا: بلى، قال: «**الشرك الخفي أن يقوم الرَّجل يعمل لمكان رجل**»[٢]. وفي رواية لابن ماجه: «**أن يقوم الرَّجل يصلي فيزيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل**»[٣].

(١) «العذب النمير» (٤/ ٤٢٤).

(٢) أحمد (٣/ ٣٠).

(٣) ابن ماجه (٢/ ١٤٠٦)، كتاب «الزهد»/ باب الرياء والسمعة. رقم (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤١٠).

٢٤- إبطال الأشياء التي يتعلق بها المشرك:

يتعلق المشركون بالملك والشراكة والإعانة والشفاعة فأبطلها الله بقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٢-٢٣].

«هدَّد سبحانه من دعا شيئًا من دون الله وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركًا في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة. ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق لكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣]... وهذا كله يبين أن الأمر كله لله[(١)]».

وقال ابن القيم: «فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا منتقلًا من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد. وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها»[(٢)].

٢٥- سد ذرائع الشرك القولية والفعلية والمكانية:

نظرًا لخطورة الشرك اهتم النبي ﷺ بسد الذرائع الموصلة إليه، سواء كانت قولية، أو فعلية، أو مكانية.

ومن القولية قول النبي ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدكم أطعم ربَّك وَضِّىءْ ربك، وليقل سيِّدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ١٧٧) كتاب «العتق»/ باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي أو أمتي. =

نهى النبي ﷺ عن هذه الألفاظ لما فيها من التشريك في اللفظ لأن الله هو رب العباد جميعهم فإذا أطلق على غيره شاركه في هذا الاسم فينهى عنه لذلك وإن لم يقصد التشريك في الربوبية التي هي وصف لله تعالى[١]، كل هذا تحقيقًا للتوحيد وسدًّا لذرائع الشرك.

ومن الفعلية النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها فعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله يقول: «**لا صلاة بعد الصُّبح حتَّى ترتفع الشَّمس، ولا صلاة بعد العصر حتَّى تغيب الشمسُ**»[٢].

قال ابن القيم: «وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعُبَّادِ الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس»[٣].

ومن المكانية فعل عمر رضي الله عنه لما قطع الشجرة كما يروي ذلك نافع فيقول: «كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت[٤].

= رقم (٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٤-١٧٦٥) كتاب «الألفاظ من الآداب»/ باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد. رقم (٢٢٤٩).

(١) انظر: «فتح المجيد» (٢/ ٧٥٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٦١) كتاب «مواقيت الصلاة»/ باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس. رقم (٥٨٦).

(٣) «الجواب الكافي» (١٥٧).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٠٠)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥)، وقال ابن حجر: «رواه ابن سعد بإسناد صحيح». «فتح الباري» (٧/ ٤٤٨).

وكما روى المعرور بن سويد قال: كنت مع عمر بن الخطاب بين مكة والمدينة، فصلى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾[الفيل:١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[قريش:١]، ثم رأى أقوامًا ينزلون فيصلون في مسجد فسأل عنهم، فقالوا: مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا. من مرَّ بشيء من المساجد فحضرت الصلاة، فلْيُصَلِّ، وإلا فَلْيَمْضِ»[1].

٢٦- حرمان المشرك من الشفاعة:

تنتظم الشفاعة نصف أمة محمد ﷺ، بل تزيد كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إنَّه أتاني اللَّيلة من ربِّي آتٍ فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمَّتي الجنَّة، وبين الشَّفاعة، وإنِّي اخترت الشّفاعة**»، قالوا: يا رسول الله ننشدك الله والصحبة لما جعلتنا من أهل شفاعتك. قال: فلما أَضَبُّوا عليه قال «**فأنا أشهدكم أنَّ شفاعتي لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمتي**»[2]. وفي لفظ: «**أتدرون ما خيّرني ربي الليلة**»، فقلنا: الله ورسوله أعلم، **قال: فإنه خيّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فقلنا: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها. قال: هي لكل مسلم**»[3].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعجل كلُّ نبيٍّ دعوته، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمّتي يوم القيامة، فهي نائلة إنْ شاء الله من مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئًا**»[4].

---

(١) «المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ١١٨-١١٩) رقم (٢٧٣٤) وصحح إسناده شيخ الإسلام. «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨١).

(٢) أحمد (٦/ ٢٩)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٤٨٦-٤٨٧) رقم (١١٨٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٣٨٨)، والترمذي (٤/ ٦٢٧-٦٢٨)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٤١).

(٣) «الإيمان» لابن منده (٣/ ٨٥٢-٨٥٣)، وقال ابن منده: «وهو ثابت على رسم مسلم».

(٤) مسلم (١/ ١٨٩)، كتاب «الإيمان»/ باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته. رقم (١٩٩).

فهذه الشفاعة التي يرنو إليها كل مسلم قد قُيِّدَتْ بعدم الشرك. فمن أشرك لم يدخل في شفاعة المصطفى ﷺ. فياويح من حرم الشفاعة بسبب شركه بالله عز وجل.

وأختم بهذين الأثرين عن السلف حول الخوف من الشرك.

١- قال عمر رضي الله عنه في دعائه: «اللهم اجعل عملي صالحًا واجعله لك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[١].

٢- وقال شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه -له صحبة-: «يا بقايا العرب يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»[٢].

(معه أحدٌ في عبادته):

مع: المعية تفيد المشاركة، والضمير في قوله «معه»: يعود على الله عز وجل.

أحد: نكرة في سياق النفي، فتكون عامة، وتفيد النهي عن جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.

في عبادته: أضاف العبادة إلى الله لأنه هو الذي يجب أن يقصد بها وحده فلا تصح إلا له سبحانه، وذلك لأن «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة. فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]»[٣].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٣).

(٣) «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب»/ قسم العقيدة (١/ ١٩٩-٢٠٠).

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[١].

وقيل: هي ما جمعت غاية الذل مع غاية المحبة.

(لا مَلَكٌ مُقَرّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ):

وأكد النهي عن الشرك بالله بنفي عبادة أعظم الخلق منزلة عند الله تعالى فقال: لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. لأنك إذا نفيت عبادة الأعلى نفيت الأدنى من باب أولى.

أما دليل قرب الملائكة فهو قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:١٧٢].

فوصف الملائكة بالقرب: أي أنهم قربت درجاتهم وأعليت مكانتهم عند الله فهم قد جمعوا بين القربين:

١- قرب المكان: فهم في السماء ولذا قال البغوي: المقربون: أي حملة العرش[٢].

٢- قرب الحال: أي أن الله قد أحبهم ورضي عنهم وأكرمهم لاستقامتهم على طاعته وعدم معصيتهم له فقال تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٧].

النبي: هو رجل ذكر أوحي إليه بشرع من قبله وأمر بالتبليغ، وأرسل إلى قوم مؤمنين.

أما أنه بشرع من قبله فلقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾[المائدة:٤٤].

---

(١) «العبودية» (٣٨).

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٥٠٣).

وأما أنه أمر بالتبليغ فلقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢].

فأثبت الله الإرسال للنبي كما هو للرسول، فدلّ على أن النبي مأمور بالتبليغ.

وقوله ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: **«عرضت عليَّ الأمم فجعل يمرُّ النَّبي معه الرجل، والنَّبي معه الرّجلان، والنَّبيُّ معه الرهط، والنَّبيُّ ليس معه أحد»**(١).

فمجيء الرجل والرجلان والرهط مع الأنبياء دليل على أنهم يبلغونهم ويدعونهم.

وأيضًا قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بعدي...»**(٢).

(تسوسهم الأنبياء) أي أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبيًا يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة(٣).

أما الرسول: فهو رجل ذكر بشر أوحي إليه بشرع جديد وأمر بالتبليغ، وأرسل إلى قوم كافرين.

وقول المصنف ولا نبي مرسل: أي وإن كان رسولًا نبيًا قد جمع بين المرتبتين فصار أعلى مراتب البشرية، وأعلى وأفضل من جمع بين النبوة والرسالة هو نبينا محمد ﷺ ومع ذلك لا يجوز أن يعبد مع الله تبارك وتعالى.

---

(١) البخاري (١٠/ ٢١١) كتاب «الطب»/ باب من لم يرق. رقم (٥٧٥٢)، ومسلم (١/ ١٩٩) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. رقم (٢٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٥) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٥)، ومسلم (٤/ ١٤٧١-١٤٧٢)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم (١٨٤٢).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٧).

وذكر هذين النوعين لأمرين:

١- لأن المشركين لا يشركون إلا بمن يعظمونهم ويرون أن لهم مكانة، وجاهًا عند الله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

٢- إذا كان لا يرضى الله أن يشرك معه هذين الصنفين وهم أعلى الملائكة وأعلى البشر فغيرهم ممن هو دونهم من باب أولى ألا يرضى أن يشركوا معه.

ففي هذا حسم لمادة الشرك.

ولما كان سبب الشرك هو الخلط بين حقِّ الله وحق غيره وجب التنبيه عليها ومعرفتها لئلا نقع في الشرك، والقاعدة في ذلك:

«خلط الحقوق شرك وتنديد، كما أن التفريق بينها إيمان وتوحيد».

وتتضح هذه القاعدة بمعرفة أنواع الحقوق الثلاثة:

الأول: حق خالصٌ لله، وهو العبادة.

وضابطه: ما كان من توابع الألوهية[١]

ولما كانت العبادة خالص حقه سبحانه أمر الناس بتخصيصه بها وحده دون غيره ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[هود:٢].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود:٢٥-٢٦].

وقوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]. وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٦).

فجمع في الأمر بعبادته بين النفي والإثبات الذي هو أبلغ صيغ الحصر ليدل دلالة واضحة على أن العبادة حق له وَحْدَهُ فمن صرفها لغيره فقد أشرك.

وكان النبي ﷺ يركز على بيان هذه الحقيقة وتجليتها ومن ذلك سؤاله المشهور لمعاذ بن جبل حين كان رديفه على الحمار فقال له: «**يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟**»، قال معاذ: الله ورسوله أعلم. فجلَّى له الحقيقة قائلًا: «**حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...**»[(١)].

ويزيد عيسى عليه الصلاة والسلام الأمر وضوحًا حين يجيب سؤال ربه إذْ سأله أأنت قلت للناس اعبدوني وأمي بقوله: هذا ليس حقًّا لي فاطلبه منهم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة:١١٦-١١٧].

ولما خشي الرسول ﷺ أن تغلو به أمته فتصرف له حق الله تعالى حذرهم ونهاهم بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النّصارى ابن مريم، فإنّما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(٢)].

الثاني: حق الرسول ﷺ:

وضابطه: ما كان من أمور الرسالة[(٣)].

للرسول ﷺ حق خالص لا يشركه فيه غيره وهو الاتباع وذلك أنه لا يصح إيمان

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾[مريم:١٦]. رقم (٣٤٤٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٦).

عبد إلا باتباعه للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[آل عمران:٣١].

فمن لم يتبع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله لم يصح منه زعمه محبة الله وعبادته.

وأكد النبي ﷺ تخصيصه بالاتباع بقوله: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**»(١). قال ابن القيم في كلامه عن الهجرة القلبية «وهجرةٌ إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفضيل محاب الله ومرضاته»(٢).

وكذلك من حقوقه ﷺ التعزير والتوقير ويدل له قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[الفتح:٩].

الثالث: حق مشترك:

وضابطه: ما ورد في النصوص ذكره حقًّا لله ولغيره «ما ورد تشريكه في الشرع»، ومن ذلك: الإيمان بالله وبرسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[الحديد:٧].

وتصديق قول الله وقول رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب:٢٢].

ومنها الطاعة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

ومنها المحبة كما في قوله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجد بِهِنَّ حَلاَوَة الإِيمانِ أنْ يَكُونَ الله وَرَسُولهُ أَحَبّ إليهِ مِمّا سِوَاهُمَا. وأَنْ يُحِبَّ المَرْء لاَ يُحِبه إلاَّ لله**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «طريق الهجرتين» (٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٦٠)، كتاب «الإيمان»/ باب حلاوة الإيمان. رقم (١٦)، ومسلم (١/ ٦٦)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان. رقم (٤٣).

وقَيْدُه: أن يكون لله أصلًا ولغيره تبعًا.

وثمرة هذا القيد: أن يكون الفعل عبادة لله وحده، ونوضحه بالمثال:

١- **الطاعة**: نحن نطيع الله لذاته، ونطيع رسول الله ﷺ لأجل الله أي: لأجل أن الله أمرنا بذلك، فنحن نتعبد لله حينما نطيع الرسول ﷺ، ونطيع وليّ الأمر؛ لأن الله أمرنا بذلك، فنحن نتعبد لله بطاعته.

يوضحه: أننا لو أمرنا وليّ الأمر بمعصية الله: لم نطعه.

٢- **المحبة**: نحن نحب الله لذاته، ونحب رسول الله ﷺ لأجل الله، فنحن نتعبد لله حينما نحب رسول الله ﷺ، ونحب المؤمنين لأجل الله -لأن الله أمرنا بمحبتهم-.

يوضحه: أنه لو ارتد رجل كان مسلمًا لأبغضناه وعاديناه.

والقاعدة في ذلك: «**لا يحب ولا يطاع لذاته إلا الموجود بذاته**»[(١)].

وذلك أن الموجود بذاته هو الله وحده فيحب لذاته ويطاع لذاته، أما غيره من مخلوقاته فكلها موجودة بغيرها. أي أن جميع المخلوقات أوجدها الله ولم توجد أنفسها، فتحب لأجل موجدها وتطاع لأجل موجدها. فالرسول ﷺ أوجده الله فهو يحب ويطاع ويتبع ويعزر ويوقر كل ذلك لأجل الله، فتكون هذه الأفعال عبادة لله، وكذلك المسلم أوجده الله فهو يحب لأجل الله، فتكون محبة المسلم عبادة لله.

وقد جمع الله هذه الحقوق الثلاثة بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفتح:٩].

فبدأ بالحق المشترك وهو الإيمان بالله ورسوله ثم ثنّى بحق الرسول ﷺ وهو التعزير والتوقير ثم ثلّث بحقه الخاص وهو التسبيح له بالغداة والعشي.

---

(١) ومثلها بقية الحقوق المشتركة، كالولاء والطاعة وغيرها.

وقد نظمت في هذه الأبيات:

ثلاثـةٌ يـا مـسلمٌ أعنـي الحقوقـا فكـن لحفظهـا وفهمهـا سبـوقا
فحـق ربنـا هـو العبـاده فأخلـصنْ لـه تنـل سعـاده
والثـان حـق المـصطفى المختـار تِبـاعُ هديـه عـلى اصـطبار
وثالـث الحقـوق حـق مـشترك كطاعـة لربنـا نبيـه ومـن ملـك
لكـن أصلـه لربنـا الرحمـن وغـيره فتـابع فـاحفظ بيـاني

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: ١٨].

....

أن: للتوكيد.

الـ: للاستغراق فتفيد العموم.

مساجد: جمع مسجِدْ بكسر الجيم أي المواضع التي بنيت للسجود أو الأرض التي يسجد عليها قال الحسن: البقاع كلها؛ لأن الأرض جعلت كلها مسجدًا للنبي ﷺ(١)، كما ورد في الحديث: «**أعطيت خمسًا لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي.. ومنها: وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصلِّ**»(٢).

أو جمع مسْجَد بفتح الجيم فتكون مصدراً بمعنى السجود فيكون معناها «الصلوات» وبه قال الحسن أيضًا.

أو الأعضاء التي يسجد العبد عليها. قال سعيد بن جبير المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان(٣)، فعلى هذا يكون معنى المساجد مواضع السجود من الجسد.

ولا منافاة بين المعنيين، فالسجود على الأعضاء وهي على الأرض.

---

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٤٣٥-٤٣٦)، كتاب «التيمم». رقم (٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة». رقم (٥٢١).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٤)، وهي التي بينها النبي ﷺ بقوله: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين، والرُّكبتين، وأطراف القدمين**». البخاري مع الفتح (٢/ ٢٩٧) كتاب «الأذان»/ باب السجود على الأنف. رقم (٨١٢)، ومسلم (١/ ٣٥٤)، كتاب «الصلاة»/ باب أعضاء السجود. رقم (٤٩٠).

لله: أضيفت إلى الله باللام الدالة على التمليك فما دامت ملكًا لله وهو الذي خلقها فلا يجوز أن تصرف العبادة لغيره بها، ولهذا قال:

فلا تدعوا مع الله أحدًا.

الفاء: فاء التفريع والسبب.

لا: ناهية تفيد المنع والتحريم.

تدعوا: الدعاء يأتي بمعنى الطلب فهو طلب الطالب للفعل من غيره[١]، وقال الشوكاني: معنى الدعاء حقيقة وشرعًا هو الطلب[٢].

ويأتي بمعنى العبادة قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[٣].

أي: فلا تعبدوا مع الله غيره كائنًا من كان ولكن التعبير بـ«تدعوا» أبلغ من «تعبدوا» لأن لفظ تدعوا تشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة[٤].

مع الله: مع: تفيد المشاركة أي: فلا تجعلوا شريكًا مع الله في عبادته.

أحدًا: نكرة في سياق النهي فتفيد العموم أي أنه لا يجوز دعاء غير الله مهما بلغ في المنزلة والرتبة.

(١) «المخصص» لابن سيده (١٣/ ٨٨).

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٤٩٨).

(٣) أحمد (٤/ ٢٧٦)، والترمذي (٥/ ٣٧٤)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة المؤمن. رقم (٣٢٤٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وحسنه النووي في «الأذكار» (٣٤٥)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (١/ ٤٩).

(٤) سيأتي له مزيد بيان وإيضاح فيما بعد.

والآية نهت عن الشرك ودلت على عدم الرضى به **وأكدت ذلك بما يلي:**

١ - حرف «أن».

٢ - ذكر المساجد بالألف واللام للاستغراق المفيد للعموم.

٣- تخصيصها لله ملكًا وخلقًا.

٤ - النهي عن دعاء غير الله تعالى معه.

٥ - ذكر كلمة أحد بعد النهي فتفيد عموم المخلوقات.

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب:

في هذه الآية عشر درجات، منها:

١ - تصديق القلب أن دعوة غير الله باطلة.

٢ - أنها منكر يجب فيها البغض.

٣- أنها من الكبائر والعظائم المستحقة للمقت والمفارقة.

٤ - أن هذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره.

٥ - أن المسلم إذا اعتقده أو دان به كفر.

٦ - أن المسلم الصادق إذا تكلم به هازلًا أو خائفًا أو طامعًا كفر بذلك.

٧- أنك تعمل معه عملك مع الكفار من عداوة الأب والابن وغير ذلك.

٨- أن الداعي لغير الله لا تقبل منه الجزية كما تقبل من اليهود ولا تنكح نساؤهم كما تنكح نساء اليهود لأنه أغلظ كفرًا(١).

---

(١) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب»/ العقيدة/ القسم الأول (٣٨٨).

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

....

أن: للتوكيد.

من: شرطية فتفيد العموم، أي: كل مطيع للرسول ﷺ وموحد لله.

أطاع الرسول: الطاعة هي تنفيذ الأوامر فعلًا أو تركًا منقادًا راضية بذلك نفسه.

الرسول: هو نبينا محمد ﷺ والألف واللام للعهد الذهني وكلمة من أطاع الرسول تبين حق الرسول ﷺ وهو الطاعة والاتباع وأنه ليس له من الألوهية والعبادة شيء، ولذلك قال بعدها:

ووحد الله: الواو عاطفة أي: أنه جمع بين طاعة الرسول ﷺ وتوحيد الله وهذا معنى الشهادتين فلابد من الجمع بينهما حتى يصير العبد مسلمًا.

وحد الله: أي جعله واحدًا فأفرده بالعبادة والتأله والتعظيم.

وذلك لأن له الكمال المطلق والغنى المطلق والتصرف المطلق من جميع الوجوه فلهذا لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه -وهذا هو حق الله الذي لا يشاركه فيه أحد- فمن غلا بأحد المخلوقين حتى جعل له نصيبًا منها فقد ساوى به رب العالمين وهذا هو الشرك الأكبر الذي حذرت منه الرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام لعلمهم بأنه خَالِصُ حق الله تعالى.

فلواحد كن واحدًا في واحد   أعني سبيل الحق والإيمان(١)

لا يجوز له موالاة: الموالاة لغة: مشتقة من الوَلْي بسكون اللام وتخفيف الياء وهو القرب والدُّنُوُّ.

---

(١) «النونية مع شرح هراس» (٢/ ١٢٢).

والوليّ بكسر اللام وتشديد الياء هو المحب والصديق والنصير(١).

والعداوة لغة: اسم من المعاداة يقال تعادى ما بين فلان وفلان أي اختلف وفسد وتعادى عن فلان: أي تباعد عنه وتجافى(٢). إذاً العداوة: هي البعد والتجافي.

فـ«الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد»(٣)، «وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك من الأعمال»(٤).

فيكون معنى الموالاة اصطلاحًا: هي النصرة والمحبة والإكرام.

ويقوم الولاء على ركنين:

١- الولاء القلبي (المحبة).

٢- الولاء العملي (النصرة ونحوها).

أما المعاداة اصطلاحًا: فهي إظهار العداء بالقول والفعل مع البغض الشديد بالقلوب.

وإظهار العداء بالقول كالتبرؤ منهم. قال تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾[الممتحنة:٤].

وبالفعل: كجهاد الكفار وقتالهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[التوبة:١٢٣].

---

(١) «القاموس المحيط» مادة (ولي) (١٧٣٢).

(٢) «لسان العرب» (١٥/ ٣٦).

(٣) «الفرقان» (٧).

(٤) «الدرر السنية» (٢/ ١٥٧)

ويقوم البراء على ركنين، هما:

١- البراء القلبي (البغض).

٢- البراء العملي (المعاداة العملية باللسان والأركان).

لا يجوز له موالاة: هذا بيان حكم موالاة الكفار وأنه حرام «بل كبيرة من كبائر الذنوب»، وقد يصل إلى الكفر إن كان توليًّا.

قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن: «فقد عرفتم ما في موالاة المشركين من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وعرفتم أن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردّة كذهاب الإسلام بالكلية ومنها ما هو دونه من الكبائر والمحرمات»(١).

وقال الشيخ عبدالله بن عبداللطيف: «والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب كبل الدواة أو بري القلم أو التبشبش لهم ورفع السوط لهم، والتولي كفر يخرج من الملة وهو كالذب عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي»(٢).

بل نقل إجماع العلماء على أن التولي كفر، فقال: «وأما التولّي الذي حقيقته الإكرام والثناء والنصرة والإعانة والمعاشرة وعدم البراءة الظاهرة، فهذه ردّة صريحة، كما دل على ذلك الدليل من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، واتفاق العلماء على ذلك»(٣).

وكذلك قال الشيخ عبدالله بن حميد: وأما التولي: فهو إكرامهم والثناء عليهم والنصرة والمعاونة لهم على المسلمين والمعاشرة وعدم البراءة منهم ظاهرًا فهذا ردّة من فاعله يجب أن تجري عليه أحكام المرتدين كما يدل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأئمة

---

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٣٨).

(٢) «الدرر السنية» (٨/ ٤٢٢) بشيء من التقديم والتأخير.

(٣) «مسائل في المنكرات والبدع» (٣٦).

المقتدى بهم[١].

والتولي يكون بالقلب أو بالجوارح أو بكليهما:

١- **التولي بالقلب**: كالمحبة والرضى عنهم وموافقتهم بقلبه والميل إليهم بباطنه.

٢- **التولي بالفعل**: وهو الدفاع عن الكفار وإعانتهم بالمال والبدن والرأي.

٣- **التولي بالقلب والجوارح**: وهو الموافقة في الظاهر والباطن فينقاد لهم بظاهره ويميل إليهم ويوادهم بباطنه.

فهذه كلها من فعلها كفر كفرًا مخرجًا من الملة[٢].

واكتفى المؤلف ببيان عدم الموالاة. ولم يقل بل يجب عليه معاداتهم لأن من لم يوالِ صار معاديًا ولا بُدَّ. فإذا انتفت إحداهما وجدت الأخرى، وذلك لأن «الولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا. والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدًا والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا»[٣] «فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٧٥-٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ

---

(١) «الدرر السنية» (١٥/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «الدرر السنية» (٨/ ٤٢٢) والولاء والبراء للقحطاني (٢٤٧-٢٤٨).

(٣) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٩٩).

سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨].

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض»(١).

وذلك لأن: «الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحدّ الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض»(٢) ونقل الإجماع على ذلك الشيخ عبدالرحمن بن حسن، فقال: «أجمع العلماء سلفًا وخلفًا من الصحابة والتابعين والأئمة وجميع أهل السنة أن المرء لا يكون مسلمًا إلا بالتجرد من الشرك الأكبر والبراءة منه وممن فعله وبغضهم ومعاداتهم»(٣).

والأدلة على هذا كثيرة(٤).

ومن ذلك نهيه سبحانه عن موالاة عموم الكافرين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[آل عمران:٢٨].

أي: «لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرًا وأنصارًا وتوالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء أي قد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم

(١) «الجواب الكافي» (٢٣٢-٢٣٣).

(٢) «مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب»/ العقيدة/ القسم الأول/ (٣٥٥).

(٣) «الدرر السنية» (١١/ ٥٤٥).

(٤) ذكر منها الشيخ سليمان بن عبدالله إحدى وعشرين دليلًا وذكر الشيخ محماس الجلعود أربعة وأربعين دليلًا. انظر: «أوثق عرى الإيمان». و«الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية».

فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل»[١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة:١].

وكما نهانا عن موالاة الكفار عمومًا نهانا عن موالاة اليهود والنصارى خصوصًا لعظم البلية بهم إلى قيام الساعة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

من حادّ الله ورسوله: أي صار هو في حد أي جانب. والله ورسوله والمؤمنون في حد وجانب. ومن هذه حاله فهو في حد الشيطان وحزبه.

ولو: حرف شرط غير جازم.

كان أقرب قريب: ذكر القرابة بل خص أقرب القرابة وهم الأب والابن والإخوة؛ لأن كثيرًا من الناس يقدمونهم على أمر الله ورسوله. لشدة سلطان العاطفة ولذلك حذرنا الله من طغيان سلطانها على سلطان الشرع فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾[التوبة:٢٣].

وذلك أنه لا يجتمع حب الله وحب أعدائه في قلب عبد أبدًا.

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حبًا له ما كان ذاك في إمكان[٢]

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٢٨).

(٢) «النونية مع شرح هراس» (٢/ ١٢٥).

مكانة الولاء والبراء من الإيمان:

للولاء والبراء منزلة عظيمة في الدين وتتجلى تلك المنزلة بما يلي:

الأول: أن الولاء والبراء شرطٌ في الإيمان لا يصح الإيمان إلا به قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨٠-٨١].

«ذكر الله جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه»[(١)].

الثاني: أنه أوثق عرى الإيمان:

الولاء والبراء هما أوثقا عرى الإيمان كما قال ﷺ: «**إنَّ أوثق عُرَى الإيمان: أن تحب في الله، وتبغض في الله**»[(٢)]. قال محمد بن نصر المروزي: «وجعل ﷺ أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، وذلك أن الله أمر بهما ووكّدهما في كتابه، فقال في الحب فيه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[المائدة: ٥٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧).

(٢) أحمد (٣٠/ ٤٨٨) رقم (١٨٥٢٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٢٩) رقم (١٦١٨٥)، وفي «الإيمان» (٣٦) رقم (١١٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «نعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٠٣-٣٠٤)، وقال الألباني: «فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل». «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣٠٧) رقم (١٧٢٨).

وقال في البغض لله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[الممتحنة:١٣]»[1].

فمن أحب في الله، والى أولياءه فيه، ومن أبغض في الله أبغض أعداءه لأجله ولا بُدَّ.

الثالث: وجوب تربية الأطفال عليه منذ الصغر:

لما كان الولاء والبراء من أسس الدين العظام التي لا يقوم الدين إلا به صار من الواجب أن يربى عليه الأطفال ويغرس في قلوبهم منذ الصغر.

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في أحد رسائله مبيناً شرطية الولاء والبراء، وأهمية تربية الأطفال عليه «أخبرهم أنّ الحب والبغض والموالاة والمعاداة لا يصير للرجل دينٌ إلا بها. واذكر الآيات التي ذكر الله في الموالاة والمعاداة مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١] وقوله في المعاداة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤] واذكر لهم أنه يجب على الرجل أن يعلم أولاده وأهل بيته ذلك أعظم من وجوب تعليم الوضوء والصلاة»[2].

الرابع: أن الفرقان بين الحق والباطل لا يكون إلا بالولاء والبراء:

قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله والبغض في الله والمعاداة في الله والموالاة في الله ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء لم يكن

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤٠٤)، وقد استطرد في ذكر الأدلة من السنة وآثار السلف، فراجعه إن شئت.

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب»/ «الرسائل الشخصية» (٣٢٢-٣٢٣).

فرقانٌ بين الحق والباطل ولا بين المؤمنين والكفار ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[(١)].

الخامس: الإكثار من ذكره في القرآن الكريم:

أكثر الله من ذكر الولاء والبراء «حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»[(٢)].

الولاء لمن؟

ولاء المسلم لا يكون إلا لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة:٥٥].

فخص الله بالولاية ذاته ورسوله والمؤمنين وقصرها عليهم، حيث ذكرها بـ«إنما» التي تفيد الحصر والقصر. وإذا كانت الولاية لله ورسوله والمؤمنين فإن البراءة من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، حتى وإن وجدت القرابة أو المصالح المشتركة لأنه لا يمكن أن يجتمع حُبُّ الله وحُبُّ أعدائه في قلب عبد أبدًا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٣-٢٤].

«فهذه الآية باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين»[(٣)].

---

(١) «أوثق عرى الإيمان» (٣٨).

(٢) «النجاة والفكاك» (٣١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٩٤).

فالموالاة الإيمانية لا تخضع للضغوط النفسية أو المشاكل الاجتماعية، قال شيخ الإسلام: «اعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه»(١).

ومن العجب العجاب ممن ينتسب إلى التوحيد ويزعم أنه من أهل العلم والدين والدعوة وهو لا يفرق بين الموحدين والمشركين. قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب -بعد كلام سبق- عن حال الناس في معرفة كلمة التوحيد: لا إله إلا الله: «وأعجب من ذلك من عرفها من وجه وعاداها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها يا سبحان الله العظيم أتكون طائفتين مختلفتين واحد؟ وكلهم على الحق؟ كلا والله. فماذا بعد الحق إلا الضلال»(٢).

أقسام الناس في الموالاة والمعاداة:

لما كان الحب والبغض هما أصل الولاء والبراء، فلابد أن يختلف الناس في موالاتهم **ومعاداتهم على أقسام ثلاثة:**

(١) من يوالى ويحب جملة أي محبة خالصة لا معاداة معها وهو المؤمن التقي ويستدل له بالآيات والأحاديث التي تأمر بذلك. كمحبة الرسل عليهم الصلاة والسلام والصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والأئمة المرضيين وعباد الله الصالحين.

(٢) من يحب من وجه ويبغض من وجه وهو المسلم المخلط، ويستدل له بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلًا كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٩).

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب»/ «الرسائل الشخصية» (١٨٣).

حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به، فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله**»(١). هذا مع العلم بتحريم الخمر ولعنها ولعن شاربها وساقيها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه(٢). ومع ذلك نهاه عن لعنه لوجود المحبة الإيمانية لله ورسوله ﷺ في قلبه مع أنه جلده ﷺ لشربه الخمر.

«فإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة»(٣).

(٣) من يبغض ويعادى جملة لا ولاء معها وهو الكافر سواء كان كفره كفرًا أصليًا أو ردّة، ولا يجوز أن يحترم ولا يقدر حتى ولا في الألفاظ لقوله ﷺ: «**لا تقولوا للمنافق: سيدًا؛ فإنه إن يكن سيّدًا فقد أسخطتم ربّكم** ﷻ»(٤).

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ٧٥)، كتاب «الحدود»/ باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة. رقم (٦٧٨٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٤/ ٨٠-٨١) كتاب «الأشربة» / باب العنب يعصر للخمر. رقم (٣٦٧٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠١).

(٤) أبو داود (٥/ ٢٥٧) كتاب «الأدب»/ باب لا يقول للملوك «ربي» و«ربتي». رقم (٤٩٧٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٨) رقم (٢٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥)/ باب لا يقل للمنافق سيد. رقم (٧٦٠)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين»(٥٤٨) رقم (١٧٣٤)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٧٩). قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «إسناده صحيح». «أوثق عرى الإيمان» (٤١).

الفرق بين الولاء والبراء القلبي والبدني من حيث النقص والتمام:

«حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته ينبغي أن تكون كاملة جازمة لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل»(١).

الناس من حيث الولاء قسمان:

١ - أولياء الله: وهم المؤمنون.

فالله يحبهم وينصرهم ويؤمنهم من خوفهم ويسدِّدُهم ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر:٥١].

ويدافع عنهم كما في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»(٢)، لأن عدوهم عدو لله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١].

أَخَصُّ صفات أولياء الله:

أخص صفات أولياء الله الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[النور:٥١].

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٤٠-٣٤١) كتاب «الرقاق»/ باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

٢- أولياء الشيطان:

وهم الكافرون: فالشيطان يغويهم ويضلهم ويمنيهم ويعدهم وما يعدهم إلا غرورًا. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[النساء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾[النساء:١١٩-١٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[النساء:٦٠].

أَخَصُّ صفات أعداء الله:

أخص صفات أعداء الله الإعراض عن حكم الله وشرعه إلا إذا ظنوا أنه سيحكم لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾[النور:٤٨-٥٠].

فكل من «كذب رسول الله ﷺ وأعرض عن متابعته وحاد عن شريعته ورغب عن ملته واتبع غير سنته ولم يستمسك بعهده ومكّن الجهل من نفسه والهوى والعناد من قلبه والجحود والكفر من صدره والعصيان والمخالفة من جوارحه... فهو وليّ الشيطان، وعدو الرحمن»(١).

طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء في النفوس:

أكد الإسلام على أن يكون انتماء المسلم لدينه واعتزازه به فقط منذ اللحظة الأولى التي يشهد فيها بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) «هداية الحيارى» (٧).

وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣] ولذلك كثر ذكره في القرآن وتنوعت الأساليب[١] في ذلك، ليرتبط المسلم بربه وينحاز إلى حزبه ويجانب الشيطان وحزبه، ومنها:

١- إفراد الله بالتعلق والتعظيم والطاعة والتجرد من كل محبوب أو مرهوب سوى الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[يونس:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٧، ١٨].

فإذا استشعر المسلم أن القوة لله جميعًا وأن النفع والضر بيده أفرده بالتعلق والتعظيم فوالاه ووالى أولياءه وعادى أعداءه ولم يبال بهم، كما فعل الصحابة عندما خوفهم الكفار وهددوهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

٢- سخط الله على من والى الكفار وتخليده في العذاب ونفي الإيمان عنه:

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[المائدة:٨٠-٨١].

---

(١) يبين شيخ الإسلام قيمة تنوع الأساليب فيقول: «فإن هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورًا على نور والله المستعان»، «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٣).

فرتب الله على موالاة الكافرين ثلاثة أمور:

(أ) سُخْطُه على من والى الكفار.

(ب) الخلود في العذاب.

(ج) تلازم عدم الإيمان بالله مع موالاة الكفار.

ووالله إن أحد هذه الأمور الثلاثة ليزجر وينفر العبد المؤمن عن موالاة الكفار فكيف بها مجتمعة.

٣- مرض القلوب:

لا يوالي أعداء الله رجل ينتسب للإيمان إلا لمرض في قلبه، قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[المائدة:٥٢] قال ابن القيم عند هذه الآية: «أخبر الله عن حال متوليهم بما في قلبه من المرض المؤدي إلى فساد العقل والدين»[(١)].

٤- عداوة الرسل لأقوامهم الكافرين وبراءتهم منهم:

قد يعادي الإنسان شخصًا غريبًا لأي سبب من الأسباب لكن من الصعوبة بمكان أن يعادي قريبه. فكيف إن كان أقرب قريب. أبًا أو أمًا أو ابنًا ففي ذلك من المشقة والصعوبة الشيء الكثير. ولكن المسلم الموحد الذي قدم محبة الله على كل محبة، مستعد أن يعادي كل عدو لله ورسله مقتديًا بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة:٤].

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٨٧-٤٨٨).

«فانظر كيف أن الله أمرنا أن نتأسى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام في قولهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ فإذا كان واجبًا على المسلم أن يقول هذا لقومه الذين هو بين أظهرهم، فكونه واجبًا للكفار الأبعدين عنه المخالفين له في جميع الأمور أبين وأبين.

وهاهنا نكتة بديعة في قوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي: أن الله تعالى قدّم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأن الأول أهم من الثاني فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها فلا يكون آتيًا بالواجب عليه وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[مريم:٤٨]. فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم.

وكذا قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٩] وقوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الكهف:١٦].

فعليك بهذه النكتة فإنها تفتح لك بابًا إلى عداوة أعداء الله فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلمًا بذلك، إذ ترك دين جميع المرسلين. ثم قال: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ فقوله: ﴿وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان. وتأمل تقديم العداوة على البغضاء لأن الأولى أهم من الثانية فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتيًا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء، ولابد أيضًا من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين أي: ظاهرتين بينتين. واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبين علامتها ولا يكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين. وأما إذا وجدت الموالاة والمواصلة فإن ذلك يدل على عدم البغضاء فعليك بتأمل هذا الموضع فإنه يجلو عنك

شبهات كثيرة»[١].

٥- حبوط العمل:

من تولى الكفار حبط عمله، قال ابن القيم: «ثم أخبر عن حبوط أعمال متوليهم ليكون المؤمن لذلك من الحذرين، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٥٣]»[٢].

٦- بيان عداوتهم للمؤمنين وحقدهم الشديد عليهم:

الكفار جميعًا أعداؤنا حقيقة لا يمكن أن يريدوا لنا الخير أبدًا. بل هم يريدون خبالنا وعنتنا وجميع ما يشق علينا، ولو ثقفونا لبسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء علينا وإن تسنى لهم أن يخرجونا من ديارنا ويظاهروا على إخراجنا فعلوا ولم يتأخروا ولا لحظة واحدة. بل لا يكفيهم كل هذا مع شناعته وقبحه حتى نكفر بربنا ونترك ديننا -وحاشانا من ذلك إن شاء الله- وما ذلك إلا لشدة الحقد الدفين والغيظ الشديد في قلوبهم حسدًا من عند أنفسهم لما حبانا الله به من نعمة الإسلام.

ومن الآيات التي تبين ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[البقرة:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ

(١) «سبيل النجاة والفكاك» (٤٣-٤٥).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٨٨).

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران:١١٨، ١١٩].

بل ويترجمون هذا الحقد والعداوة المتجَذِّرة في قلوبهم إلى عمل جوارحهم حين تسنح الفرصة لذلك. قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾[الممتحنة:٢].

وأعظم ما يريدون هو إخراجنا من ديننا، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[البقرة:١٠٩].

فلا يرضون منا بدون الكفر: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:١٢٠]. فهل بعد بيان الله بيان.

فمن كان يؤمن بالله وبما أنزل على رسوله اعتقد عداوتهم وبغضهم ومن لم تنفعه الآيات من كتاب الله فلينظر إلى واقع المسلمين مع الكفار منذ بعثة النبي ﷺ إلى يومنا هذا ليرى الجرائم التي ارتكبوها في حق المسلمين والحروب التي شنوها عليهم في كل قطر ومصر.

واحذر أَنْ تنخدع بالدهان والطلاء الذي يخفون به جرائمهم من الكلام المعسول الذي لا حقيقة له. كيف وقد أوضح الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[التوبة:٨].

٧- بيان استهزاء الكافرين بالمؤمنين وسخريتهم منهم ومن دينهم:

لا يفتأ الكفار من استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة:٥٧، ٥٨].

فإذا كان الكفار يقدحون في ديننا ويحتقرونه ويستصغرونه ويهزؤون به ويستهزؤون بأعظم شعائره الظاهرة وهي الصلاة فهم في نفس الأمر يسخرون من تلك العقول والقلوب التي تعتقد صحة هذا الدين وأهمية أعظم فرائضه وهي الصلاة فيجب علينا معاداتهم قال السعدي: «فإذا علمتم أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص وأنه لا يبالي بمن قدح فيه بالكفر والضلال وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق.

وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم»(١).

٨- سخريتهم بالله والرسول ﷺ:

ما فتئ اليهود والنصارى والمشركون يسخرون بربنا وإلهنا في كل لحظة وحين، فزعموا أنه يتعب وأن يده مغلولة فنفى ذلك عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وزادوا بجاحة وقبحًا فشتموه بنسبتهم له الابن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٠]، ومثلهم قال المشركون «الملائكة بنات الله»، وكيف يكون لله ولد وهو الغني والخلق كلهم خلقه وفي ملكه ولذا تحداهم الله بقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يونس:٦٨] فأين لهم الحجة والبرهان على ذلك، فصح أنهم يقولون على الله بغير علم. قبحهم الله.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٣٧).

ولقبح هذه المقولة وشناعتها وعظيم جرمها فإن الجمادات الصلبة تكاد تتشقق، وتندك وتتهدم كل ذلك غضبًا لله من هذه المقولة الشنعاء، قال تعالى مبينًا شناعة هذه المقولة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١]. والهدُّ: هدم له وقع وسقوط شيء ثقيل[١]. ولشناعتها سماها الله شتمًا كما في الحديث القدسي قال الله تعالى: «**يشتمني ابنُ آدم وما ينبغي له أن يشتمني... أمّا شتمه، فقوله: إن لي ولدًا**»[٢].

وأما سخريتهم بالرسول ﷺ فهو زعمهم أنه كاذب. فلو قلت لهم أما بَشَّر عيسى وموسى عليهما السلام بمحمد قالوا: نعم، ثم قلت لهم هذا محمد فآمنوا. قالوا ليس هذا الذي بشرت به الرسل، فالنتيجة إذًا أنهم يكذبونه ﷺ ويزعمون أنه يفتري على الله الكذب بقوله إنه رسول من عند الله.

فتعبدْ لله ببغض الكفار من اليهود النصارى وغيرهم. وكلما تذكرت سخريتهم بربك وبرسولك وجددت بغضهم كلما زاد إيمانك وعلت درجاتك عند ربك، قال عمر بن الخطاب: «أهينوهم ولا تظلموهم فإنهم سبوا الله أعظم مسبة»[٣] وقال معاذ بن جبل «لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»[٤].

---

(١) «المفردات» (٥١٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٨٧) كتاب «بدء الخلق»/ باب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]. رقم (٣١٩٣).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٣).

(٤) «الجواب الصحيح» (٤/ ١٥٥).

٩- الأمر بقتالهم:

أمر الله نبيّه بقتال الكفار بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣]. وأمر النبي ﷺ بقتالهم أمرٌ لجميع المؤمنين ومع ذلك أمر المؤمنين أمرًا عامًا فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

وكان النبي ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بخاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «**اغْزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله...**»(١).

فهل تجتمع الموالاة مع القتال؟ هذا لا يمكن أبدًا. بل لا يكون قتال إلا معه المعاداة والبغض كيف والجهاد مستمر إلى قيام الساعة «**لا تقوم السّاعة حتّى تقاتلوا اليّهود**»، وكذلك ما ورد من الأحاديث في قتال النصارى.

١٠- البعد عنهم في السكن:

حرم النبي ﷺ السكن والإقامة بين المشركين ومنع منها فقال ﷺ: «**أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يقيمُ بين أظْهُر المشركين**». قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»(٢).

وقال ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه؛ فإنه مثله**»(٣).

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٥٧) كتاب «الجهاد والسير»/ باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث. رقم (١٧٣١).

(٢) أبو داود (٣/ ١٠٤-١٠٥)، كتاب «الجهاد»/ باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. رقم (٢٦٤٥)، والترمذي (٤/ ١٥٥)، كتاب «السير»/ باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. رقم (١٦٠٤). وصحح إسناده الصنعاني في «سبل السلام» (٤/ ٤٢-٤٣)، وابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٣٨١).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٢٤) كتاب «الجهاد»/ باب الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧).

وفي رواية: «**لا تساكنوا المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم، فهو مثلهم**»[(١)]. وفي رواية: «**فهو منهم**»[(٢)]. وفي رواية: «**فليس منا**»[(٣)].

وعن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وعلى فراق المشرك» وفي لفظ: «وتناصح المسلمين وتفارق المشركين»[(٤)]؛ لأنه «لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله»[(٥)]، ولهذا يقول شيخ الإسلام: «رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرد الإسلام»[(٦)].

١١- النهي عن بداءتهم بالسلام:

السلام سبيل المحبة والوئام، قال النبي ﷺ: «**ألا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السَّلام بينكم**»[(٧)].

ولكي نقطع محبة الكفار والولاء لهم يجب أن نقطع بداءتهم بالسلام، قال ﷺ: «**لا تبدؤُوا اليهود والنّصارى بالسّلام، وإذا لقيتموهم فاضطرُوهُم إلى أضيق الطّريق**»[(٨)].

---

(١) الترمذي (٤/ ١٥٥-١٥٦)، كتاب: «السير»/ باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. رقم (١٦٠٥).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢١٧) رقم (٦٩٠٥).

(٣) «المستدرك» (٢/ ١٥٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

(٤) النسائي (٧/ ١٤٧)، «كتاب البيعة»/ باب البيعة على فراق المشرك.

(٥) «حاشية الروض» لابن قاسم (٤/ ٢٦٠) نقلًا عن ابن تيمية.

(٦) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٨).

(٧) مسلم (١/ ٧٤) كتاب «الإيمان»/ باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها. رقم (٥٤).

(٨) مسلم (٤/ ١٧٠٧) كتاب «السلام»/ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام. رقم (٢١٦٧).

فنهانا رسول الهدى ﷺ أن نبدأهم بالسلام ونفسح لهم في الطريق وأوجب علينا أن نفرض عليهم الذل والصغار لأجل استمرار البغضاء بيننا وبينهم.

١٢- الأمر بمخالفتهم والنهي عن التشبه بهم:

حذر النبي ﷺ من التشبه بالكفار، فقال ﷺ: «**من تشبّه بقومٍ؛ فهو منهم**»(١).

قال شيخ الإسلام: هذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١].

وهو نظير ما سنذكره عن عبدالله بن عمرو أنه قال: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»(٢).

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفرًا أو معصية أو شعارًا لها كان حكمه كذلك(٣).

ولخطورة التشبه أُمِرْنا بمخالفتهم كي يَسْلَمَ لنا ديننا، قال ﷺ: «**إنَّ اليهود والنّصارى لا يصبغون فخالفوهم**»(٤)، وقوله: «**خالفوا اليهود؛ فإنَّهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم**»(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩/ ٢٣٤ و٣٩٢)، وصحح إسناده شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥١٣)، وابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٢٤٨).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩-٢٧١).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٦) كتاب «الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٦٢).

(٥) أبو داود (١/ ٤٢٧) كتاب «الصلاة». رقم (٦٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥/ ٥٦١) رقم (٢١٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٩١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣/ ١٠٦) رقم (٣٢٠٥).

والأدلة على هذا «أكثر من مائة دليل»(١) أكد فيها النبي ﷺ على مخالفتهم لأن مشابهتهم في الظاهر «تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»(٢)، و«هذا أمر مجمع عليه عند أهل العلم»(٣).

بل إن التأكيد على مخالفتهم قد استقر حتى عند الكفار أنفسهم فضلًا عن المسلمين، فعن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِ ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ...﴾[البقرة:٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيءٍ إلاَّ النِكاح**» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه»(٤).

قال الذهبي محذرًا من التشبه باليهود والنصارى -الذين وصفوا بأنهم مغضوب عليهم وضالون- ومبينًا قبحه وشناعته: «وقد أوجب الله عليك يا هذا المسلم أن تدعو الله تعالى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة بالهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فكيف تطيب نفسك بالتشبه بقوم هذه صفتهم وهم حطب جهنم ولو قيل لك: تشبه بمسخرة لأنفت من ذلك وغضبت، وأنت تشبه بأقلف عابد صليب في عيده»(٥).

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٢٨٦).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٩).

(٣) «كشاف القناع» (٣/ ١٣١).

(٤) مسلم (١/ ٢٤٦) كتاب «الحيض»/ باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد. رقم (٣٠٢).

(٥) «تشبيه الخسيس بأهل الخميس» (٢١-٢٢). وانظر: «الرد على من جوّز لبس قلنسوة النصارى» للشيخ محمد عليش مفتي المالكية بمصر.

١٣- أن من أحب في الله وأبغض في الله ذاق طعم الإيمان:

يتحدث أسلافنا عن لذة المناجاة وعن طعم يجدونه في قلوبهم نتمنى أن نجد تلك اللذة وذلك الطعم للإيمان ونتساءل كيف نجده فيجيب ابن عباس رضي الله عنه عن هذا التساؤل بقوله: «من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»[١].

وسر ذوقه طعم الإيمان هو كمال إيمانه لأن من أحب لله وأبغض لله وأعطى ومنع لله كمل إيمانه وتم. كما يدل عليه حديث أبي أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحبَّ لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[٢].

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن من كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال الإيمان»[٣].

١٤- الخصومة بين الأتباع والمتبوعين:

عندما يعاين الناس العذاب يوم الفزع الأكبر تنفصم عرى المحبة بين المتبوعين الماكرين الصادين عن الحق، المزينين للباطل وبين تابعيهم من الجهلة الذين يتبعون كلَّ ناعق، وتبدأ خصومة كلُّها حسرة وأسى من التابعين، وجحودٌ واتهام من المتبوعين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢٠) رقم (٣٥٣).

(٢) رواه أبو داود (٥/ ٦٠) كتاب «السنة»/ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٦٨١)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ٤١) رقم (٩٠٨٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٥٤).

لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[سبأ:٣١-٣٣]. ولا ينتهي الأمر عند الخصومة، بل يزيد شدة فيتبرأ المتبوعون من الأتباع في أعظم المواقف وأشدها، وفي ذلك ما فيه من الألم الشديد والحسرة البالغة على نفوس التابعين ما فيه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٦-١٦٧].

فتبرأ منهم أيها الأخ المبارك اليوم قبل أن يتبرؤوا منك غدًا، وعادهم لله في هذه الدنيا تنجو من عقوبة الآخرة.

١٥- بيان ثمرة الولاء والبراء:

كثيرًا ما يربط الله في كتابه بين العمل وثمرته سواء كانت الثمرة في الدنيا أو في الآخرة، وذلك لما لها من أثر على العامل يدفعه إلى الحرص عليه والتفاني فيه ومن ثمار الولاء والبراء ما يلي:

أ- إعطاء الإنسان العوض عما ترك:

من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه، فهذا إبراهيم عليه السلام لما عادى قومه وتبرأ منهم لله رزقه الله عوضًا خيرًا منهم حيث وهب له ذرية صالحة جعلهم أنبياء يسر بهم في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[مريم:٤٨-٤٩]، بل جعل جميع الأنبياء من بعده في ذريته قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[العنكبوت:٢٧].

ب- السلامة من الفتن والفساد الكبير:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[الأنفال:٧٣].

«أي إن تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل»(١).

ج- النجاة من سخط الله والفوز برضاه:

قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة:٨٠-٨١].

فإذا كان من تولى الكفار سخط الله عليه فإن من عاداهم ﵁ وعن فعله وأحبه.

ولهذا انغرس الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والعداوة للكافرين في مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم كبارًا وصغارًا رجالًا ونساءً **ونضرب لذلك ثلاثة أمثلة:**

١) قصة كعب بن مالك ﵁:

قصة كعب بن مالك ﵁ عندما تخلف عن غزوة تبوك قصة طويلة لكني أختصرها وأبين الشاهد للموضوع منها: وذلك أن كعب بن مالك ﵁ تخلف عن غزوة تبوك لغير عذر فلما قدم النبي ﷺ راجعًا من تبوك جاء المتخلفون يعتذرون إليه وكان من ضمنهم كعب ﵁ ولكنه لم يعتذر وإنما ذكر الواقعَ بِحَالِه. وصَدَقَ في مقاله فأنظره النبي ﷺ ريثما ينزل الوحي فيه ثم نهى الناس أن يكلموه وبعد أربعين ليلة أمر زوجته أن تفارقه ولا تبقى معه في بيت واحد. يقول وتسلقت ذات يوم على حائط لابن عمي وهو أحب الناس إلي

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣١٦).

فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام. ثم قلت: ألا تعلم أني أحب الله ورسوله قال: الله ورسوله أعلم، فدمعت عيني، يقول كعب: وكنا كما قال الله عنا: وضاقت عليهم الأرض بما رحبت -تخيل هذه الصورة الشديدة. قائد المسلمين لا يكلمه وأصحابه لا يكلمونه حتى أقرباؤه لا يكلمونه- فهل غَيَّرَ هذا من ولائه للإسلام وجعله يوالي أعداء الله. كلا فاستمع إليه وهو يقول: بينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها[1].

انظر إلى قوة ولاء كعب للمسلمين وشدة عدائه للكفار فها هو زعيم من زعمائهم يدعوه ليواسيه وهو في حال الشدة والضنك عند المسلمين ومع ذلك كله يسجرها في التنور ولا يلتفت إليها فيا لها من براءة من الكفار ما أعظمها، ويا له من ولاء للمسلمين ما أقواه.

٢) عمير بن سعد:

قد يقول قائل هذا في مجتمع الرجال الأشداء الأقوياء فكيف بمجتمع صغار السن فلن يبلغ هذا المستوى من الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين نقول له: كلا فإن الشباب الصغار في السن قد أشربت قلوبهم عقيدة الولاء والبراء **وإليك هذا المثال:**

شاب صغير اسمه عمير بن سعد مات أبوه وهو صغير فتزوجت أمه برجل من أثرياء الأوس اسمه الجلاس بن سويد فأحب كل منهما الآخر حب الولد لوالده والوالد لولده فلما أن كانت غزوة تبوك جاء عمير إلى الجلاس وجعل يذكر له من تصدق للجهاد

---

(١) انظر البخاري مع الفتح (٨/ ١١٣) كتاب «المغازي»/ باب حديث كعب بن مالك. رقم (٤٤١٨).

وأخبار البكائين ليثير همته على الصدقة والبذل، فقال الجلاس كلمة عظيمة خطيرة أذهلت عميرًا وأطارت صوابه هي: «والله لئن كان ما يقول محمدٌ حقًّا لنحن شر من الحمير» فقال عمير بن سعد: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليَّ وأحسنهم عندي بلاءًا وأعزهم عليّ من أن يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة لئن أفشيتها لتُفتضحنَّ، ولئن كتمتها لأهلكن، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليَّ فنزل قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة:٧٤].

فأمسك رسول الله بأذن عمير وقال: «**وَفَّتْ أُذُنُكَ وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ**» فتاب الجلاس: وحسن إسلامه(١).

فتحمل عمير هذا الموقف الصعب مع علمه أن إخبار النبي ﷺ بهذه المقولة فضيحة عند الناس، ولكن شعوره التام بولائه لله ورسوله جعله يؤثر إخبار النبي ﷺ بما قال الجلاس، وإن كان ما كان.

٣) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان:

أسلمت أم حبيبة ثم هاجرت إلى الحبشة فتنصر زوجها فثبتت على إسلامها فكافأها النبي ﷺ أن تزوجها فصارت أم المؤمنين، ولها مع أبيها موقف يدل على شدة ولائها لله ولرسوله وبراءتها من الشرك وأهله حتى وإن كان ذلك المشرك هو أبوها.

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٤/ ٣٧٥-٣٧٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٩٧).

قال الزهري: «لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية، فلم يُقْبِلْ عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه، فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر»(١).

وتربية رسول الله ﷺ لأصحابه بالولاء للمؤمنين والبغض والعداوة للكافرين رسخت هذه العقيدة في قلوبهم. فربوا عليها من بعدهم. **ومن النماذج ما يلي:**

١- كان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصراني أغمض عينيه، فقيل له في ذلك فقال رحمه الله: «لا أقدر أنظر إلى من افترى على الله وكذب عليه»(٢).

٢- بهلول بن راشد وكان من أصحاب الإمام مالك، دفع إلى بعض أصحابه دينارين ليشتري بهما زيتًا فذُكر للرجل أن عند نصراني زيتًا أعذب ما يوجد فانطلق إليه الرجل بالدينارين وأخبر النصراني أنه يريد زيتًا عذبًا لبهلول بن راشد، فقال النصراني: نتقرب إلى الله بخدمة بهلول كما تتقربون أنتم إلى الله بخدمته، وأعطاه بالدينارين من الزيت ما يعطى بأربعة دنانير، ثم أقبل الرجل على بهلول وأخبره الخبر فقال بهلول: قضيت لي حاجة فاقض لي الأخرى، ردّ عليّ الدينارين فقال: لم؟ قال تذكرت قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢].

فخشيت أن آكل زيت النصراني فأجد له في قلبي مودّة فأكون ممن حادَّ الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير(٣).

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٨/ ٩٩)، و«تاريخ دمشق» (٦٩/ ١٥٠).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٢).

(٣) «ترتيب المدارك» (٣/ ٩٨).

٣- سئل الإمام أحمد عن رجل له جار رافضي يسلم عليه؟ فقال: «لا وإذا سلم عليه لا يرد عليه»(١).

٤- وكان ابن رجاء يهجر من باع لرافضي كفنه أو غسله أو حمله(٢).

٥- دخل أبو الوليد الطرطوشي على الخليفة في مصر فوجد عنده وزيرًا راهبًا نصرانيًا قد سلّم إليه القيادة وكان يأخذ برأيه فقال الطرطوشي:

يا أيها الملك الذي جوده يطلبه القاصد والراغب
إن الذي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

فعندئذ اشتد غضب الخليفة فأمر بالراهب فسحب وضرب وأقبل على الشيخ فأكرمه وعظمه(٣).

هذه حالهم فما حالنا؟ لقد ضيعنا هذا الأصل العظيم إلا من رحم الله وأخشى أن ينطبق علينا وصف ابن عقيل لأهل زمانه حيث يقول:

«إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل هذا الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة، عاش ابن الراوندي والمعري عليهما لعائن الله ينظمون وينثرون كفرًا... وعاشوا سنين وعظمت قبورهم واشتريت تصانيفهم وهذا يدل على برودة الدين في القلب»(٤).

(١) «السنة» للخلال (١/ ٤٩٤) رقم (٧٨٤).

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٥٧).

(٣) «الفروق» (٣/ ١٦).

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٣٧).

حالات إظهار الموافقة للمشركين:

لإظهار الموافقة للمشركين ثلاث حالات هي:

١- أن يوافقهم في الظاهر والباطن:

فينقاد لهم بظاهره ويميل إليهم ويوادهم بباطنه فهذا كافر خارج من الإسلام، وهو ممن قال الله فيه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[النحل:١٠٦].

٢- أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن مع مخالفته لهم في الظاهر:

فهذا كافرٌ أيضًا ولكن إذا عمل بالإسلام ظاهرًا عصم ماله ودمه وهو المنافق.

٣- أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن:

وهو على وجهين أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم أو تقييدهم له أو تهديدهم إياه بالقتل فيقولون له: إما أن توافقنا وتظهر الانقياد لنا وإلا قتلناك فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان كما جرى لعمار حين أنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[النحل:١٠٦] وكما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾[آل عمران:٢٨].

الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك إما طمعٌ في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المآل فإنه في هذه الحال مرتدٌ ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن وهو ممن قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[النحل:١٠٧] فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل بالحق أو بغضه ولا محبة الباطل وإنما هو أن لهم حظًا من حظوظ الدنيا فآثروه على الدين[1].

(١) «سبيل النجاة والفكاك» (٨٩-٩٠).

من صور موالاة الكفار:

١- التولي العام: قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

قال القرطبي: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: في النصرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ شرط وجوابه أي: لأنه خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم فصار منهم أي من أصحابهم[1].

بل نقل ابن حزم الإجماع على ذلك فقال: صح أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره فإنه كافر من جملة الكفار وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين[2].

٢- المحبة والمودة الخاصة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢].

٣- الركون القليل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود:١١٣]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[الإسراء:٧٤-٧٥]، قال ابن عباس: إن من الركون إليهم أن تليق لهم دواة أو تبري لهم قلماً[3].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٠-١٤١).

(٢) «المحلى» (١٣/ ٣٥).

(٣) «مسائل في المنكرات والبدع» لعبد اللطيف آل الشيخ (٣٣).

٤- مداهنتهم: قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾[القلم:٩].

٥- طاعتهم فيما يقولون وفيما يشيرون به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[الكهف:٢٨].

٦- تقريبهم في المجلس والدخول بهم على أمراء الإسلام.

٧- مشاورتهم في الأمور.

٨- استئمانهم واستعمالهم في أمر من أمور المسلمين أي أمر كان إمارة أو عمالة أو كتابة أو غير ذلك. فعن أبي موسى قال قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتبًا نصرانيًا قال: مالك قاتلك الله. أما سمعت الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[المائدة:٥١] ألا اتخذت حنيفًا؟ قال قلت يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله. ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله(١).

وفي رواية: «أن عمر رضي الله عنه أمره أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديمٍ واحدٍ، وكان لأبي موسى كاتب نصراني يرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه وقال: إن هذا لحافظ، وقال: إن لنا كتابًا في المسجد، وكان جاء من الشام فادعه فليقرأه، قال أبو موسى: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني، وضرب فخذي، وقال: أخرجه، وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

---

(١) «أحكام الملل» (١١٧) رقم (٣٢٨)، وقال شيخ الإسلام «رواه أحمد بإسناد صحيح». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٨٤) و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣٢٦).

قال أبو موسى: والله لا توليته، إنما كان يكتب. قال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك؟ لا تدنهم إذ أقصاهم الله ولا تأمنهم إذ خوّنهم الله، ولا تعزهم بعد إذ أذلهم الله، فأخرجه»(١).

وقال عمران بن أسد: أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن المنتشر: أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك رجلًا يقال له: حسان بن برزى على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥٧].

وإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا، ونحن منه، وإن أبى؛ فلا تستعن به، ولا بأحد من غير أهل الإسلام من أعمال المسلمين، فقرأ عليه الكتاب، فأسلم»(٢).

قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «ولهذا وغيره منعوا أن يكونوا على ولاية المسلمين....بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم»(٣).

٩- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[آل عمران:١١٨]؛ لما في ذلك من معرفة أخبار المسلمين. قال شيخ الإسلام: «عرف أهل الخبرة أن أهل الذمة من اليهود والنصارى والمنافقين يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون على ذلك من أسرارهم حتى أُخِذَ جماعة من المسلمين في بلاد التتر وسُبِيَ بمطالعة أهل الذمة لأهل دينهم.

---

(١) «السنن الكبرى» (١٠/ ٢١٦) رقم (٢٠٤٠٩).

(٢) «سراج الملوك» للطرطوشي (٢/ ٥٤٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٦).

ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم:

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك في الدين»(١)

١٠- مصاحبتهم ومجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم.

١١- البشاشة لهم وطلاقة الوجه.

١٢- الإكرام العام.

١٣- الثناء عليهم ونشر فضائلهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادة وحكماء كما يقال لطواغيتهم السيد فلان.

١٤- الرضى بأعمالهم أو التشبه بهم والتزيي بزيهم.

١٥- الانخراط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية وبذل الحب لها والنصرة. ومن ذلك اتفاق بعض الأحزاب الإسلامية مع الأحزاب العلمانية ليكونا حزبًا واحدًا كي يفوزا في الانتخابات.

١٦- مشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم.

١٧- الاستغفار لهم: فقد نهى الله عن الاستغفار للمشركين وإن كان أقرب قريب قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[التوبة:١١٣]. ولما استأذن رسول الله ﷺ ربه أن يستغفر لأمه، منعه لأنها مشركة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يؤْذن لِي...**»(٢)(٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مسلم (٢/ ٦٧١) كتاب «الجنائز»/ باب استأذن النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه. رقم (٩٧٦).

(٣) «أوثق عرى الإيمان» (٤٩-٥١)، وإن أردت بيان الأدلة على هذه الصور مع نقل كلام المفسرين على الآيات، فراجع «الولاء والبراء» للقحطاني (٢٣٢-٢٤٥).

١٨- القول بوحدة الأديان:

ومن صور الموالاة القول بوحدة الأديان التي يتزعمها الكفار أو من تشبعوا بأفكارهم كابن الفارض(١) وابن سبعين وابن عربي(٢) والتلمساني، وابن هود وغيرهم، ومن نحا نحوهم، ولذلك: «يسوغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام ويجعلون هذه طرقًا إلى الله بمنزلة مذاهب المسلمين»(٣).

وممن نادى بها جمال الدين الأفغاني حيث قال: «إن الأديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة...»(٤).

وإني لأعجب أشد العجب كيف يقول هذا الكلام أحد ينتسب إلى الإسلام أو أحد قرأ القرآن، أليس الله يقول: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[التوبة:٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[البقرة:١٣٥].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥].

---

(١) انظر: «ديوان ابن الفارض» (ص٨٢) حيث جعل الأديان كلها صحيحة تركتها لطولها.

(٢) عقد الخلائق في الإله خلائقًا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه. «الفصوص» (٣٤٥).

(٣) «الصفدية» (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٤) «المجموعة الكاملة» لجمال الدين الأفغاني (٦٩)، نقلًا عن «دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام». مصطفى غزال (٢٤٤).

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾[آل عمران: ٧٠].

ويقول ﷺ: «**وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرسِلْت بِهِ إلاَّ كَانَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ**»(١). فمن هذه الأدلة يتبين أنّ القولَ بوحدة الأديان كفر صريح وردّة عن دين الله، كيف يجتمع التوحيد والشرك في قلب عبد. هذا لا يمكن أن يكون أبدًا فانتبهوا أيها المسلمون(٢).

الفرق بين المداراة والمداهنة:

المداهنة: المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وهو معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه(٣). وقيل «هي ترك ما يجب لله من الغيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغرض دنيوي، وقيل: هي الاستئناس والمعاشرة مع القدرة على الإنكار»(٤). «فالمداهن هو الذي لا يبالي ما نقص من دينه إذا سلمت له دنياه قد هان عليه ذهاب دينه وانتهاك عرضه بعد أن تسلم له دنياه»(٥).

فالمداهنة مشاركة بالجريمة وإشاعة للفاحشة لأن الفجرة إذا أمنوا الإنكار أفسدوا في الأرض.

---

(١) مسلم (١/ ١٣٤)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. رقم (١٥٣).

(٢) من أراد الاستزادة فليراجع «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان» بكر أبو زيد، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» د. عبد العزيز العبد اللطيف (٣٣٧-٣٩٠)، و«دعوة التقريب بين الأديان» د. أحمد القاضي.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٨).

(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٧١).

(٥) «الغرباء» (٧٩-٨٠).

ولهذا كان المشركون لا يطمعون أن يطيعهم النبي ﷺ فيفعل مثلهم بل أرادوا أقل من ذلك وهو أن يداهنهم فيسكت عن شركهم وفسادهم وباطلهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم:٩].

أما المداراة: هي درء الشر المفسد بالقول اللين وترك الإعراض عنه إذا خيف أشد منه أو مقدار ما يساويه(١).

قال الآجري: «المداراة يثاب عليها العاقل ويكون محمودًا بها عند الله عز وجل وعند من عقل عن الله عز وجل وهو الذي يداري جميع الناس الذين لا بُدَّ له منهم ومن معاشرتهم لا يبالي ما نقص من دنياه وما انتهك به من عرضه بعد أن يسلم دينه. فهذا رجل كريم غريب في زمانه»(٢) ومن أمثلة المداراة: الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله والإنكار عليه بلطف القول والفعل.

والفرق بين المداراة والمداهنة أَنَّ المداراة بَذْلُ الدنيا لصلاح الدنيا أو لصلاح الدين أو هما معًا وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال.

والمداهنة: بذل الدين لصلاح الدنيا(٣).

قال الطرطوشي: «من دارى سَلِمَ، ومن داهن أَثِمَ، وهذا باب اختلط على معظم الخلق، فداهنوا وهم يحسبون أنهم يدارون، فالمداهنة منهي عنها، والمداراة مأمور بها... والمداهنة أن تداريَ الناس على وجه يذهب فيه دينُك، والمداراة مخالفتهم على وجهٍ يسلم لك دينك»(٤).

---

(١) انظر: «الدرر السنية» (٨/ ٧٢).

(٢) «الغرباء» (٧٩).

(٣) «المفهم» (٦/ ٥٧٣) بشيء من الاختصار.

(٤) «سراج الملوك» (٢/ ٥٨٨).

والدليل: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

....

لا: نافية. تنفي اجتماع الإيمان ومحبة المشركين في قلب عبدٍ أبدًا.

تجد: تذكر بعد البحث والتفتيش غالبًا كما في قصة موسى مع الخضر حيث قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾[الكهف:٦٥].

وفي هذه الآية المبالغة في المنع من موادة الكفار من وجوه:

الأول: بيان أن مودة الكفار لا يمكن أن تجتمع مع الإيمان بالله واليوم الآخر أبدًا لأنهما نقيضان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر. قال شيخ الإسلام: «فأخبر الله أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلًا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب»(١).

الثاني: أنه تعالى أوجب قطع مودة أقرب القرابة إذا كفروا، فيجب أن يكون إيمانه بالله واليوم الآخر حائلًا بينه وبين هذه المودّة.

كما فعل عبدالله بن عبدالله بن أبي مع أبيه حين منعه من دخول المدينة حتى أذن له النبي ﷺ. وذلك عندما قال: ليخرجن الأعز منها الأذل(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (٦٧٦-٦٧٧).

وعندما أُسِرَ أبو عَزِيز بن عمير بن هاشم بعد وقعة بدر. «قال أبو عَزِيز: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير -وكان أخي لأمي وأبي- ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شُد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. قال أبو عَزِيز: فقلت له يا أخي هذه وصاتك بي، فقال مصعب: إنه أخي دونك»[1].

الثالث: أن الله عدد نعمه على مبغضي الكفار ممتنًا بها عليهم وهي كَتْبُ الإيمان في قلوبهم، وتأييدهم بروح منه، وإدخالهم الجنة وخلودهم فيها، ورضاه عنهم وإرضاؤهم عنه وأنهم حزب الله المفلحون. فمن أنعم الله عليه بهذه النعم فهل يمكن أن يحب أعداء الله ويواليهم؟.

قومًا: القوم هم الجماعة من الناس.

يؤمنون بالله واليوم الآخر: ذكر الإيمان بالله لأن الإيمان الصادق يمنع محبة أعداء الله. وذكر اليوم الآخر لأن فيه الجزاء والحساب فيخاف أن يعاقب على محبته لعدو ربه.

يوادون: أي يحبون.

فنفى الله الإيمان عمن يحب أعداءه. وهذا يحتمل أحد أمرين:

١- إما أنه كان منافقًا يظهر الإسلام ويبطن الكفر فهو لا يبالي أن يحب أعداء الله لأنه ليس عنده إيمان يردعه ويمنعه عن محبتهم.

٢- أو أن عنده إيماناً حقيقة لكن لما جاءت البلوى أحب الكفار ووالاهم يخشى بذلك الدوائر فانتفى عنه الإيمان، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

---

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ١٩١).

من حاد الله ورسوله: أي من عادى وشاق الله ورسوله وخالف أمرهما وصار بسبب ذلك في حد غير حد الله ورسوله.

ولو: الواو حالية ولو: حرف شرط غير جازم.

كانوا آباءهم: بدأ بالآباء لشعور الأبناء بالانتماء لآبائهم ولفضلهم عليهم؛ ولعظيم حقهم ووجوب برهم ومع هذا كله نهاهم عن محبتهم ومودتهم.

أو أبناءهم: وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب قال يعلى العامري: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ، فضمهما إليه، وقال: «**الولد مبخلة مجبنة**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال أبو بكر رضي الله عنه يومًا: «والله ما على الأرض رجل أحب إليَّ من عمر، فلما خرج: رجع، فقال: كيف حلفت أي بنية؟ فقلت له، فقال: أعز عليَّ والولد ألْوط(٢)»(٣).

أو إخوانهم: وثلث بالإخوة لأنهم هم المثابة عند الحاجة والناصر عند نشوب الأزمة ولما لهم من قوة القرابة.

أو عشيرتهم: وهم الأعمام فمن بعدهم.

أولئك: إشارة إلى الذين لا يوادون الكفار.

كتب في قلوبهم الإيمان: أي ثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك وخص القلوب بالذكر لأن القلوب موضع الإيمان فهي التي تعمى وتبصر

---

(١) أحمد (٤/ ١٧٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٩٧) رقم (١٢٢٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٩)، كتاب «الأدب»/ باب بر الوالد والإحسان إلى البنات. رقم (٣٦٦٦)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٩٥).

(٢) قال أبو عبيد: «الولد ألوط»: «أي ألصق بالقلب». «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٣).

(٣) «الأدب المفرد» (٤٢)/ باب الولد مبخلة مجبنة. رقم (٤٨)، وقال الألباني: «حسن الإسناد».

وتعقل، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦] وقال عن إبصار القلوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢] فالنور هو البصيرة في القلب.

وأما أنها تعقل فكما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فبصلاح القلب يصلح الجسد كله وبفساده يفسد الجسد كله، وسمي القلب قلبًا لتقلبه ولهذا كان أكثر دعاء المصطفى ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»، فقال له أصحابه: أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله ﷻ يقلبها». زاد الترمذي: «كيف يشاء»(١)، وبهذا يعرف المسلم قدر نعمة الله عليه بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ وأن من أعظم وسائل تثبيت القلب على الإسلام هو الولاء والبراء.

وأيدهم: أي قواهم ونصرهم.

بروح منه: أي بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وقيل: بنصر منه، وسمى نصره روحًا لأنه به يحيى أمرهم.

والضمير في (منه) يعود إلى الله تعالى. فعلى العبد أن يكثر من الافتقار إلى الله واللجوء إليه فإنه هو المستغاث وهو المستعان ولا حول ولا قوة إلا به.

---

(١) أحمد (٣/ ٢٥٧)، وابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» (١٧) رقم (٥٥)، والترمذي (٤/ ٤٤٨-٤٤٩)، كتاب «القدر»/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن. رقم (٢١٤٠)، وقال: «وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمر، وعائشة، وهذا حديث حسن»، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٨٧-٨٨) عن جابر، وقال: «هذا حديث ثابت باتفاق»، وقال أيضًا: «حديث النواس بن سمعان حديث ثابت رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن الطعن على واحد منهم». «الرد على الجهمية» (٨٨).

ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها: وكل من دخل الجنة فإنه يخلد فيها أبدًا ولا يخرج قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر:٤٨].

وصح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملحٍ فينادي منادٍ: يا أهل الجنّة فيشرئبُّونَ وينظرُون. فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النّار فَيَشْرَئِبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنّة خلود فلا موت، ويا أهل النّار خلود فلا موت، ثم قرأ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ -وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا- وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[1].

رضي الله عنهم: فيها إثبات صفة الرضا لله عز وجل وسبب الرضا: أنهم أسخطوا الناس وعادوهم لأجله فرضي عنهم وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من التمس رضا الله بسخط النَّاس رضي الله تعالى عنه، وأرضى عنه الناس**»[2].

ورضوا عنه: لأنه وفقهم لسلوك طريقه المستقيم، وغفر لهم وأدخلهم الجنة، وذلك لأنهم سخطوا على الناس لأجله فأرضاهم عنه.

قال أنس: أنزل الله عز وجل في الذين قتلوا ببئر معونة قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد «أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنّا ورضينا عنه»[3].

قال ابن كثير: «وفي هذا سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٢٨) كتاب «التفسير»/ باب وأنذرهم يوم الحسرة. رقم (٤٧٣٠).

(٢) ابن حبان في «صحيحه» (١/ ٥١٠) رقم (٢٧٦). قال أبو حاتم وأبو زرعة: «الصحيح أنه موقوف على عائشة» «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٢/ ١٠٣) رقم (١٨٠٠).

(٣) مسلم (١/ ٤٦٨) كتاب «المساجد»/ باب استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة. رقم (٦٧٧).

تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم»(١).

أولئك حزب الله: جند الله الذي يمتثلون أمره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه وفي إضافتهم إلى الله تشريف لهم عظيم وتكريم وتفخيم.

ألا: أداة تنبيه.

إن: للتوكيد.

حزب الله: أي عباد الله وأهل كرامته وجنده وأولياءه.

هم: ضمير الفصل يفيد اختصاص حزب الله بالفلاح دون غيرهم من الأحزاب الأخرى.

المفلحون: الفلاح هو الظفر بالمطلوب، والمفلحون هم الناجون الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة المختصون بالظفر بدخول جنات النعيم، و«قيل لأهل الجنة: مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد»(٢).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٦٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (٥/ ٧٢).

اعلم أَرْشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم.

....

لما كان التمسك بالدين والعمل بأحكامه وأخصها التوحيد ومعاداة الكافرين لكفرهم ومحبة المؤمنين لإيمانهم شاقًّا على النفوس تحتاج فيه إلى قدوة تقتدي بها حتى يسهل عليها ذلك، أبرز المؤلف القدوة المقتدى به وهو نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال: اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم.

اعلم: أي كن متهيئًا ومتفهمًا لما يلقى عليك من العلوم، ويؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة.

أرشدك الله: الرشد نقيض الغي والضلال، ومنه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[البقرة:٢٥٦] والإرشاد: هو الهداية والدلالة، والمعنى: أي هداك الله للإيمان والعمل الصالح ووفقك للاستقامة على طريق الحق وثبتك عليه.

والرشد ثمرة الإيمان والاستجابة لأمر الله ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[البقرة:١٨٦] فإذا استجبت وأطعت وفَّقك الله للاستقامة ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[الليل:٥-٧] وهو منّة من الله على عباده قال تعالى ممتنًّا به على إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٥١]، وكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه، كما في حديث حصين حين قال له ﷺ: لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك، فلما أسلم جاء إلى النبي ﷺ، فقال: علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال له: «**قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني شر نفسي**»[(١)].

---

(١) الترمذي (٥/ ٥١٩-٥٢٠)، كتاب «الدعوات» رقم (٣٤٨٣)، والدارمي في «نقضه على المريسي» (٥٩) رقم (٣٤)، وصححه ابن القيم في «الوابل الصيب» (٣٠٦)، وقال الترمذي كما في «تحفة الأحوذي» =

وفي رواية: «**اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري**»[١].

لطاعته: قال الأزهري: الطوع نقيض الكره طاع له إذا انقاد له ومضى لأمره[٢].

أن: حرف توكيد.

الحنيفية: قال ابن جرير: «الحنيف المستقيم من كل شيء، وقد قيل بأن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى إنما قيل له أحنف نظرًا له إلى السلامة كما قيل للمهلكة من البلاد مفازة بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل للديغ: السليم تفاؤلًا له بالسلامة من الهلاك فمعنى الكلام إذًا: قل يا محمد بل نتبع ملة إبراهيم مستقيمًا»[٣]، وذكر رحمه الله معنى آخر للحنيف، وهو المخلص، ومعنىً ثالثًا وهو المتّبع، ولم يذكر غير هذه المعاني الثلاث. وقال ابن عبدالبر: «والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام»[٤]، وقال ابن قتيبة: «الحنيف المستقيم وقيل: للأعرج حنيف نظرًا له إلى السلامة»[٥]، قال شيخ الإسلام: الحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات، قال محمد بن كعب: مستقيمًا، وقال عطاء وخصيف: مخلصًا[٦].

= (٩/ ٤٥٥) رقم (٣٥٥٠): «هذا حديث حسن غريب»، وقال شيخنا عبد الله الدويش: «وهو كما قال». «تنبيه القارئ» ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/ ١١٩).

(١) أحمد (٤/ ٤٤٤)، وقال شيخنا عبد الله الدويش: «وهذا الإسناد صحيح». «تنبيه القارئ» ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/ ١١٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٠٣-١٠٤).

(٣) «جامع البيان» (١/ ٥٦٤-٥٦٦).

(٤) «درء التعارض» (٨/ ٣٦٩).

(٥) «تفسير غريب القرآن» (٦٤).

(٦) تفسير عطاء (١٠٣)، و«جامع البيان» (١/ ٥٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٤٢)، وبه قال مقاتل في «تفسيره» (١٤١ و٤١٠)، ويحيى بن سلام (١/ ٩٧)، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٤٦)، ويستدل =

وقال آخرون: متبعًا[١]، فهو مستقيم القلب إلى الله دون ما سواه، قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾[فصلت:٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[الأحقاف:١٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «فلم يلتفتوا عنه يمنةً ولا يسرة»[٢]، وقال أيضًا: «الحنيف المستقيم إلى ربه دون ما سواه»[٣]، وقال ابن كثير: «حنيفًا: أي مخلصًا على بصيرة»[٤]. وروى ابن نجدة عن أبي زيد أنه قال: الحنيف المستقيم وأنشد:

تعلَّم أن سيهديكم إلينا ... طريقٌ لا يجورُ بكم حنيفُ[٥]

وقال القرطبي: قال قوم: الحنف الاستقامة فسمي دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته.

وسمي المعوج الرجلين أحنف تفاؤلًا بالاستقامة كما قيل للديغ سليم وللمهلكة مفازة في قول أكثرهم[٦]. وقال ابن القيم: «الحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره»[٧]. فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

= له بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ثم بيّن من هم المخلصون، فقال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ فتبين بهذا أن الحنيف هو المخلص.

(١) ممن قاله مجاهد. «جامع البيان» (١/ ٥٦٥)، و«التمهيد» (١٨/ ٧٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٣٩).

(٤) «البداية والنهاية» (١/ ٣٨٩).

(٥) «تهذيب اللغة» (٥/ ١١٠).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٤٠).

(٧) «جلاء الأفهام» (١٥٥).

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز: الحنيف: هو الذي أقبل على الله وأعرض عما سواه[(١)].

وهذا التفسير أعني تفسير السلف للحنيف هو الموافق للآيات القرآنية وللأحاديث النبوية، قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يفخر ويعتز بدينه ويفرح ويغتبط به: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦١].

فذكر أن الصراط المستقيم، هو الدين القيم، وهو الحنيف. فصار الحنيف هو المستقيم.

قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: قل لهم: إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به وذلك الحنيفية المسلمة فوفقني لها ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ يقول مستقيمًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ يقول مستقيما[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصّلت:٦]، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، ولم يقل: فميلوا إليه.

وكما في حديث عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إنَّ ربِّي أمرني أعلمكم ما جهلتم ممَّا علّمني يومي هذا. كل مالٍ نحلته عبدًا حلال، وإنّي خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطانًا**»[(٣)].

فبيّن ﷺ أن الأصل هو الاستقامة وأن الشياطين هي التي مالت بهم عن الطريق

---

(١) «شرح ثلاثة الأصول» (٣٥).

(٢) «جامع البيان» (٨/ ١١١).

(٣) مسلم (٤/ ٢١٩٧) كتاب «الجنة وصفة نعيمها»/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. رقم (٢٨٦٥).

المستقيم قال ابن عبدالبر: الفطرة: السلامة والاستقامة، ثم استدل بالحديث السابق، ثم قال عن قوله: إني خلقت عبادي حنفاء يعني على استقامة وسلامة والحنيف في كلام العرب المستقيم السالم وإنما قيل للأعرج أحنف على جهة الفأل كما قيل للقفر مفازة(١).

وههنا نكتة لطيفة يجب أن نعيها جيدًا وهي:

أن الأصل في آدم وبنيه هو التوحيد وأن الشرك طارئ ودخيل عليهم، ويدل له ما يلي:

١- أنه الغاية الكبرى من إيجادهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فإذا كان هو الغاية الكبرى من إيجادهم وجب أن يكونوا عليه أول أمرهم.

٢- أن آدم وحواء على التوحيد من أول وجودهم وهم أول البشر:

ويدل لذلك ما يلي:

أ- حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح: عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم...»(٣).

---

(١) «التمهيد» (١٨/ ٧٠-٧١).

(٢) ابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٣٧) رقم (٦١٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٢)، وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، وإن كان موقوفًا؛ فإن إسناده صحيح بمرة»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: «وهو كما قالا». «السلسلة الصحيحة» (٥/ ١٩١) رقم (٢١٥٩).

(٣) الترمذي (٥/ ٤٥٣)، كتاب «تفسير القرآن». رقم (٣٣٦٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ٩٢) رقم (٩٩٧٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٤١٠) رقم (٦٠٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٦٠) رقم (٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٤٠) رقم (٦١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». =

ب- أن آدم أول البشر كان نبيًا مكلمًا والأنبياء موحدون معصومون من الكفر والشرك ويدل لذلك أيضًا أنه يوم القيامة يعتذر بالأكل من الشجرة فقط(١) ولو كان قد وقع منه الشرك لاعتذر به لأنه أكبر إثمًا من الأكل من الشجرة.

ج- أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة لم يلتجئ إلى غير الله وإنما تاب لله وحده فقط ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣] ولو كان على الشرك -وحاشاه من ذلك- لالتجأ إلى من يعظمه ويدعوه غير الله عز وجل.

د- أن آدم عليه السلام ربى أبناءه على التوحيد وعاشوا عليه عشرة قرون ولم يكن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إلا بعد ذلك قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة:٢١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعةٍ من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»(٢).

وقال قتادة: «كانوا على الهدى جميعًا فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فكان أول نبي بعث نوحاً»(٣).

= وذكره ابن كثير عن أبي هريرة -مرفوعًا- من طريق آخر عند البزار بلفظ: «لما خلق الله آدم عطس فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم». ثم قال ابن كثير: «وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه». «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٧١)، كتاب «الأنبياء»/ باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود:٢٥]. رقم (٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٥)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ٣٣٤)، و«كشف الأستار» (٣/ ٤١) رقم (٢١٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، وصححه ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٠٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٦٢).

(٣) «جامع البيان» (٢/ ٣٣٥).

وهذا يدل على أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ دخيل.

قال شيخ الإسلام: «إن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان... فابتعث الله نبيه نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة ما سواه»(١).

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[يونس:١٩]: «أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام»(٢).

٣- ويدل على أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ دخيل حديث عياض بن حمار المجاشعي وفيه: «**وإنّي خلقتُ عبادي حُنفاء كلهم، وإنّهم أَتَتْهُم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وَأَمَرَتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزّل به سلطانًا**»(٣).

فقوله خلقت: فعل ماض يدل على أن الله حين خلقهم خلقهم حنفاء على التوحيد ثم إن الشياطين اجتالتهم ونقلتهم من التوحيد إلى الشرك.

٤- أن الفطرة هي التوحيد:

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣] والفطرة هي الأصل فهي متقدمة على الشرك والضلال يوضحها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما من مولودٍ إلا**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦٥٤).

(٣) سبق تخريجه.

يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه أو يُمجّسانه، كما تُنتِج البهيمة بهيمة جمعاء، هلْ تحسون فيها من جدعاء»، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[1].

يعلق ابن القيم على هذا الحديث فيقول: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع... فغير الفطرة إلى الشرك والخلقة إلى البتك والقطع فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة»[2].

والفطرة هي الإسلام كما تفسرها الرواية الأخرى: **«ما من مولود إلا ويولد على الملّة»**[3].

قال ابن القيم: «فهذا صريح بأنه يولد على ملة الإسلام»[4].

وقد سبقه إلى هذا القول جمع من أهل العلم وعلى رأسهم أبو هريرة والزهري[5] وأحمد[6] والبخاري[7] وغيرهم. بل قال ابن عبدالبر وهو المعروف عن عامة السلف[8].

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢١٩)، كتاب «الجنائز»/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه. رقم (١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧)، كتاب «القدر»/ باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة. رقم (٢٦٥٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠٧).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٤٨)، كتاب «القدر»/ باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٥٨).

(٤) «شفاء العليل» (٢/ ٣٠٢).

(٥) «التمهيد» (١٨/ ٧٦).

(٦) «درء التعارض» (٨/ ٣٦١).

(٧) البخاري مع الفتح (٨/ ٥١٢)، كتاب «التفسير»/ باب لا تبديل لخلق الله.

(٨) «التمهيد» (١٨/ ٧٢).

أما قوله ﷺ: «**يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم**»(١).

فله محملان:

الأول: أن المقصود بالضلال هنا هو عدم التمكن من معرفة تفاصيل الشريعة إلا بهدى من الله ويدل له لفظ الحديث فإنه قال فاستهدوني أهدكم فقوله فاستهدوني أهدكم أنهم يستقبلون أمرًا جديدًا وهو معرفة تفاصيل أسماء الله وصفاته، وأمور الآخرة، وما يتعلق بها، ومعرفة الأحكام الشرعية.

ويدل لهذا الوجه: قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[الضحى:٧]، ويوضح الضلال في هذه الآية وضوحًا تامًّا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢].

قال ابن كثير: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، يعني: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت:٤٤]»(٢).

وقال ابن رجب: «وقوله: «كلكم ضال إلا من هديته»: قد ظن بعضهم أنه معارض لحديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: خلقت عبادي حنفاء، وفي رواية: «مسلمين فاجتالتهم الشياطين»، وليس كذلك، فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام، والميل إليه دون غيره، والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة، لكن لا بد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم شيئًا، كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ

---

(١) مسلم (٤/ ١٩٩٤) كتاب «البر والصلة»/ باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٢٢٨).

﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[النحل:٧٨]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[الضحى:٧].

والمراد: وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[الشورى: ٥٢][(١)].

وقال السعدي: «﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب والإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق»[(٢)].

الثاني: أن المقصود به أن هداية التوفيق لا يملكها إلا الله ﷻ فيجب أن تطلب منه وحده قال ﷻ مخاطبًا أفضل خلقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص:٥٦].

واعترف أهل الجنة بذلك فقالوا كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

ولذلك يجب أن تطلب منه وحده ولهذا قال: «فاستهدوني أهدكم» أي اطلبوها مني فإنني أنا الذي أملكها وأعطيكم إياها.

ولا منافاة بينهما فهداية التوفيق بيد الله وحده ومعرفة تفاصيل صفات الرب وأحكامه لا تعرف إلا منه سبحانه فلتطلب جميعها منه.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٦٢-٦٦٣)، وللكلام بقية نافعة، تركتها خشية الإطالة، فراجعها إن شئت.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٨٧).

وأما حديث الكتابة: حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إنَّ أحدكم يُجْمعُ خلقه في بطنِ أمِّهِ أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثُمّ يكون مُضْغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلماتٍ: فيكتب عملهُ ورزقه وأجلهُ، وشقيّ أو سعيد، ثم ينفخُ فيه الرُّوحُ...**»[1].

فيجاب عنه بأنه لا يخالف الأحاديث الدالة على أنه يولد على الفطرة والملة؛ لأن المراد بكتابة الشقاوة والسعادة إنما هو باعتبار المآل والخاتمة ولهذا قال النبي ﷺ بعد ذلك في نهاية الحديث السابق: «**فإنَّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينهُ وبينها إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخل الجنّة، وإنَّ الرَّجل ليعمل بعملِ أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار، فيدخل النّار**».

قال شيخ الإسلام: «والمقصود هنا تفسير قوله: «**كل مولودٍ يولد على الفطرة**»، وأن من قال بإثبات القدر وأن الله كتب الشقي والسعيد لم يمنع ذلك أن يكون ولد على الإسلام ثم تغيّر بعد ذلك كما تولد البهيمة جمعاء ثم تغَيّر بعد ذلك فإن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه فيعلم أنه يولد سليمًا ثم يَتَغَيّر.

والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول الذي رجحناه وهو أنهم ولدوا على الفطرة ثم صاروا إلى ما سبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة»[2].

وكذلك قوله ﷺ: «**إن الغُلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولوْ عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا**»[3]، فإن المراد إنما هو باعتبار القدر والمآل قال شيخ الإسلام: «طبع أي طبع

---

(١) البخاري (٤/ ١٦١) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب خلق آدم. رقم (٣٣٣).

(٢) «درء التعارض» (٨/ ٤١٠).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٥٠) كتاب «القدر»/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. رقم (٢٦٦١).

في الكتاب: أي قُدِّرَ وقُضي لا أنه كان كفره موجودًا قبل أن يولد. فهو مولود على الفطرة السليمة وعلى أنه بعد ذلك يتَغَيّر فيكفر كما طُبع كتابه يوم طُبع»[١].

ملة إبراهيم: الملة هي السنة والطريقة[٢]. والمقصود بملة إبراهيم أي طريقته ودينه وهي التوحيد.

ولأهميتها الكبرى أوصى نبينا محمد ﷺ أمته كلهم أن يرددوها بألسنتهم في الصباح والمساء فرحًا وتذكيرًا للنفس بها فقال: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيِّنا مُحمّدٍ ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[٣].

فتأمل هذه الألفاظ كيف جعل **الفطرة** للإسلام فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها و**كلمة الإخلاص**: شهادة أن لا إله إلا الله، و**الملة** لإبراهيم فإنه صاحب الملة وهي التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي ﷺ وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله[٤].

ونسبة الحنيفية إلى إبراهيم عليه السلام أمرٌ مشتهر عند الناس حتى قبل الإسلام ونزول الوحي على نبينا محمد ﷺ، قال موسى حدثني سالم بن عبدالله -ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلي أَنْ أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا

---

(١) «درء التعارض» (٨/ ٣٦٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٥١).

(٣) أحمد (٣/ ٤٠٧)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٩/ ٧٧) رقم (٦٥٩١)، و«سنن الدارمي» (٢/ ١٧١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩/ ٥) رقم (٩٧٤٣)، وصحح إسناده النووي في «الأذكار» (٦٨)، والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٤٣٢)، وقال ابن باز: «خرجه الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح». «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٢٦/ ٣٢).

(٤) «جلاء الأفهام» (١٥٤)

حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيدٌ: ما أفرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله قال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنّى أستطيع. فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا، قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم»[(١)].

ونسبت الحنيفية إليه: لأن له من مقام تحقيق العبودية لله ما ليس لأحد قبله (فهو خليل الرحمن) قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء:١٢٥] والخُلَّة هي أعلى درجات المحبة، وقد جعله الله قدوة يقتدى به في الخير فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠].

وأمة: أي إمامًا يقتدى به في الخير.

وصار عليه السلام قدوة لأنه اجتمع فيه عدة أمور:

١ - **أنه أعطي الرشد (فجمع بين العلم والعمل)** قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾[الأنبياء:٥١] والرشد هو الاستقامة على الحق، ولا تحصل الاستقامة إلا بالعلم، ولهذا قال لأبيه عندما دعاه إلى التوحيد: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[مريم:٤٣].

---

(١) سبق تخريجه.

٢- الدعوة إلى التوحيد بجميع الطرق:

دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك بل أضعف وخلخل ثقتهم بالأصنام ومحبتهم لها بالطرق التالية:

أ- المناظرة:

أبطل عبادة الكواكب بحجة أنها تغيب فمن ينفعهم ويدفع عنهم الضر إذا غابت، قال تعالى ذاكرًا تلك المناظرة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٧٦-٧٨]. فأقام البرهان على بطلان الشرك بأفولها جميعًا، ثم تبرأ منه.

ب- تحطيم الآلهة:

من أعظم الجهل أن يصنع الإنسان شيئًا ما يتخذه إلهًا، أين العقل، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[الصافات:٩٥]، فالعقل السليم هو من يتجه إلى خالقه، هو: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وليس لما صنعه هو، فما كان منهم إلا أن احتجوا بالآباء والأجداد، ولم يقبلوا نصيحته، فلما لم تجد النصيحة انتقل إلى كسر الأصنام ولم يبق إلا أكبرها، لعله أن يخرج عبادة الأصنام من قلوبهم، ولما سألوه عمّن كسّرها وجعلها جذاذًا: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء:٦٣]؛ أي: أن أكبرها أصابته الغيرة كيف تعبد معه هذه الآلهة الصغيرة، فكسرها لينفرد بالعبادة وحده، ومقصود إبراهيم هو إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه. ولهذا ثابت عقولهم إليهم وعلموا أنهم مخطئون في عبادتهم لها فأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك فلزمتهم الحجة بإقرارهم بأن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الأنبياء:٦٤].

ج- طريقة الموعظة واللطف في التعليم:

تلطف خليل الرحمن عليه السلام مع أبيه أثناء دعوته إلى التوحيد موضحًا له أن هذه الأصنام ليس لديها القدرة على جلب نفع أو دفع ضُر إذْ هي لا تسمع داعيها ولا تبصر خضوعه وذله لها مؤكدًا أنه قال له ذلك عن علم ويقين وهدى من الله لم يدركه أبوه ولم يعلم به لأنه وحيٌّ من الله. محذرًا إياه من عبادة أشد أعدائه وأخسّهم وذلك أن من أطاع الشيطان فقد عبده فهل يرضى بعبادة أخس خلق الله ثم ختم تلك الدعوة المباركة بأنه ما دعاه وكرر عليه وأبدأ وأعاد إلا شفقةً وخوفًا عليه من عذاب الله.

وفي هذا كفاية لمن أراد الله هدايته قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[مريم:٤١-٤٥].

٣- الصبر على مشاق الدعوة:

لا يمكن للداعية أن يستمر في دعوته إلا إذا صبر وصابر.

ولقد سطر نبي الله إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة ومن ذلك:

أ- ألقي في النار لأجل دعوته إلى التوحيد فماذا فعل؟ إنه صبر وقال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

ب- هجران أبيه له بدون سبب إلا أنه أمره بالتوحيد، ونهاه عن الشرك قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[مريم:٤٦] وهذا موقف ما أصعبه. أقرب الناس إليه يهجره ولا يكلمه مع أنه لم يخطئ في حقه. بل هو محسن إليه يريد نجاته من نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى.

ج- موقف البراءة والمفاصلة:

ومن لوازم دعوة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: الولاء والبراء. موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين. وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام لما رأى أن جميع وسائل الدعوة لم تجد مع قومه قرر الاعتزال عنهم والبراءة منهم وهذا من أشق وأصعب الأمور على النفوس قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٨].

٤- الاستسلام التام لأمر الله:

ويظهر ذلك جليًا عندما ذهب بابنه إسماعيل إلى مكة هو وأمه ووضعهما في مكان قفر ليس به أنيس، ولما رجع عليه الصلاة والسلام لحقته هاجر وهي تقول له إلى من تتركنا وهو لا يجيبها ثم قالت له آلله أمرك بهذا، قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا ثم رجعت.

وضعهما في هذا المكان ولم يمتنع من وضعهما فيه، ويتعلل بخوف الموت والوحشة مع شدة حبه لهما، ألا ترى أنه يدعو لهما: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧].

وعندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه خرج به ليذبحه استسلامًا لأمر الله قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾[الصافات:١٠٣-١٠٦].

الله أكبر ما أعظم هذا الاستسلام لله [ابن رزق إياه عند الكبر ومع ذلك استرخصه لأجل الله].

٥- أنه أب للمدعوين:

عندما دعا الرسول ﷺ قريشاً إلى الإسلام اعتذروا بأنهم على دين الآباء وأن ترك دينهم تسفيه لهم. فقال لهم: إن إبراهيم عليه السلام هو أبوكم الأول، فإذا لم تعبدوا الله وحده

وتتبعوا ملة أبيكم إبراهيم فقد سفهتم أباكم الأول، وهذا من قلب الحجة على المبطل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠].

٦- أن الناس تفخر بالانتساب إلى دين إبراهيم عليه السلام وتحبه:

فاليهود قالوا نحن على دين إبراهيم والنصارى قالوا: نحن على دين إبراهيم والمشركون قالوا نحن على دين إبراهيم والمسلمون قالوا: نحن على دين إبراهيم فيا ترى من هو الصادق من هؤلاء؟

إن الصادق من هؤلاء هم المسلمون وحدهم فقط، قال تعالى مبينًا ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٦٧، ٦٨].

فبيّن الله أن أتباع النبي محمد ﷺ هم الذين على دين إبراهيم ﷺ فقط دون غيرهم فعليكم أيها المشركون أن تتبعوا محمدًا ﷺ حتى يكون انتسابكم إلى إبراهيم عليه السلام انتسابًا صحيحًا.

٧- أنه أول خليل لله حيث إنه وصل درجة لم يصلها أحد قبله. تفضل الله عليه بها لشدته في معاداة أعدائه ومصارمتهم لأجله.

ولذلك نوع الله الأساليب الداعية للاقتداء به عليه الصلاة والسلام **فجاءت بصيغ متعددة منها:**

أ) الأمر المباشر للنبي محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ب) أمر الرسول ﷺ بالفرح والاغتباط والافتخار بأنه على دين إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[الأنعام:١٦١].

جـ) الأمر العام لجميع الأمة باتباع ملة إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران:٩٥]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾[الحج:٧٨].

و﴿مِّلَّةَ﴾ منصوب على إضمار فعل أي اتبعوا والزموا ملة إبراهيم ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وهذا هو الذي يقال له الإغراء[1].

د)- أن تارك ملة إبراهيم جاهلٌ رضي لنفسه بالدُّون:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠] أي جهلها وامتهنها ورضي لها بالدون وباعها بصفقة المغبون[2] وذلك أن الله قسم الخلائق قسمين:

أ) سفيهًا لا أسفه منه وهو من رغب عن ملة إبراهيم إلى الشرك.

ب) رشيدًا لا أرشد منه: وهو من لزم التوحيد وتبرأ من الشرك قولًا وعملًا وحالًا. فكان قوله توحيدًا وعمله توحيدًا وحاله توحيدًا ودعوته إلى التوحيد وبهذا أمر الله جميع المرسلين من أولهم إلى آخرهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥][3].

---

(١) «جلاء الأفهام» (١٥٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٨).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٢).

أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين.

....

أن: وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر (أنَّ) والتقدير: اعلم أن الحنيفية ملة إبراهيم عبادة الله تعالى وحده بإخلاص(١).

قال تعالى آمرًا نبيه بالعبادة وإخلاصها لله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزمر:٢-٣]. وأمره أن يخبر الناس بإخلاصه لله ليقتدوا به فقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر:١١]. وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[الزمر:١٤]. وأَمْرُ الرسول ﷺ بالإخلاص أمر لأمته، ومع ذلك ورد أمر لعموم الأمة بإخلاص العبادة لله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

تعبد الله: أتى بصيغة الفعل المضارع لبيان استمرار العبادة في المستقبل فليس لها نهاية إلا بالموت، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩] واليقين هنا هو الموت ويدل له حديث أم العلاء قالت: سكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمرّضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لي النبي: «**وما يدريك أنَّ الله أكرمه**»، فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فقال رسول الله: «**أمَّا عثمان فقد جاءه والله اليقينُ، وإنِّي لأرجو له الخير**»(٢).

---

(١) «حصول المأمول» (٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٥/ ٢٩٣) كتاب «الشهادات»/ باب القرعة في المشكلات. رقم (٢٦٨٧).

وبوب البخاري بابًا سمَّاه: «باب: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩]، ثم ذكر تحته قول سالم، فقال: «قال سالم: اليقين الموت»[١].

والعبادة: أصل معناها الذل، يقال: طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن غاية الذل لله[٢] بغاية المحبة له[٣].

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان[٤]

فقد يخضع الإنسان لأحد مع بغضه له فلا يكون عابدًا له وقد يحب أحدًا ولا يخضع له فلا يكون عابدًا له كمن أحب ولده وصديقه.

وعلى هذا فتكون العبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح.

وفي الاصطلاح: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[٥].

وعبادة الله شرف للإنسان بل هي أعظم ما يشرف به بنو آدم، ولذلك أثنى الله على النبي ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته وأكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء:١] وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن:١٩] وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٨٣).

(٢) فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد لأنه مرَّغ جبهته بالتراب وخضع للملك الوهاب وأظهر غاية الذل والخضوع والانكسار بين يديه بأعلى شيء فيه وهو الجبهة.

(٣) انظر: «الرد على المنطقيين» (١٤٥).

(٤) «الكافية الشافية» (١/ ١٧٩-١٨٠) رقم (٥١٤، ٥١٥).

(٥) «العبودية» (٣٨).

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة:٢٣].

وقد جمعت في هذا البيت:

إسراء عبدٍ ثم دعوة ربه وكذاك وحي في التحدي أربع

أنواع العبودية:

العبودية نوعان:

١- عبودية عامة: وهي عبودية الخضوع لأمر الله الكوني وهذه يشترك فيها كل المخلوقات: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٣] وتسمى العبودية الكونية.

٢- عبودية خاصة: وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وهي محبة الله وطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر:١٧، ١٨] وتسمى العبودية الشرعية، ولذا كان الناس من حيث العبودية الخاصة ثلاثة أقسام:

١) من لم يعبد الله فهو كافر مستكبر، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

٢) من عبد الله وعبد معه غيره فهو كافر مشرك: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

٣) من عبد الله وحده فهو المسلم المخلص: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠].

فالإخلاص هو حقيقة الإسلام، والإسلام: الاستسلام لله لا لغيره قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٢٩].

شرطا صحة العبادة:

لا تصح العبادة ولا تكون مقبولة عند الله إلا إذا توفر فيها شرطان:

١- **الإخلاص**: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]

٢- **المتابعة**: قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فهُوَ رَدٌّ**»(١).

ويجمع هذين الدليلين قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه(٢).

وشيخ الإسلام يذكرهما بطريقة أخرى فيقول: **إن الدين يقوم على أصلين هما:**

١- أن لا نعبد إلا الله.

٢- أن لا يعبد إلا بما شرع(٣).

أقسام الناس بحسب هذين الأصلين:

وينقسم الناس بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام.

١- أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ:

وهم أهل (إياك نعبد) حقيقة، فأعمالهم وأقوالهم وحبهم وبغضهم كلها لله، لا يريدون جاهًا ولا محمدة -قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور- فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وجعلها موافقة لأمره ولما شرعه رسوله ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٣).

٢- من لا إخلاص له ولا متابعة:

فليس عمله موافقًا للشرع وليس خالصًا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله فلهم أوفر نصيب من قوله تعالى: ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[آل عمران:١٨٨]. يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص وهم ليسوا من أهله.

٣- من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة:

كجهال العبّاد الذين يظنون أن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة وأن مواصلة صيام الليل والنهار قربة، وأن سماع المكاء والتصدية قربة.

٤- من وجدت عنده المتابعة ولكنه فقد الإخلاص:

كالرجل يتعلم العلم ليقال عالم، ويقاتل شجاعة وليرى مكانه في الصف، ويقرأ القرآن ليقال قارئ، ويتصدق ليقال جواد، قال ﷺ قال الله ﷻ: «**أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عملًا أشركَ معي فيه غيري تركته وشركه**»(١)(٢).

فالقسم الأول عملهم مقبول وما عداه فمردود لا قيمة له، بل هو وبال على صاحبه.

مخلصًا له الدين: فسر المؤلف الحنيفية «بالإخلاص» وهو أحد تفاسير السلف(٣).

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر كتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام (٨٩-٩٠)، و«حقيقة العبودية» لابن القيم (٢٥-٣٠).

(٣) انظر: (ص٢٤٧) من هذا الكتاب.

«فحنيفًا حال مفردة لمضمون قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ولهذا فسرت «مخلصًا» فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص. فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف: المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك فالأول توحيد الطلب والثاني توحيد المطلوب»(١).

الإخلاص: لغة: الخاء واللام والصاد أصل واحد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، وأخلص الشيء؛ أي: أصفاه ونقاه من شوبه، ومنه: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾[النحل:٦٦]. قال الليث: الإخلاص: التوحيد لله خالصًا، ولذلك قيل لسورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص(٢).

واصطلاحًا: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة فعلًا أو تركًا.

قال سهل بن عبدالله: «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خالصة».

وقال ابن القيم: «الإخلاص: قصد المعبود وحده بالتعبد»(٣).

وقال ابن مفلح: «الإخلاص عمل القلب وهو أن يقصد بعمله الله وحده»(٤).

فيجب على المسلم أن يكون همه وقصده في عمله هو وجه الله تعالى فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي**

---

(١) «جلاء الأفهام» (١٥٥).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٠٨)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ١٣٩).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٨١).

(٤) «المبدع» (١/ ٤١٤).

العُليا فهو في سبيل الله»(١).

فلم يعتبر النبي ﷺ للقتال مع مشقته أيّة قيمة في ميزان الله إلا إذا صلح القصد وأريد به وجه الله.

فإذا لم يصلح القصد صار العمل وبالًا على صاحبه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ أوّل النّاس يقضى يوم القيامة عليه: رجلٌ استشهد، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتّى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأنْ يُقال: جريء، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتّى ألقي في النّار.**

ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلّمهُ، وقرأ القُرآنَ، فأتي به فعرّفه نعمهُ فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت. ولكنّك تعلّمت ليقال: عالم وقرأت ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتَّى ألقي في النّار.

ورجلٌ وسّعَ اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنّك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النّار»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٧)، كتاب «الجهاد»/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. رقم (٢٨١٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٢) كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. رقم (١٩٠٤).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤)، كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. رقم (١٩٠٥).

فهذه أعمال جليلة عظيمة. قتال في سبيل الله ضد الكفار، وتعلم القرآن وتعليمه، وصدقة وإنفاق. كلها تضيع سدى. لا. بل يعذب أهلها بها لأنها فقدت شرطًا عزيزًا هو الإخلاص. وذلك أنه: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت. فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح.

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله خزائنه لا يملكها غيره.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال رجل للنبي ﷺ: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «**ذلك الله**»(١)، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه وارغب في مدح مَنْ كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين»(٢).

أما إذا وجد الإخلاص في العمل الصالح عظّمه وجُزِيَ صاحبه عليه الجزاء الأوفى.

---

(١) الترمذي (٥/ ٣٨٧-٣٨٨)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة الحجرات. رقم (٣٢٦٧)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والطبري في «جامع البيان» (٢٦/ ١٢١)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد متصل»، «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٤)، واسم الرجل هو الأقرع بن حابس، كما بيّنته رواية أحمد (٣/ ٤٨٨)».

(٢) «الفوائد» (٢٦٠-٢٦١).

وذلك أن «النوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في حديث البطاقة[١]. فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون: (لا إله إلا الله) ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة... وكذلك المرأة البغي التي سقت الكلب بإيمان وإخلاص غفر الله لها[٢] والذي وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له[٣]، فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص»[٤] وبهذا المعنى يقول عبدالله بن المبارك: «رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تُصغِّره النية»[٥].

ولعظم قيمة الإخلاص في الطاعة والعبادة كان السلف يدعون الله أن يرزقهم ذلك كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله

---

(١) أحمد (٢/ ٢١٣)، الترمذي (٥/ ٢٤-٢٥)، كتاب «الإيمان»/ باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧)، كتاب «الزهد»/ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. رقم (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦)، وقال: «هذا حديث صحيح لم يخرج في «الصحيحين»، وهو صحيح على شرط مسلم». قال الذهبي: «إسناد جيد». «معجم الشيوخ» (١/ ١١٤).

(٢) مسلم (٤/ ١٧٦١)، كتاب «السلام»/ باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها. رقم (٢٢٤٥).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ١٣٩)، كتاب «الأذان»/ باب فضل التهجير إلى الظهر. رقم (٦٥٢)، ومسلم (٣/ ١٥٢١)، كتاب «الإمارة»/ باب بيان الشهداء. رقم (١٩١٤).

(٤) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢١٨-٢٢٦) باختصار، وإن شئت فانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٢).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٩)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).

لوجهك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»(١).

بل يربون غيرهم على الإخلاص ويحذرونهم من حظوظ النفس التي تفسد العمل فهذا شداد ابن أوس بن ثابت الأنصاري يقول: «يا بقايا العرب يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»(٢).

وما أحوج المسلمين جميعًا إلى الإخلاص وأهل العلم والدعوة على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف:١٠٨].

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب على هذه الآية: «التنبيه على الإخلاص، لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه»(٣).

ولقد كان السلف يهتمون لسلامة العمل وخلوصه من الشوائب المحبطة للعمل، المفسدة للنية أكثر من اهتمامهم للعمل.

ومن أقوالهم في ذلك:

قال الإمام أحمد: «شرط النية شديد»، لما قال له أبو داود: «كتبت الحديث بنية»(٤).

وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي إنها تتقلب عليّ»(٥).

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٣).

(٣) كتاب «التوحيد مع القول السديد» (٢٨).

(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٠).

(٥) «الجامع» للخطيب (١/ ٣١٧).

وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»(١).

وقال عبدالله بن مطرف «تخليص العمل حتى يخلص أشد من العمل»(٢).

وقال أويس القرني: «إذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك فلن تعالج شيئًا أشد عليك منهما»(٣).

وأما يوسف بن الحسين فيشير إلى صعوبة الإخلاص، قائلًا: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر»(٤).

وسر مشقة الإخلاص بينه سهل بن عبدالله فقال: «ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب»(٥).

ومما يعين على الإخلاص إخفاء العمل الصالح عن الناس، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»(٦).

وقال الخريبي: «كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها»(٧).

والأمثلة من حال السلف في إخفاء الطاعات كثيرة لكن أكتفي بذكر مثالين منها:

١- صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله وكان خرازًا يحمل غداءه من

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٩).

(٢) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢١).

(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ٥٥).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(٦) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٢)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٢٣).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٩).

عندهم فيتصدق به في الطريق ويرجع عشيًا فيفطر معهم[١].

٢- قال عبدالله بن سنان كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان بطرسوس فصاح الناس النفير فخرج ابن المبارك والناس فلما اصطف الجمعان خرج رومي فطلب البراز فخرج إليه رجل فشدّ العلج عليه فقتله حتى قتل ستة من المسلمين. وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إلي ابن المبارك فقال: يا فلان إن قتلت فافعل كذا وكذا ثم كتم وجهه بكمه ثم حرّك دابته وبرز للعلج فعالج معه ساعة فقتل العلج وطلب المبارزة فبرز له علج آخر فقتله حتى قتل ستة علوج وطلب البراز فكأنهم كاعوا عنه[٢] فضرب دابته وطرد بين الصفين فأخذ عبدة بن سليمان المروزي بطرف كمه فمده فإذا هو عبدالله بن المبارك فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا»[٣].

له الدين: اللام: للاستحقاق. والضمير في له يعود إلى الله تعالى.

الدين: لغة: الطاعة والعبادة والخضوع والخُلق، ومنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤] قال ابن عباس: «دين عظيم»[٤]، واصطلاحًا: طاعة الله الدائمة اللازمة التي صارت عادة وخلقًا.

والدين مصدر والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول. فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع[٥].

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٩٤) وقوله أربعين سنة لا يلزم منه أن يصوم كل يوم فتنبه.

(٢) كاعوا عنه: أي جبنوا عنه.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٨ و٣٩٤).

(٤) «جامع البيان» (٢٩/ ١٨).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥٨) باختصار.

وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]. **ومعنى يعبدون: يوحدون.**

....

وبذلك: إشارة إلى ملة إبراهيم (الإخلاص).

أمر الله: الأمر هنا هو واحد الأوامر وهو الطلب على سبيل الإلزام.

والأدلة على أن الله أمر الخلق بعبادته كثيرة، **منها**:

أن الله أمر نبيه أن يخبر الناس أن الله أمره بإخلاص العبادة حتى يقتدوا بنبيهم ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر:١١].

بل جاء الأمر عامًا لكل الناس في آي كثيرة من القرآن منها:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠]. وقوله تعالى ذاكرًا جواب عيسى عليه السلام عندما سأله أهو قال للناس اتخذوني وأمي إلهين: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة:١١٧]. وقوله تعالى: مبينًا أنهم أمروا به في سائر الشرائع: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

وأنه عاقب من عصى أوامره، فقال: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[الذاريات:٤٤].

وإذا أمر الله العبد بأمر وجب عليه فيه سبع مراتب:

١- العلم به: مثال: إذا عرف الإنسان أن الله أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك وجب عليه أن يعلم المأمور به ويسأل عنه إلى أن يعرفه ويعلم المنهي عنه ويسأل عنه إلى أن يعرفه.

٢- محبته ما أنزل الله وما أمر به وهو التوحيد.

٣- العزم على الفعل: وقد يوجد من الناس من علم وأحب ولكنه لم يعزم على الفعل.

٤- العمل: وكثير من الناس يعزم أو يعمل، ثم إذا نهاه من يعظمه من الشيوخ ترك العمل.

٥- أن يقع خالصًا صوابًا: فإن كثيرًا ممن عمل لا يقع خالصًا فإن وقع خالصًا لم يقع صوابًا.

٦- الحذر من فعل ما يحبطه: فإن الصالحين يخافون من حبوط العمل لقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:٢] وهذا من أقل الأشياء في زماننا.

٧- الثبات على الحق والتوحيد والخوف من سوء الخاتمة(١).

جميع الناس: أي كل الناس.

الناس: كلمة يعني بها الجن والإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨] ولا خلاف أنه ﷺ مرسل إلى الجن كما أنه مرسل إلى الإنس.

وخلقهم: الخلق هو الإيجاد من العدم على غير مثال سابق.

لها: الضمير في لها يعود إلى ملة إبراهيم وهي عبادة الله وحده مخلصًا له الدين.

وقدم الأمر على الخلق لأن الخلق لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] فمن لم يعمل بالأوامر صارت حياته وبالًا عليه.

وما: الواو للاستئناف و(ما) نافية فتنفي العبث من خلق الإنس والجن، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

خلقت: فيه أعظم دليل على أنه المنفرد بالخلق لأنه تعالى ذكر الخلق بصيغة الإفراد وأضافه إلى نفسه، فهو خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وحصر

---

(١) «الدرر السنية» (٢/ ٣٨-٣٩) بشيء من التصرف.

الخلق على ذاته المقدسة، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤] فقدم ما حقه التأخير ليفيد حصر الخلق له سبحانه وحده، وذلك لأن الخلق هو أخص خصائص الإله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧].

الجن والإنس: الألف واللام في الجن والإنس للاستغراق، فيكون الأمر بالعبادة عامًا لجميع الإنس والجن، وليس خاصًّا بالمؤمنين، ويدل له ما يلي:

١- لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له فلماذا لم تذكر الملائكة فيقال وما خلقت الجن والإنس والملائكة مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

٢- لو كان المقصود المؤمنين فقط لم يذكر الإنس والجن عمومًا ولخصهم بالذكر.

٣- سياق الآية يقتضي أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم. لأن الله خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له ولهذا عقبها بقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات:٥٧] فإثبات العبادة ونفي طلب الرزق منهم يبين أنه خلقهم للعبادة ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ أي نصيبًا ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾[الذاريات:٥٩] أي المتقدمين من الكفار... فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآيات من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبده من الإنس والجن.

٤- ذكره عقابه لهم في الدنيا والآخرة ثم ذكره وعْدَه للمؤمنين ثم ذكره قصص من آمن فنفعه إيمانه ومن كفر فعذبه بكفره كقصة إبراهيم ولوط وقومه وعذابهم، ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[الذاريات:٣٧] ثم ذكره قصة موسى وعاد وثمود وآياته في بناء السماء وفرش الأرض وخلق كل شيء من زوجين، ثم لما بين الآيات الدالة

على وجوب الإيمان به وعبادته أمر بذلك، فقال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[الذاريات:٥٠، ٥١] ثم بين أن هؤلاء المكذبين من جنس من قبلهم ليتأسى الرسول والمؤمنون بمن سبقهم من الرسل فيصبروا على ما ينالهم من أذى الكفار.

فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق من يفعل العقوبة في الدنيا والآخرة فإذا قال بعد ذلك: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾[الذاريات:٥٦، ٥٧] كان هذا مناسبًا لما تقدم مؤتلفًا معه: أي هؤلاء الذين أمرتهم إنما خلقتهم لعبادتي لا أريد منهم غيرها.

٥- أنه لو قيل لم يرد بذلك إلا المؤمنين كان هذا عذرًا لمن عصى الله ولم يطع أمره. كأن يقول يا رب أنت خلقتني لأكفر ولم تخلقني لأكون مؤمنًا فليس علي ذنب ولا أستحق العقوبة. وكلام الله منزه عن هذا القول. فوجب المصير إلى القول بالعموم(١).

والواو في قوله والإنس عاطفة فجمعت المعطوف والمعطوف عليه في حكمين هما:

١- في كونهما جميعًا خلق الله.

٢- في علة الخلق.

إلا: استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي وما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة(٢). وفائدة حذف المستثنى منه ليكون أبلغ في النفي.

ليعبدون: اللام تنقسم إلى قسمين:

١- لام العلة الباعثة للفعل، وهي لبيان الجملة الشرعية المتعلقة بالإرادة الشرعية الدينية وهي مستلزمة لمحبة المراد. ولكن قد تقع وقد لا تقع كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٠-٥٦).

(٢) «القول المفيد» (١/ ١٩).

﴿وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]. فالله خلقهم لعبادته وقد يعبدونه وحده وقد لا يعبدونه وحده.

٢- لام الصيرورة والعاقبة: وتكون لبيان العاقبة الكونية [الإرادة الكونية القدرية] فهذه مستلزمة لوقوع المراد فلابد من وقوعها كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾[هود:١١٨، ١١٩] أي خلق قومًا للاختلاف وقومًا للرحمة(١).

فاللام في ليعبدون هي لام العلة الباعثة المتعلقة بالإرادة الشرعية فقد تقع وقد لا تقع، فالله أراد منهم شرعًا أن يعبدوه فمنهم من عبده ومنهم من عصاه(٢).

يعبدون: قال علي بن أبي طالب: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي(٣).

واختاره الزجاج ومجاهد، وشيخ الإسلام، واستدل له بأحد عشر دليلًا من القرآن ودليلين من السنة، وقال: فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعًا(٤)، وابن كثير(٥) والشنقيطي(٦) وغيرهم.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٦)، و(٨/ ٥٥-٥٦ و٨٦-١٨٩). و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٢٠١).

(٢) ولا يمكن أن يكون المقصود بهذه اللام في ليعبدون لام العاقبة لأن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز فالجاهل كقوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ فلم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: «لدوا للموت وابنوا للخراب» فإنهم يعلمون هذه العاقبة لكنهم عاجزون عن دفعها والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل أو العاجز. «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٤).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢-٥٣).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٢٥).

(٦) «أضواء البيان» (٧/ ٦٧٣-٦٧٤) وقال هذا هو التحقيق واستطرد بذكر الأدلة على ذلك.

وقيل: يوحدون[١]، قال ابن قتيبة عند قوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[الزخرف:٨١]، أي: «أول الموحدين، ومن وحّد الله فقد عبده، ومن جعل له ولدًا أو ندًّا، فليس من العابدين، وإن اجتهد»[٢]، واختاره المؤلف.

قال ابن الجوزي: وذكر أهل التفسير أن العبادة في القرآن على وجهين:

١- التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦] أي وحدوه.

٢- الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٣] [القصص:٦٣].

ولا منافاة بين هذين القولين، فإن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد بل لا تسمى عبادة إلا بالتوحيد، قال ابن قاسم: «كلما وردت العبادة في القرآن فمعناها توحيد الله بجميع أنواع العبادة وسميت وظائف الشرع عبادات لأنهم يفعلونها خاضعين لله فيكونون من أهل رضاه»[٤].

---

(١) «تفسير غريب القرآن» (٤٢٢)، و«مشكل القرآن» (٣٧٣)، و«معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٢) «تأويل مشكل القرآن» (٣٧٣).

(٣) «نزهة الأعين النواظر» (٤٣١-٤٣٢).

(٤) «حاشية على كتاب التوحيد» (١٣).

وأعظم ما أمر الله به : التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة.

....

أعظم: أفعل تفضيل وأفعل التفضيل يكون بين شيئين أو أشياء اتفقت في صفه فيكون أعظم: هنا بمعنى: أكبر[١]. فلما كان الإيمان شعباً متفاضلةً فيه أعلى وفيه أدنى صار أعلاها وأعظمها التوحيد لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: **«الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قول: لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ»**[٢].

ما أمر الله به: يفيد قوله ما أمر الله به أن الدين ينقسم إلى قسمين: أوامر ونواهي.

التوحيد لغة: مصدر وحد يوحد توحيدًا.

والأحد في صفة الله أي واحد لا ثاني له، فلا يجوز أن يوصف به غير الله[٣]، ومنه قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١].

اصطلاحًا: هو إفراد الله[٤] بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

أو: إفراد الله بما يختص به.

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧].

(٢) مسلم (١/ ٦٣) كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها. رقم (٥٨).

(٣) «تهذيب اللغة» (٥/ ١٩٢).

(٤) إفراد الله: أي جعله فردًا أي واحدًا لا ثاني له، فلا يخلق ولا يرزق، ولا يدبر، ولا يملك الملك التام إلا هو سبحانه، ولا سمي له، ولا يعبد إلا هو.

وأقسامه ثلاثة:

١- توحيد الربوبية:

وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير: «إفراد الله بأفعاله» قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

فهذه الآية تفيد حصر الخلق والتدبير له سبحانه لأنه قدم ما حقه التأخير.

وأما دليل الملك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الجاثية:٢٧] أيضًا قدّم ما حقه التأخير ليفيد الحصر.

٢- توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإيمان بما ورد في كتاب الله وصح في سنة رسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته على ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

٣- توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله بالعبادة (إفراد الله بأفعال العباد)، والإفراد: هو صَرْفُ العبادة له وحده لا شريك له.

الله: مأخوذ من الإله بمعنى مألوه، قال ابن عباس «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»(١)، ولا يتحقق جعله فردًا إلا بالنفي والإثبات. «**لأن النفي المحض عدم محض والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة**» ولأجل ذلك جمعت لا إله إلا الله بين النفي والإثبات.

والمقصود بالعبادة هنا العبادة الشرعية التي أمر الله بها عباده على ألسنة رسله كالصلاة والصوم والخوف والتوكل وغيرها من أنواع العبادة فيجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له.

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

وعرف الشيخ التوحيد هنا بأنه إفراد الله بالعبادة لأمور:

١- **أنه التوحيد التي بعثت الرسل لتحقيقه**، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]. قال شيخ الإسلام: «إن التوحيد الذي بعثت به الرسل أن يعبد الله وحده لا شريك له فيعبد الله دون ما سواه وعبادته تجمع كمال محبته وكمال الذل له»(١).

ولذا ركز القرآن تركيزًا شديدًا على توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله بجميع أنواعها وذلك من خلال محورين:

أ) الدعوة لعبادة الله وحده.

ب) نفي استحقاق غير الله للعبادة.

لأنه لا يتم توحيد الألوهية إلا بهذين الجانبين المتلازمين(٢).

٢- **أن توحيد الألوهية إذا أطلق شمل التوحيد كله** وذلك أن توحيد الألوهية تقرره شهادة أن لا إله إلا الله وهي إفراد الله بالتأله والتعظيم، وذلك لا يكون إلا لمن آمن به رباً مدبراً كامل الصفات. قال شيخ الإسلام: «فدين الإسلام مبني على أصلين من خرج عن واحدٍ منهما فلا عمل له ولا دين: أن نعبد الله وحده لا نشرك به. وعلى أن نعبده بما شرع لا بالحوادث والبدع وهو حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وإجلالًا وإكرامًا وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله...»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٢).

(٢) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» (١١٩).

(٣) «تلخيص الاستغاثة» (٥٢).

وقال ابن القيم في وصفه لتوحيد الألوهية: «هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وذروة سنامه وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٦٩-٨٢] وإذا تدبرت القرآن من أوله إلى آخره رأيته يدور على هذا التوحيد وتقريره وحقوقه»(١).

٣- أن كلا نوعي التوحيد مستلزم توحيد الألوهية:

ذكر الله توحيد الربوبية مبينًا استلزامه لتوحيد العبادة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١، ٢٢].

فمن خلق الناس أولهم وآخرهم. وجعل لهم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل المطر وأخرج الثمرات فهو المستحق للعبادة(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٤-٤٨٥).

(٢) راجع إن شئت: «مدارج السالكين» (١/ ٤١١)، فقد بين رحمه الله أنَّ قَدَمَ العبد ينبتُ في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الألوهية.

أما توحيد الأسماء والصفات فهو كذلك، قال ﷺ: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنَّةَ**»(١).

وإحصاؤها معرفتها وحفظها والعمل بمعانيها فإذا استشعر أن الله يراه لم يرتكب معصية، بل سيقدم على طاعة الله وإفراده بالعبادة، لعله أن يرضى عنه.

٤- أن توحيد الألوهية هو الفارق بين الموحدين والمشركين:

قال شيخ الإسلام: «وهذا التوحيد -أي توحيد الألوهية- هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»(٢).

وصار التوحيد أعظم ما أمر الله به لأمور:

١- لأنه خالص حق الله تعالى، قال ﷺ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد...»(٣).

٢- لأنه لأجله خلقت الخليقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٣- به تصح العبادات وبدونه تفسد: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(٤).

٤- لأجله أرسلت الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

٥- لأجله أنزلت الكتب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٨٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

٦- به قامت السموات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٧- لأجله خلقت الجنة والنار: فمن وحّد فله الجنة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة:٢٥].

ومن أشرك وترك التوحيد فله النار ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة:٧٢].

٨- لأجله جرت سيوف الجهاد: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٣][(١)].

٩- عنه يسأل الناس يوم القيامة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الحجر:٩٢-٩٣]، قال البخاري: «قال عدة من أهل العلم عن قول لا إله إلا الله»[(٢)].

قال السعدي: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نَهْيٌ عن ضده أو إقامة حجة عليه أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين»[(٣)].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٧٧)، كتاب «الإيمان»/ باب من قال: إن الإيمان هو العمل.

(٣) «القواعد الحسان» (١٩٢).

وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه.

....

وأعظم ما نهى عنه الشرك.

نهى: النهي في اللغة: الزجر عن الشيء، وهو ضد الأمر(١).

اصطلاحًا: طلب الكف على وجه الإلزام.

والضمير المستتر في نهى يعود إلى الله تعالى، وأما الضمير في عنه فيعود على أعظم المنهي عنه وهو الشرك.

الشرك في اللغة: مخالطة الشريكين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾[طه:٣٢](٢).

اصطلاحًا: صرف شيء مما يختص به الله لغيره أو: تسوية غير الله بالله فيما يختص به الله.

والدليل من الكتاب على أن الشرك أعظم ما نهي عنه من الذنوب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:١١٦].

والاستدلال بهذه الآية من وجهين:

١) أن الله جعل الشرك هو الذنب الذي لا يغفر فقط فدل على أنه أعظم الذنوب والمنهيات.

٢) أن جميع الذنوب أهون منه، قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: ما هو دون الشرك وأخف منه.

ومن السنة: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند

---

(١) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٣٩)، و«العين» (٤/ ٩٣)، و«المفردات» (٥٠٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦-١٧).

الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**». قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟ قال: «**أنْ تقتل ولدك تخافُ أنْ يَطْعَمَ معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أنْ تزاني حليلة جارك**»(١).

ورواه البخاري في التوحيد وزاد: فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية (٢) [الفرقان:٦٨، ٦٩].

قال شيخ الإسلام: «والله أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك به فأعظم الحسنات التوحيد، وأعظم السيئات الشرك»(٣)، وقال: «الشرك أعظم من التكذيب بالرسالة، ولهذا كان المشركون أكفر من اليهود والنصارى»(٤).

وقال: «وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل، وضده وهو الشرك أعظم الظلم، كما أخرجا في «الصحيحين» عن عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ إنه ليس بذاك «**ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عظيمٌ**»(٥)(٦)، ومعنى: يلبس: أي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]. رقم (٧٥٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٥١-٢٥٢)، وانظر: «جامع الرسائل»، المجموعة الثانية/ تحقيق رشاد سالم (٢٥٤).

(٤) «الرد على البكري» (١٤٧).

(٥) البخاري مع الفتح (٨/ ٥١٣) كتاب «التفسير»/ باب لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. رقم (٤٧٧٦)، ومسلم (١/ ١١٤) كتاب «الإيمان»/ باب صدق الإيمان وإخلاصه. رقم (١٢٤).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٦١) وانظر: (١٦١-١٦٦).

يخلط إيمانه بشرك.

وصار الشرك أعظم الذنوب لما يلي:

(١) **أنه أشد أنواع الاعتداء:** فهو اعتداء على الله بصرف خالص حقه لغيره. قال شيخ الإسلام: «ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعى غير الله فإن ذلك من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإن الشرك لظلم عظيم»[١].

(٢) **أنّه قَدْحٌ في الله وتَنَقُّصٌ له وعَدْلُ غيره به:**

مقارنة الأعلى بالأدنى تنقص للأعلى كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فكيف إذا سوي به؟ لا شك أنه يكون أشد تنقصًا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[الأنعام:١] وقال تعالى ذاكرًا ندم المشركين وحسرتهم حين يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

فانظر كيف قدح المشركون في ربهم فسووا مالك الرقاب بمن خلق من تراب، وسووا مالك الأمر كله بمن لا يملك من الأمر شيئًا ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾[فاطر:١٣] وسووا المنعم بالنعم التي لا تحصى بالفقير المحتاج الذي لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرَّة، وسووا الكامل في كل شيء بالناقص من جميع الوجوه. فما أعظم ظلمهم وأقبح صنيعهم! أفلا يعقلون.

---

(١) «الرد على البكري» (٩٥).

(٣) لأنه مناقض للمقصود بالخلق:

الخلق خلقوا لأجل عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] والمشرك مناقضٌ لهذا كله ولهذا كان الشرك غاية المعاندة والمشاقة لله عز وجل ولذلك إذا عم الشرك الأرض في آخر الدنيا وفقد الموحدون لم يستحق الموجودون البقاء ومن ثم خرب العالم وقامت القيامة، قال ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى لا يقال في الأرض: الله الله**»(١).

(٤) لأنه ليس للنفس فيه نصيب بخلاف المعاصي والمحرمات فإن دواعي الشهوة تدعو إليها بخلاف عبادة غير الله.

(٥) لأن الشرك إذا وجد محى أعظم حقوق الله وهو التوحيد، فالشرك الأكبر لا تبقى معه حسنة ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

ولعظم ذنب الشرك فإنه لا يغفر. كله كبيره وصغيره. بل لابد من عقاب فاعله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وهذا عام في الشرك الأكبر والأصغر، قال شيخ الإسلام: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والشرك منه جليل ودقيق وخفي وجلي»(٢).

وقال أيضًا: «وقد يقال الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى عموم القرآن وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلمًا، لكن شركه لا يغفر له. بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة»(٣).

---

(١) مسلم (١/ ١٣١) كتاب «الإيمان»/ باب ذهاب الإيمان آخر الزمان. رقم (١٤٨).

(٢) «جامع الرسائل»، المجموعة الثانية تحقيق رشاد سالم (٢٥٤).

(٣) «الرد على البكري» (١٤٧).

وقال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ـا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن[١]

أنواع الشرك:

الشرك نوعان:

(١) **شرك أكبر**: وهذا النوع مخرج من الملة ومحبط للعمل وضابطه: «أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله».

(٢) **شرك أصغر**: وهذا النوع لا يخرج من الملة، ولكنه أكبر من الكبائر والقاعدة تقول: «كل معصية سماها الله شركًا فهي أعظم مما لم تسم شركًا».

وضابطه: «كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»[٢] كالحلف بغير الله، ويسير الرياء، والغلو في المخلوق الذي لا يصل إلى رتبة العبادة، وقيل: «كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه» وقيل: «كل معصية ورد في النصوص تسميتها شركًا ولم تبلغ رتبة العبادة».

هل للشرك مبرر؟

الجواب: لا، لعدة أمور:

١- أن الله اختص بالملك، فلا ملك لأحد دونه، ولا مثقال ذرة.

---

(١) «الكافية الشافية» مع شرح ابن عيسى (٢/ ٢٦٣).

(٢) «القول السديد» (٤٤-٤٥).

٢- أنه ليس لأحد مع الله شراكة.

٣- أنه لا يوجد معين لله تعالى.

٤- أن الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذنه.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٢، ٢٣].

قال شيخ الإسلام: «هدد سبحانه من دعا شيئًا من دون الله وبيَّن أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركًا في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين، فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق، لَكِنْ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٣]»(١)، فبين: «أن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى فنفى بذلك وجوه الشرك»(٢).

أقسام الشرك من حيث الربوبية والألوهية:

١- **شرك في الربوبية**: وهو اعتقاد تصرف بعض المخلوقات بشيء من الأمور(٣)، كما يقول بعض القادرية:

عبد القادر يا جيلاني يا متصرف في الأكوان

٢- **شرك في الألوهية**: وهو الذي عرفه المؤلف بقوله: «وهو دعوة غيره معه»(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤).

(٢) المرجع السابق (٢٧/ ٦٦).

(٣) وعرفه شيخ الإسلام فقال: «أن يجعل معه تدبيرًا ما». «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٦).

(٤) ويمكن أن يقال: «أن يجعل لغيره معه في العبادة شيئًا ما».

وينقسم الشرك الأكبر إلى أقسام، هي:

١- شرك الدعوة: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥].

فالمشركون الأولون يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، أما مشركو زماننا فيشركون في الرخاء والشدة، فيكونون أغلظ شركًا من الأولين[١].

٢- شرك النية والإرادة والقصد:

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥، ١٦].

قال ابن القيم: «وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها»[٢].

٣- شرك الطاعة:

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[التوبة:٣١].

وتفسيرها الذي يوضحها حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة:

---

(١) القاعدة تقول: «الشرك يزداد غلظًا وقبحًا في الكمية والكيفية».

(٢) «الجواب الكافي» (١٥٩).

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]، قال: «**أما إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنّهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئًا استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئًا حرّموهُ**»(١).

قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية: «إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا»(٢).

٤ - شرك المحبة:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥].

فشرّكوا بين الله وأندادهم في المحبة فأحبوهم كما يحبون الله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم، والفرق بينهما: أن حب المشركين فيه شرك أما حب المؤمنين فهو مجرد لله مخلص(٣).

وقول المؤلف: دعوة غيره معه:

دعوة غيره: أي: دعاء غير الله مع الله سبحانه.

ولفظة: غير: شاملة لكل شيء سوى الله تعالى.

ولفظة مع: تفيد عموم المشاركة، فكل من دعا غير الله مع الله فهو مشرك سواء قلّ أو كثر، ومعنى قوله دعوة غيره معه أي الطلب من غيره سبحانه معه من إنس أو جان أو ملائكة أو غيرهم سواء كان طَلَبَ عبادةٍ أو طَلَبَ مسألةٍ كمن صلّى للميت أو دعاه ليقضي له حاجة.

وعرّف الشرك بقوله دعوة غيره معه ليشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

---

(١) الترمذي (٥/ ٢٧٨)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة التوبة. رقم (٣٠٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٩٨) رقم (٢٠٣٥٠)، وحسنه شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (٦٤).

(٢) «مجموعة التوحيد»، الرسالة الأولى (٦-٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٨ و٧/ ١٨٨).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾[النساء:٣٦].

و: الواو استئنافية.

اعبدوا الله:أمر بعبادة الله والأمر يقتضي الوجوب، وهو أمر شرعي، أَمْرٌ بالتوحيد والإخلاص. قال ابن عباس: اعبدوا الله أي وحِّدوا الله(١). وتوحيد الله هو أعظم الحقوق؛ لأنه خالص حقه سبحانه، فلا يجوز أن يشركه غيره، ولهذا أكده بقوله: «ولا تشركوا به شيئًا».

ولا تشركوا: الواو عاطفة.

لا: ناهية، والنهي يقتضي المنع والتحريم مع الزجر.

لا تشركوا به: أي لا تجعلوا له شريكًا تعظمونه كتعظيمكم إياه. وفيها تأكيد إخلاص العبادة لله وحده، فإن النهي عن الشرك بعد الأمر بالتوحيد تأكيد له.

قال القرطبي: «فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره»(٢).

شيئًا: نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، أي: عموم النهي عن الشرك صغيره وكبيره في أي عبادة كانت، وبأيِّ أحد مهما عظمت منزلته، قال ابن قاسم: «قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرّمه فدلت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة»(٣).

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٤٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٨٠).

(٣) «حاشية كتاب التوحيد» (١٥).

ومع أهمية التوحيد وخطورة الشرك أهملت الأمة العناية به حتى جهل حقيقته أبناء المسلمين، قال مبارك الميلي[١] متعجبًا من هذا الفعل ومبينًا نتيجته وخطورته: «وإن لم يكن بعقلك بأس فستسلم معي شدة عناية من بعثه الله خاتم النبيين ببيان الشرك وعدم الاكتفاء بشرح التوحيد وستعجب معي من قلة اهتمام علمائنا بذلك، كأن لا حاجة بالمسلمين إليه تجد في كلامهم على الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة أو لا توجد عادة ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول فيحددون الشرك ويفصلون أنواعه ويعددون مظاهره حتى يرسخ في نفوس العامة الحذَرُ منه والابتعاد عن وسائله، ولا يفقد المتأخر نص من قبله في جزئية من ذلك.

نتيجة إهمال الكلام في الشرك:

نتج عن قلة الخوض في هذا الموضوع أن صار الشرك أخفى المعاصي معنى، وإن كان أجلاها حكمًا، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم يتبرؤون منه ويغضبون كل الغضب إن نسبوا إليه ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمي لهم عقائد الشرك وأعماله بأسماء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله ثم يدافع عنهم ويحشرهم في زمرة أهل السنة ويشنع على العلماء الناصحين حتى إنه ليخيل إليك أن العامي الواقع في حمأة الشرك جهلًا واغترارًا أقرب إلى السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المؤتسين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق»[٢].

والأدهى من ذلك والأمر أن كثيرًا من أهل العقيدة الصافية أهل السنة والجماعة في هذه الأيام ضعفوا عن تدريسها في دروسهم العلمية وأكبوا على تدريس الفقه أما الخطب

---

(١) مبارك بن محمد الميلي، أمين مال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (٢١-٢٢).

والمحاضرات فلا تكاد تسمع فيها بيانًا للتوحيد وحثًا عليه وترغيبًا فيه ونهيًا عن الشرك وتحذيرًا منه إلا من رحم ربك وقليل ما هم، حتى بلغ بالناس أنّه إذا حذرهم محذر من الشرك تغيرت وجوههم، وقالوا: نحن على التوحيد، كيف تتهمنا في عقائدنا.

فالله الله يا شباب الإسلام، خذوا على أنفسكم العهد أن تقتفوا سنة نبيكم ﷺ في كثرة تكرار بيانه للتوحيد، حتى وهو في مرضه الأخير يحذر صحابته من الوقوع في حمأة الشرك مع ما هم فيه من قوة الاستمساك بالتوحيد، فيقول: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١)(٢)، وما ذلك إلا ليزيد تمسكهم بالتوحيد قوة وشدة وصلابة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) يحذر أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وطلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم، من جلة الصحابة ﷺ وأرضاهم.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها.

....

ثم بعد أن بيّن ﵀ كيف يتربى المسلم. وذلك بطلب العلم والعمل به ونشره بين الناس، حتى لو أصابه ما أصابه من الأذى. وأن أعظم ما يشرف به العبد هو التوحيد ومن فقد التوحيد صار مشركًا في أسفل سافلين، وأن من أعظم ما يعينه على الثبات على التوحيد والإسلام التميز. فيوالي المؤمنين ويعادي الكافرين مقتديًا بخليل الله إبراهيم ﵇، أوضح أنه لا بد من معرفة الأسس والركائز التي ينبني عليها دين المسلم وعقيدته.

ولذا أتى المؤلف بالفاء الرابطة ليبين أن الكلام المتأخر مرتبط بالمتقدم ومبني عليه.

وتكون الفاء رابطة: إذا جاءت في جواب الشرط؛ فكأن المؤلف يقول: من أراد الاستقامة فليبن عبادته على هذه الأصول الثلاثة.

أو كان المبتدأ يفيد العموم فكأنه قال: كل من أراد الاستقامة فليبن عبادته على هذه الأصول.

إذا: تأتي لليقين.

قيل لك: لم يحدد القائل لأنه ليس المقصود تعيين السائل ولكن المقصود هو الجواب. وأوردها المؤلف بصيغة السؤال اقتداءً بالنبي ﷺ عندما سأل معاذًا: «**يا مُعاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله**». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقُّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا...**»[١].

ولأنها مسألة عظيمة لابد فيها من انتباه السامع ليعي ما يقال له.

ما الأصول: الأصل: هو ما يبني عليه غيره.

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٨) كتاب «الجهاد»/ باب اسم الفرس والحمار. رقم (٢٨٥٦)، ومسلم (١/ ٥٨) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة. رقم (٣٠).

يقال: استأصَلَتْ الشجرة إذا ثبت أصلها[١].

فالأصل: هو الشيء الثابت الراسخ الذي يمكن البناء عليه حسيًّا كان أو معنويًا.

أدلة الأصول الثلاثة:

وهذه الأصول يستدل لها بالأثر والنظر:

أما الأثر فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:٥٣]، فقوله ربنا: دليل على من ربك، وقوله: (آمنا بما أنزلت) دليل على ما دينك، وقوله: (اتبعنا الرسول) دليل على من نبيك، فتوسلوا إلى الله بأفضل ما يؤمنون به، وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾[آل عمران:١٩٣]، ومن السنة: حديث البراء بن عازب الطويل وفيه: «**وإنَّه ليسمع خفق نعالهم إذا ولَّوا مدبرين حين يقال له: يا هذا من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟...**»[٢].

وقوله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا**»[٣].

وأما النظر: فإنه لابد للعبد من رب يعبده ويطيعه ويأتمر بأمره وينتهي عما نهاه عنه وهو الله عز وجل، ولا بُدَّ من طريق يوصل إلى مرضاة الرب، وهو الدين دين الإسلام، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف الطريق الموصل إلى رضا الله وجناته إلا بدليل يدل عليه وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو الذي يبلّغ دين الله تعالى للناس.

يجب على الإنسان: الواجب هو ما أمر العبد بفعله على سبيل الإلزام.

معرفتها: المعرفة هنا المقصود بها العلم اليقيني الموجب للعمل.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٤٠)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (١/ ٦٢)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر. رقم (٣٤).

ويدل لذلك حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن، قال: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتابٍ فليكن أوَّلَ ما تدعوهُم إليه: عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم، فإذا فعلُوا فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم زكاةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ إلى فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم**»(١) فدل هذا الحديث على أن المعرفة علمية موجبة لعمل القلب والجوارح.

فمعرفة الأصول الثلاثة والعمل بمقتضاها سعادة أيما سعادة، قال عبدالله بن المبارك: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعّموا أطيب ما فيها، قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل»(٢).

وبنحوه قال مالك بن دينار: «خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطعم شيء فيها، قالوا: وما هي يا أبا يحيى؟ قال: «معرفة الله تعالى»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٧).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٣٥٧).

فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ.

فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه.

....

ذكر المؤلف هذه الأصول إجمالًا، وهي معرفة الرب الذي يجب أن نعبده والدين الذي يجب أن نسير عليه إلى الله تعالى وإلى مرضاته، والرسول الذي يجب أن نتلقى منه الدين فيكون هو المصدر الوحيد لمعرفة دين الله عز وجل، وذلك بما أوحاه الله إليه سواء من القرآن أو السنة، قال تعالى مبينًا وحدة المصدر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧].

فمعرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمدًا ﷺ أَصْلُ كلِّ علم، وليس للناس صلاح إلا بها قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «وإنما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي تصير إليه الحادثات، فهو الأصل الجامع، فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته وإذا حصل لهم ذلك: فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة وإما مضرة»(١).

ثم شرع في التفصيل فقال: فإذا قيل لك من ربك فقل ربي الله.

والرب: مصدر مستعار للفاعل(٢) فيكون بمعنى رابّ، قال ابن الأنباري «الرب ينقسم إلى ثلاثة أقسام يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع... ويكون الرب: المصلح»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٦).

(٢) «المفردات» (١٩٠).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٥/ ١٧٦).

وأصله: من التربية وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام[(١)].

«فهو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها»[(٢)].

أنواع التربية:

التربية نوعان:

تربية عامة: لكل المخلوقين وهي رزقهم وهدايتهم لما فيه صلاح معاشهم في دنياهم ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

تربية خاصة: خاصة بالمؤمنين من عباده، وهي التربية الإيمانية، فيربيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوحيه ويوفقهم للعمل الصالح الموصل إلى رضاه تعالى وإلى جنته.

ومنه قوله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥] وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢].

فتكون حقيقة التربية الخاصة: تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر.

فقول المؤلف: «**رباني وربى جميع العالمين بنعمه**» يقصد بها التربية العامة، بدليل قوله: وربى جميع العالمين.

جميع العالمين: أي: كل خلق الله.

بنعمه: نعمة الله مَنُّه وعطاؤه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠].

ولا شك أن النعم كثيرة جدًا لا نستطيع إحصاءها، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[النحل:١٨]، بل قد لا يخطر بعضها منّا على بال.

(١) «المفردات» (١٩٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٢).

كنعمة المكروهات التي تصيب العبد، قال ابن القيم: «فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»(١).

وفي قوله: «**ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه**» لَفْتَةٌ تربوية هي: أنه يجب علينا الاعتراف بأن المنعم علينا بهذه النعم صغيرها وكبيرها هو الله تكرمًا منه وجودًا وإحسانًا، كما في دعاء النبي ﷺ: «**اللهمَّ أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوبَ إلا أنت، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعت**»(٢).

قال ابن القيم: «فجمع في قوله ﷺ: «**أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي**» بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل»(٣).

وهذا هو دأب الصالحين وعباد الله المتقين من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، فعن زيد بن عاصم، قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس. في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي**»، كُلّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنُّ، قال: «**ما يمنعكم أن تُجيبوا رسول الله؟**»

---

(١) «الفوائد» (١٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ١٣٠)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا أصبح. رقم (٦٣٢٣)، ومسلم (٢/ ٧٣٨-٧٣٩)، كتاب «الزكاة»/ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوي إيمانه. رقم (١٠٦١).

(٣) «الوابل الصيب» (١١).

قال: كُلّما قالَ شَيئًا قالوا الله ورَسوله أمن...»[(١)].

وهو قول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[الأعراف:٤٣] فالفضل لله أولًا وآخرًا.

فمن اعترف بنعم الله عليه أوجب له ذلك شدة الافتقار إليه، قال أبو سليمان الداراني «كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما يعد العمل نعمة من الله. إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع»[(٢)].

ومعرفة الله والافتقار إليه تقود إلى عبادته وحده لا شريك له ولهذا قال المؤلف «**وهو معبودي ليس لي معبود سواه**».

قال بعض العلماء «أول فرض فرضه الله على خلقه معرفته، فإذا عرفه الناس عبدوه قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد:١٩] فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها فيعظموا الله حق عظمته»[(٣)].

وقال السعدي: «إن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له وهذا عين سعادة العبد... فالله تعالى خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه فهذا هو الغاية المطلوبة منهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة وفضله عليه عظيماً من كل وجه أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته»[(٤)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٧) كتاب «المغازي»/ باب غزوة الطائف. رقم (٤٣٣٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٣).

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ١٢٢).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٥).

وهو معبودي ليس لي معبود سواه، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]. **وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم.**

....

وهو معبودي: هذه نتيجة الاعتراف بنعم الله وهي عبادته وحده لا شريك له، والعبادة: هي ما جمع غاية المحبة مع غاية الذل. وأتى بـ (هو) ضمير الفصل ليفيد اختصاص الرب سبحانه بالعبودية.

ليس لي معبود: ليس نافية جميع ما يعبد من دون الله فهي بمعنى: «لا إله».

لي: اللام هنا للتمليك، أي: أني لا أملك أن أعبد غيره، فيجب عليَّ أن أخضع وأذلّ له وحده لا شريك له، وفي نفس الوقت لا يستحق أن يعبد إلا الله فهو المربي والمنعم والقادر على كل شيء والخالق لكل شيء ولهذا أبطل الله استحقاق غيره للعبادة بآي كثيرة من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان:٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ...﴾. الآية [سبأ:٢٢، ٢٣].

وفي إبطال إبراهيم لآلهة قومه ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾[الأنعام:٧٦]. وغير ذلك من الآيات.

فإذا كان لا يستحق العبادة إلا الله وجب عليَّ إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، فلا أعبد ملكًا ولا وليًّا ولا شيخًا، ولا كوكبًا، ولا شجرًا ولا غير ذلك، قال هود لقومه:

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥] «أي ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره لأنه الخالق الرازق المدبر فهو وحده المعبود»[1] بل وجب الاستسلام له في جميع ما قضى وشرع. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾[الأحزاب:٣٦].

فإذا لم تكن للناس الخيرة في فعل الطاعات أو تركها فكيف تكون لهم الخيرة في عبادة غير الله.

سواه: أي غيره وهي بمعنى «إلا الله».

فحصر العبودية لله وحده لا شريك له سبحانه.

الحمد لله:

الـ: تفيد الاستغراق أي: استغراق جميع المحامد لله ﷻ على الدوام وفي جميع الأحوال لأن الآية هنا مبتدأة باسم والجملة الاسمية تفيد الدوام والاستمرار ولذلك قال في الآية الأخرى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾[القصص:٧٠]، والله سبحانه يستحق الحمد لأمرين:

١) لكمال صفاته (اتصافه بصفات الكمال) ولهذا قال بعدها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٣-٤].

٢) لكمال إنعامه وإحسانه إلى عباده، ولهذا قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة:٥-٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣].

«**والحمد:** هو خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته وتعظيمه، والذم خبر بمساوئ المذموم مقرون ببغضه، فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته، ولا يكون ذم لمذموم إلا مع

---

(١) «معارج الصعود» (١٣٧).

بغضه وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة»[(١)].

وإذا كرر الحمد مرة ثانية سمي ثناءً وإذا كرر ثالثة سمي تمجيدًا بدليل قول النبي ﷺ قال الله تعالى: «**قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قال اللهُ: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قال الله تعالى: أثنى عَليَّ عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. **قال: مجّدني عبدي...**»[(٢)].

والحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية. فالثناء كمية الحمد وتكثيره والتمجيد كيفيته وتعظيمه[(٣)].

لله: تفيد: اختصاص جميع المحامد لله جل وعلا استحقاقًا[(٤)] وإله بمعنى مألوه، فيعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا[(٥)]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:٣] أي المعبود في السموات والمعبود في الأرض.

فيجب «إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأَمَرَ به ونهى عنه فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم وهو المحمود على عدله

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٤٠٤)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣) ففيه مقارنة بين الحمد والشكر.

(٢) مسلم (١/ ٢٩٦)، كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. رقم (٣٩٥).

(٣) انظر: «اللباب» د. اللاحم (٢١٤)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٦٦)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٨-٥٩).

(٤) وذلك أن اللام تأتي للملك إذا كان ما قبلها من الأعيان كقولنا الكتاب لصالح أي ملك له، وتأتي للاستحقاق إذا كان ما قبلها من المعاني كقولنا العز لمحمد أي العز مستحق لمحمد.
فالحمد معنى فصارت اللام بعده للاستحقاق فكل حمد مستحق لله ﷻ بعمومه وكماله.

(٥) انظر: «التوحيد» لابن تيمية (٧٣).

في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه فكل ذرَّة من ذرات الكون شاهدة بحمده ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء:٤٤]، وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربَّنا ولك الحمد ملْءَ السَّماء وملء الأرض، وَمِلءَ ما بينهما، وملء ما شئت من شيءٍ بعد**»، فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده... أما قول الحمد كله لله فهذا له معنيان:

١) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام... وفي الدعاء المأثور: «**اللهمَّ لك الحمد كله...**»(١).

٢) أن يقال: «**لك الحمد كله**» أي الحمد التام الكامل فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا فله عموم الحمد وكماله(٢).

ولعلو شأن الحمد فإن أحق ما قاله العبد هو حمده تعالى: «**ربَّنا لك الحمد ملء السّموات والأرض وملء ما شئت من شيءٍ بعد أهل الثّناء والمجد أحقُّ ما قال العبد...**»(٣).

«ولهذا أوجب الله قوله في كل صلاة وأن تفتتح به الفاتحة وأوجب قوله في كل خطبة وفي كل أمر ذي بال»(٤).

رب العالمين: أحد أوصاف الإله الذي يجب أن يعبد.

العالم: مشتق من العلامة لأنهم علم على وجود الخالق ووحدانيته.

---

(١) أحمد (٥/ ٣٩٦).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (١١٢-١٤٠).

(٣) مسلم (١/ ٣٤٧) كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. رقم (٤٧٧).

(٤) «دقائق التفسير» (٢/ ٢١١).

والعالمين: قال ابن عباس: العالمين الخلق كله، السموات والأرض ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ولا يعلم[(١)].

«وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس. والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها»[(٢)].

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: فائدتان:

١) انفراده بالخلق والتدبير.

٢) تمام فقر العالمين إليه بكل الوجوه.

قال شيخ الإسلام: «قال الله عز وجل في أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فبدأ بهذين الاسمين: الله، الرب، والله هو الإله المعبود، فهذا الاسم أحق بالعبادة، ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله، والرب: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة.

ولهذا يقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَىَّ﴾[إبراهيم:٤١]، **﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾**[القصص:١٦]، **﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾**[آل عمران:١٤٧] فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب.

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يَرُبُّهُ ويتولاه مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضًا»[(٣)].

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٦٣).

(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ٨).

(٣) «التفسير الكبير» (٢/ ٣٠٧-٣٠٨).

وكل ما سوى الله عالم: سوى بمعنى غير: أي كل غير الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[الشعراء:٢٣، ٢٤]، فإذا كان الله رب جميع المخلوقات، فهي عالم لأنه لا ثم إلا خالق أو مخلوق.

وأنا واحد من ذلك العالم: أي أنني واحد من خلقه، فأنا عبد مربوب لله تعالى وأَعُدُّ عبوديتي لله كرامة لي وفخرًا وشرفًا فإن الله شرَّف بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، فأثنى على نوح بها، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء:٣]، بل أثنى بها على سادات الأولياء، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[ص:٤٥].

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر.

....

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك:

أي: فإذا طرح عليك سؤال بأي شيء استدللت على ربك؟ فالجواب **أني عرفته بالآيات الدالة عليه**، والآية: مشتقة من التأيي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء(١)، فتكون الآية هي العلامة الظاهرة التي تدل على الشيء وتبينه وتثبته.

والمخلوقات: هي ما أوجدها الله ﷿ على مثال لم يسبق إليه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الزمر:٥] أي أبدعها(٢) فإذا رآها الإنسان فإنَّ أوّل ما يتبادر إلى ذهنه من هو الذي أوجدها وخلقها؟ فيكون الجواب: الله جل جلاله.

وطرق معرفة الله تعالى كثيرة متنوعة وذلك لشدة الحاجة إلى معرفته، قال شيخ الإسلام: «وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر وكانت الأسماء المعرفة له أكثر وكانت على معانيه أدّل... ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه»(٣) فلذا جاد الله بطرق معرفته على عباده جودًا عامًا ميسرًا، ففي كل شيء له آية ودليل.

---

(١) «المفردات» (٤١).

(٢) المرجع السابق (١٦٣).

(٣) «درء التعارض» (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

ودلائل الربوبية من حيث الظهور وعدمه قسمان:

١) قسم ظاهر بيّن لكل أحد مثل السموات والأرض والسحاب ونزول المطر ونحوها.

٢) قسم يختص به المختصون: مثل دقائق التشريح، ومقادير الكواكب وحركاتها[١].

والآيات الدالة على ربوبية الله كثيرة جدًا لكن يجمعها ما يلي:

الأول: الأدلة الشرعية: وهي ثلاثة أقسام:

(أ) سمعي: وهو ما دل على ربوبية الله بمجرد الإخبار عن الله تعالى وأسمائه وصفاته كما في كثير من آيات القرآن الكريم قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإِنَّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأَرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[٢].

(ب) عقلي:

وهو ما دل على ربوبية الله من المعقولات كقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الطور:٣٥]، أي: هل وُجِدُوا من غير موجد، أم هم الذين أوجدوا أنفسهم، فإذا تبين أنه لا هذا ولا ذاك، وجب أن يكون الخالق هو الله ﷻ[٣].

(ج) حسي: وذلك بإجابة الداعين وغوث المكروبين، ويدل له حديث عبد الله بن أبي نمر: أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلًا دخل يوم الجمعة من باب كان وِجاه المنبر

---

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٤/ ٧٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ٣) كتاب «فضائل القرآن»/ باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل. رقم (٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس. رقم (١٥٢).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٨/ ٣٧)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٥٠)، وإن شئت زيادة بيان وتفصيل فانظر «مدارج السالكين» (١/ ٥٩-٦١).

ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله قائمًا، فقال: يا رسول الله: هلكت المواشي وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «**اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا**». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَة، ولا شيئًا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فوالله ما رأينا الشمس سبتًا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر»، قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس»(١).

فشاهدوا إجابة الداعي وإغاثة المكروب.

وكذلك معجزات الأنبياء تدل على مرسلهم وربوبيته لعباده لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر كَفَلْقِ البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى وانشقاق القمر لمحمد عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(الثاني) الأدلة الكونية:

أي النظر في الآيات الكونية والاستدلال بما خلقه الله وأوجده من المخلوقات العظيمة الدالة على عظمة الخالق ومنها ما ذكره المؤلف كالسموات والأرض وغيرها.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢]، بل في الأنفس أيضًا قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]. وجمعها الله بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت:٥٣].

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠١) كتاب «الاستسقاء»/ باب الاستسقاء في المسجد الجامع (١٠١٣).

قوله: **(بآياته ومخلوقاته)، ففرق بين الآيات والمخلوقات لأمرين:**

١- أنه اتبع لفظ القرآن.

٢- أن الآيات المتغيرة أبلغ في التأثير في القلوب من الآيات الثابتة، لأن الناس تتأثر بالآيات المتغيرة أكثر من المستقرة التي لا تتغير؛ لأن الإلف على شيء معين ينسي أهل الغفلة عن أثره ولهذا استدل إمام الحنفاء بالمتغير على ربوبية الله وألوهيته في موقفين مختلفين.

أ) مع النمرود حين قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾[البقرة:٢٥٨].

ب) مع قومه حينما أراد إظهار بطلان آلهتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٧٥-٧٨].

فاستدل بتغيرها وأُفولها على أنها آية وعلامة على موجدها لا أنها إله يعبد.

قال ابن كثير: «فبين بطريق البرهان القطعي أنّ هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبَّرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف وذلك دليلٌ على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة.

ولهذا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾»(١) [فصلت:٣٧].

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٧٩).

وأكد هذه الحقيقة نبينا محمد ﷺ حين قال في خطبته: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده**»(١).

واستدل رحمه الله بالليل والنهار والشمس والقمر والسموات والأرضين لثلاثة أمور هي:

١- لظهورها ووضوحها لجميع الناس.

٢- لعظيم خلقها وبديع صنعها.

٣- إكثار الله من ذكرها في كتابه والدعاء إلى التفكر في خلقها.

ويقصد بقوله: **بآياته**: هنا الآيات الكونية، لأنه قال: «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر»، فبآيتي الليل والنهار المرتبطتين بطلوع الشمس والقمر وغروبهما تتم مصالح العباد دنيًا وأخرى قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧-٤٠]، وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].

ويتم تذكر نعم الله وشكره، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦١، ٦٢].

فكون الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر ولا يجتمعان دليل على عظمة مدبرهما وموجدهما وهو الله تعالى، فيستحق أن يعبد ويشكر.

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٣٦)، كتاب «الكسوف»/ باب قول النبي ﷺ: «يخوف الله عباده بالكسوف». رقم (١٠٤٨).

قال ابن القيم: ومن آياته ﷻ الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾[فصلت:٣٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[الفرقان:٤٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء:٣٣].

وهذا كثير في القرآن[١].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٠٣) وانظر إن شئت كتاب «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني فإنه خصص المجلد الأول تقريبًا عن التفكر في مخلوقات الله وآلائه.

ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما.

....

إذا نظرت إلى الأرض وكيف خُلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها لقضاء حوائجهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا... وقد أكثر الله من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها، فقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾[الذاريات:٤٨]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾[غافر:٦٤]، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا﴾[البقرة:٢٢]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾[الغاشية:١٧-٢٠] ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الجاثية:٣]. وهذا كثير في القرآن... ومن المعلوم أنه لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[النازعات:٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة:١٦٤]. فبدأ بذكر خلق السموات.. وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر ولهذا قلّ أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمتها وسعتها وإما إقسامًا بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو... وقد أثنى سبحانه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم

المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء:٣٢] وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء، قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ:١٢]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[النازعات:٢٧-٢٨]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢] فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان مَنْ لاَ يَقْدُرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ ... ومَنْ هو فوق العرش فَرْدٌ مُوَحَّدُ

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البيّنات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة وإن الله لسميع عليم[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٦-٢٠٠) مع شيء من الاختصار والتقديم والتأخير، وانظر إن شئت: كتاب «التوحيد» لابن منده المجلد الأول كله، و«الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٤١٦).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

....

من: تبعيضية أي بعض آياته.

آياته: أي علاماته وحججه على خلقه الدالة على وحدانيته وعظيم سلطانه وكمال قدرته «ومن آياته» خبر مقدم يفيد الحصر والقصر.

الليل والنهار: أي: اختلافهما وتعاقبهما ومصالح العباد العظيمة فيهما.

والشمس والقمر: وكيف أنّ الله سخرهما دائبي الحركة.

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر:

لا: ناهية فتفيد منع وتحريم السجود للشمس والقمر؛ لأنهما مخلوقان لله لا يستحقان أن يعبدا من دون الله أو معه حتى وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنهما يجريان بإجراء الله لهما فلو أراد الله أن يقفا وقفا، ولو أراد طمس نور الشمس لطمسه وتعطلت منافعكم.

«والشمس أعظم ما يرى في عالم الشهادة وأعمه نفعًا وتأثيرًا. فالنهي عن السجود لها نهي عما هو دونها بطريق الأولى من الكواكب والأشجار»(١)، وكأنه جاء سؤال: إذًا لمن نسجد؟ فجاء الجواب.

واسجدوا لله الذي خلقهن: في هذا الأمر دلالة على أن السجود للخالق لا للمخلوق وإن عظم نفع المخلوق وقدره وحقه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ؛ لأمرتُ المرأة أن تسجُد لزوجها**»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٤٦).

(٢) الترمذي (٣/ ٤٦٥)، كتاب: «الرضاع»/ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة. رقم (١١٥٩)، وقال: =

فمن لم يخلص السجود لله في الدنيا مُنع منه يوم الحسرة فلم يستطع أن يسجد كما في الحديث الطويل الذي رواه أبو سعيد الخدري، وفيه: «فيأتيهم الله جل وعلا فيقول أنا ربكم. فيقولون أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا»(١) وزاد مسلم «كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه»(٢).

خلقهن: أي أوجدهن الله من العدم. وإذا كان الخالق للشمس والقمر هو الله، فهل يليق أن يشارك المخلوق الخالق في ربوبيته وإلهيته؟ كلا.

إن كنتم إياه تعبدون: أي إن كنتم موحدين له غير مشركين به.

إن: شرطية.

كنتم: فعل ماض ناقص وهو فعل الشرط، والتاء اسمها.

إياه: مفعول مقدم فيفيد الحصر، أي: خصوه بالعبادة وحده وأخلصوا له الدين كله.

تعبدون: أي تذلون له بالطاعة مخلصين له في عبادتكم إياه لأن العبادة لا تصلح إلا له ﷻ. **وجواب الشرط محذوف تقديره فاسجدوا له، وجملة إياه تعبدون في محل نصب خبر كان.**

= «وفي الباب عن معاذ بن جبل، وسراقة بن مالك بن جعشم، وعائشة، وابن عباس، وعبد الله بن أبي أوفى، وطلق بن علي، وأم سلمة، وأنس، وابن عمر، وهذا حديث حسن غريب».

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٢١) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. رقم (٧٤٣٩).

(٢) مسلم (١/ ١٦٩) كتاب «الإيمان»/ باب معرفة طريق الرؤية. رقم (١٨٣).

وخص السجود لأنه نهاية التعظيم فلا يليق إلا لأشرف وأعظم موجود ولهذا كان قبول الدعاء فيه أحرى من غيره، قال ﷺ: «**وأمَّا السُّجود فاجتهدوا في الدُّعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم**»[(١)].

ورفع الدرجات فيه وحط الخطيئات به أرجى. قال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد دمشق فإذا أنا برجل يصلي يكثر الركوع والسجود فقلت لا أنتهي حتى أنظر أيدري على شفع ينصرف أم على وتر فلما انصرف قلت له أتدري على شفع تنصرف أم على وتر؟ قال: إن لم أدر فإن الله هو يدري حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ ثم بكى ثم قال: حدثني خليلي أبو القاسم قال: «**ما من عبدٍ يسجد لله سجدةً إلا رفعهُ اللهُ بها درجةً، وحطَّ عنه بها سيئة**». قال: قلت: من أنت يرحمك الله، قال: أنا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ، فتقاصرت إلي نفسي[(٢)].

---

(١) مسلم (١/ ٣٤٨)، كتاب «الصلاة»/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. (٤٧٩).

(٢) أحمد (٥/ ١٦٤)، والدارمي في «السنن» (١/ ٣٧٠)، كتاب «الصلاة»/ باب فضل من سجد لله سجدة. رقم (١٤٦١)، و«تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣١٢) واللفظ له، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢/ ٢٠٩). رقم (٤٥٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

....

إن ربكم الله: بين الله في هذه الآية أنه وحده المنفرد بالخلق والإيجاد من العدم، وهذا يوجب علينا توحيده وعبادته.

وأكد أنه ربنا بـ«إنّ» وإضافة الرب إلينا ليبين أنه لا رب لنا غيره. وأننا المنفردون بعبادته دون سائر الأمم الكافرة، وأنه أعطى عباده المؤمنين التربية بنوعيها العامة والخاصة فهم يشتغلون بعبادته وحده دون ما سواه.

خلق السموات والأرض في ستة أيام: أي: أوجد السموات والأرض وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانهما وبديع خلقهما في ستة أيام فقط ولو شاء خلقهما بلحظة واحدة.

في ستة أيام: بداية الأيام هو يوم الأحد بإجماع أهل العلم.

قال ابن جرير: «اليوم الذي ابتدأ الله تعالى ذكره فيه خلق السموات والأرض يوم الأحد لإجماع السلف من أهل العلم على ذلك»(١).

وقال شيخ الإسلام: وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته أَنّ آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دلَّ على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة ولو كان أول الخلق يوم السبت وآخره يوم الجمعة لكان قد خلق في الأيام السبعة وهو خلاف ما أخبر به القرآن.

---

(١) «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٢٦).

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله: «خلق الله التربة يوم السبت»(١) فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري، ويحيى بن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، وغيرهم، قال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب الأحبار(٢)، وقد ذكر تعليله البيهقي(٣) أيضًا وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه إياه(٤).

وأعلّه علي بن المديني: فقال: «وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى»(٥). وقال شيخ الإسلام: «ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أن خلق ذلك في الأيام السبعة وقد روي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد»(٦).

وقال ابن كثير: «وقد تكلم في هذا الحديث عليُّ بن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ، قال البخاري في «التاريخ»: وقال بعضهم عن كعب وهو أصح يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة، وتلقاه عن كعب الأحبار، فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صُحُفِهِ وهذا يحدثه بما يُصَدِّقُه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعًا

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٤٩) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»/ باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام. رقم (٢٧٨٩).

(٢) قال البخاري: وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. «التاريخ الكبير» (١/ ٤١٣، ٤١٤).

(٣) «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٥٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٥-٢٣٦ و١٨/ ١٨-١٩)، و«الجواب الصحيح» (٢/ ٤٤٣-٤٤٥).

(٥) «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٥٦).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٥٧)، وانظر: «بغية المرتاد» (٣٠٣-٣٠٧).

إلى النبي ﷺ..، ثم في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين من دخان»(١).

استوى في اللغة: بمعنى علا وارتفع واستقر وصعد.

قال امرؤ القيس:

فأوردتها ماءً بفيفاء قفرة وقد حلَّق النجم اليماني فاستوى

والعرش: هو سرير الملك وعرش الله لا يقدر قدره إلا الله فهو أعظم المخلوقات كلها وله قوائم كما قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذ بِقَائِمةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ**»(٢).

وهو أعلى المخلوقات، لقول النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرَّحمن...**»(٣).

وهو أعظم المخلوقات اتساعًا.

ولذا كان منهج السلف الصالح الإيمان بهذه الصفة لله فيقولون: إن الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله.

قال الإمام مالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٤).

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٢-٣٣) وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٠)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٥) كتاب «التوحيد»/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم. رقم (٧٤٢٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٤) كتاب «التوحيد»/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم. رقم (٧٤٢٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٣/ ٣٩٨) رقم (٦٦٤).

وصفة الاستواء صفة جلال وكمال، «تمدح بها رب السموات والأرض والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التي هي منها»[١]. واستواؤه على العرش عنوان كمال الملك والسلطان، ولهذا فإنه سبحانه مع علوه على عرشه واستوائه عليه فهو يدبر الممالك ويصرف أمور العالم ومنها: أنه ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ والتغشية في الأصل: إلباس الشيء بالشيء، أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: الحثيث هو المسرع، أي: يطلبه طلبًا سريعًا لا يتأخر عنه ولا يفتر عنه بحال فكلما جاء الليل ذهب النهار وكلما جاء النهار ذهب الليل فيعقب كل واحدٍ منهما الآخر.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾:التسخير هو سياقه إلى الغرض المختص قهرًا ومنه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾[٢].

فمعنى مسخرات: أي مقهورات مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبر لهن وهو الله تعالى، وفي يوم القيامة يكورهن، قال ﷺ: «**الشمس والقمر مكوران يوم القيامة**»[٣].

ويجمعهما في النار، قال ﷺ: «**إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار**»[٤].

---

(١) «منهج ودراسات لآيات الصفات» للشنقيطي (١٥).

(٢) «المفردات» (٢٣٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٩٧)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة الشمس والقمر بحسبان. رقم (٣٢٠٠).

(٤) «مسند الطيالسي» (٢/ ٥٧٤) رقم (٢٢١٧).

قال الخطابي: «ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا»[١].

﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: أي: أمره الكوني القدري وهو متعلق بمسخرات أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره.

فما دمن مقهورات مذللات مأمورات فهل يصلح أن يعبدن من دون الله تعالى؟

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾: ثم بين بعد ذلك أن المختص بالأمر والخلق وحده هو الله تعالى فأتى بـ «ألا» الدالة على التنبيه ثم قدم ما حقه التأخير «له» ليفيد الحصر والقصر، أي: حصر الخلق والأمر له وحده. فـ «الخلق»: هو جميع المخلوقات كلها علويها وسفليها فهو يتضمن أحكامه الكونية القدرية.

والأمر: هو الكلام المتضمن للشرائع والنبوات فالأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية وما يترتب عليها من أحكام الجزاء في الآخرة.

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل من البركة وهو الكثرة والاتساع أي كثرت بَركتُه واتسعت وقيل: تعالى وتعاظم وتقدس.

وجمع بينهما السعدي فقال: أي عَظُم تعالى وكَثُر خيره وإحسانه فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]. ولهذا لا يجوز أن يقال: تبارك إلا لله تعالى.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٠٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩١).

استدل المؤلف على قوله: ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما بالآية مع أن الآية ليس فيها (وما بينهما) فهل هذا الدليل كاف أم لا؟

يجيب عن هذا التساؤل شيخ الإسلام فيقول: «فتارة يذكر قوله (وما بينهما) فيما خلقه في ستة أيام كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[السجدة:٤].

وتارة لا يذكره وهو مراد، فإن ذكره كان إيضاحًا وبيانًا وإن لم يذكره دخل في لفظ السموات والأرض، ولهذا كان النبي ﷺ تارة يقول: «**ملء السَّموات وملءَ الأرض**»، ولا يقول: «**وما بينهما**» وتارة يقول: «**وما بينهما**»[(١)][(٢)].

(١) مسلم (١/ ٣٤٦-٣٤٧)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. رقم (٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤١٧).

والرب هو المعبود، والدليل: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١].

....

الرب: الألف واللام للتعميم[١] أي أنه ربٌّ لكل مخلوق ولا يقال: الرب مطلقًا، بدون إضافة إلا لله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾[٢] [سبأ:١٥].

وأما إذا أطلق على غير الله فلابد أن يكون مضافًا كقولهم: ربّ الإبل ورب الدار، ونحو ذلك[٣].

هو: ضمير الفصل يفيد اختصاص استحقاق العبادة لله عز وجل.

أي: أن الرب هو المستحق للعبادة وحده دون سواه ولذا قال: هو المعبود.

وقدم الربوبية على الألوهية لأمور:

١- لأن علم النفوس بفقرها وحاجتها إلى الرب قبل علمها بحاجتها إلى الإله المعبود، قال شيخ الإسلام: «لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود وقصدهم إياه لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه»[٤].

٢- أن الإقرار بتوحيد الربوبية يلزم منه الإقرار بتوحيد الألوهية.

---

(١) «معالم التنزيل» (١/ ٤٠).

(٢) «المفردات» (١٩٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٥).

(٤) «دقائق التفسير» (١/ ١٨٥).

وذلك أنه: «إنما بعث الله الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية»(١).

وقول النبي ﷺ: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»(٢) توحيد الربوبية الذي يقضي أنه سبحانه هو الذي يسأل ويدعى ويتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الإلهية ودليل عليه كما يحتج به في القرآن على المشركين(٣).

لما ذكر الله فرق المكلفين الثلاث وصفاتهم ونتائج حالاتهم أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الكلام جزل فيه هز وتحريك للسامع.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١].

يا: حرف وضع لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب ثم استعمل في مناداة من غفل وسها وإن قرب ودنا تنزيلًا له منزلة من بَعُدَ ونأى فإذا نودي به القريب فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جدًا.

وقول الداعي: يا رب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصار منه لنفسه واستبعاد لها عن مظان الزلفى هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتفريط. مع فرط التهالك على استجابة دعوته.

وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده أُمورٌ عظام وخطوب جسام يجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مسلم (١/ ٤١٤)، كتاب «المساجد»/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته. رقم (٥٩٣).

(٣) «دقائق التفسير» (٢/ ٢٧٦).

﴿ٱلنَّاسُ﴾: عام لجميع المكلفين من الجن والإنس فيكون الأمر للمؤمنين بإخلاص العبادة واستدامتها، والكافرين بابتدائها.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد»[٢].

وقال ابن القيم: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ «أمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرّة من العبد مملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًا وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه»[٣].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾: أي أوجدكم من العدم فقوله سبحانه (الذي خلقكم) صفة كاشفة مبينة للواقع وليست قيدًا، وذلك أنه ليس لنا ربان أحدهما يخلق والثاني لا يخلق. بل الخالق هو الله وحده وهو ربنا وربُّ كل شيء لا ربَّ لنا غيره ذكرها الله لينبه بها «على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود... وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية»[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: ذكر تعالى من قبلنا لأمور:

١- أنه أبلغ في التذكير.

٢- أقطع للحجة.

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٣٦٣).

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٥٥).

(٣) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢).

(٤) المرجع السابق (٤/ ١٣٢).

٣- للتنبيه على الاعتبار بأحوالهم من إثابة المطيع ومعاقبة العاصي.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾: متعلقة بقوله خلقكم على قول الأكثرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١] [الذاريات:٥٦].

فيكون المعنى خلقكم لتتقوه، وليس اعبدوا ربكم لتتقوه، واستظهره ابن القيم لوجوه:

١- أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

٢- أنه نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٣- أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: لعلكم تتقون من الأمر[٢].

﴿تَتَّقُونَ﴾: التقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية فتوحد الله وتحذر من الوقوع في الشرك والمعصية.

وعندما سأل عمر أبي بن كعب: ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقًا ذا شوك، قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وتشمرت، قال كعب: وذلك التقوى»[٣].

وعرف شيخ الإسلام التقوى فقال: «التقوى: هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه» ثم شرح هذه الجملة بقوله: «فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضًا استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين»[٤].

---

(١) «درء التعارض» (٨/ ٤٦٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٣).

(٣) «معالم التنزيل» (١/ ٤٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٤).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

....

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: أي جعل الأرض بساطًا تقرون عليها فتقعدون وتنامون وتسافرون وتزرعون وتنتفعون بجميع وجوه الانتفاع.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا مرفوعًا عليها كالقبة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل المطر من السحاب فكل ما ارتفع عنك سمي سماءً.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: الثمرات جمع ثمرة، وهو ما يخرجه الله من الأرض من حبوب وخضار وزراعة وفواكه ونحوها.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: طعامًا لكم وعلفًا لدوابكم، قال تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[النازعات:٣٣].

«ذكر سبحانه قرار العالم وهو الأرض، وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا، وجعل سقفها بناءًا محكمًا مستويًا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب»(١)، فكل من أقر بذلك لله لزمه أن لا يعبد إلا الله لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك. ولهذا قال تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾: الفاء الدالة على التفريع والسبب «المشعرة لاقتضاء تلك النعوت

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٤).

الاختصاص بالعبادة»[(١)]. أي فبسبب ذلك فلا تجعلوا لله أندادًا[(٢)]. لا: ناهية تفيد المنع والتحريم. و(تجعلوا) أي: تصيروا، أي فلا تصيروا وتعتقدوا.

﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾: الند هو العدل والمثل والشبيه والنظير.

فيكون معنى أندادًا: أي شركاء ونظراء وأمثالًا تعبدونهم كعبادة الله وتطيعونهم في معصية الله وتحبونهم كحب الله.

قال ابن عباس: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»[(٣)].

قال ابن مسعود: «أي فلا تجعلوا لله أكفاءً من الرجال تطيعونهم في معصية الله»[(٤)].

قال ابن القيم: «فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح»[(٥)].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة في موضع نصب حال من فاعل (تجعلون) أي والحال أنكم تعلمون أن الأنداد لا تخلق ولا ترزق وتقرون بذلك فإنه يجب على من أقر بذلك أن يعبده وحده. فكما أنه لا شريك له في خلقه وملكه فكذلك يجب أن لا يكون له شريك في عبادته. فالشرك قبيح من كل أحد وممن يعلم انفراد الله بالربوبية أقبح، ولهذا جعله النبي ﷺ أعظم الذنب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟

---

(١) «معارج الألباب» (٢٠٥).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٣١٩)

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٦٢).

(٤) «جامع البيان» (١/ ١٦٣).

(٥) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٤).

قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك**»(١).

فـ «هذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطلان عبادة من سواه وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحدٍ مقرًا بأنه ليس له شريك في ذلك. فكذلك فليكن إقراره بأن (الله) لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري وبطلان الشرك»(٢).

وفي هذه الآية بيّن الله ستة أدلة تدل على وجوب عبادة الله، اثنين منها في الأنفس «خلقكم» «والذين من قبلكم» وأربعة منها في الآفاق: «السماء» «الأرض» «إنزال المطر» «إخراج النبات»، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت:٥٣].

فمن لم يعبد الله ويوحده بعد هذه الأدلة، فقلبه ميت لا خير فيه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٥).

قال ابن كثير رحمه الله: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

....

فقوله: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة:

أي: الموجد للسماوات والأرضين والجبال والأشجار والشمس والقمر والليل والنهار والإنسان وغير ذلك من المخلوقات من العدم، هو الذي يستحق أن يعبده الناس وحده لا يشركون به في عبادته أحدًا، وهذا استدلال بالربوبية على الألوهية.

ولهذا أبطل الله استحقاق غيره للعبادة في آي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾[الفرقان:٣].

والقاعدة في ذلك: «من انفرد بالخلق والملك والتدبير: وجب إفراده بالعبادة».

ومَنْ بخلقه وملكه تفردا فاعبده وحده كذاك السعدا

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان.

....

كان المتوقع أن يذكر المؤلف أنواع العبادة تحت الأصل الثاني لأنها جزء منه ولكنه قدّمها ليكون كما يقال: «الطرق والحديد ساخن» وهذه طريقة تربوية لأن النفوس إذا تهيأت لقبول أمرٍ ما فلا ينبغي تأخيره، لأنك إذا أخرته ربما ضعف التهيؤ له فلم يؤخذ مأخذ الحزم والجد.

ولذلك لما بيَّن المؤلف من هو المعبود بالأدلَّة الشرعية والأدلة الواقعية المشاهدة وتهيَّأَت القلوب لعبادته والتقرب إليه ناسب أن يذكر بعده أنواع العبادة التي يجب على العبد أن يعبده بها ولم يجعل الإسلام والإيمان والإحسان من أنواع العبادة لأن هذه مراتب الدين فأدناها الإسلام ثم الإيمان ثم أعلاها الإحسان.

العبادة: أصل معناها الذل يقال طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام.

قال الزجاج: معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع[1].

وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى[2].

فالعبادة متضمنة لأمرين:

(١) غاية الذل.

(٢) غاية المحبة.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٣٤).

(٢) «المفردات» (٣٢٢).

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان[١]

فالعبادة: «اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين. ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله»[٢].

وينبغي أن يعلم أن كمال الحب يتضمن معنى الحمد وأن كمال الذل يتضمن معنى التعظيم[٣].

وعرفها شيخ الإسلام بتعريف عام شامل فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[٤]، فالظاهرة: كالصلاة والزكاة وبر الوالدين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلى الجار واليتيم، ونحو ذلك والباطنة كحب الله ورسوله والخشية والإنابة والرضا بقضائه والوجل والخشوع وأمثال ذلك مما هو من أعمال القلوب. فالعبادة هي الغاية المحبوبة والمرضية لله عز وجل التي خلق الخلق لها وأرسل الرسل من أجلها ووصف بها ملائكته ورسله ومدحهم بها فهي أكمل المدح وأعلاه ولذا وصف الله رسوله محمدًا ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[الإسراء:١] وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن:١٩] وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة:٢٣].

---

(١) «النونية مع شرح هراس» (١/ ٩٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥١).

(٤) «العبودية» (٣٨).

إسراء عبـــد ثـــم دعـــوة ربـــه وكـذاك وحـي في التحـدي أربـع

والعبادة الحقة لا تكون إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤].

وللعبادة أصلان هما:

(١) ألا يعبد إلا الله.

(٢) ألا يعبد إلا بما أمر وشرع. فلا يعبد لا بالأهواء ولا البدع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: العمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات التي أمر الله بها ورسوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إخلاص الدين لله وحده.

فكمال المخلوق في تحقيق عبادته لله وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبادة ازداد كماله وعلت درجته.

ولذا فكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله كقول نوح ومن بعده من الرسل عليهم السلام: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾[هود: ٥٠][(١)].

وينبغي أن تعلم بأن «العبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح»[(٢)]، قال ﷺ: «**الإسلامُ علانيةً والإيمانُ في القلب**»[(٣)]، وقوله ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩-١٨٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٦) وانظر: (١٠/ ٢٧٤).

(٣) أحمد (٣/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥) رقم (٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥/ ٣٠١) رقم (٢٩٢٣)، والبزار في «كشف الأستار» (١/ ١٩) رقم (٢٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٩٦- =

صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»(١).

ويوضح هذا المعنى أبو هريرة فيقول: «القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده»(٢).

ولما كان أصل العبادة عبادة القلب زين الله الإيمان فيه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[الحجرات:٧].

وامتن على عباده بتثبيت الإيمان في قلوبهم حتى حماهم الله به من موالاة أعدائه. فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

وبيّن أن المنتفع بالقرآن هم أصحاب القلوب الحية، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[يس:٧٠]، فحياة البدن دون حياة القلب من جنس حياة البهائم. وذلك لوجود الارتباط الوثيق بين القلب والبدن، فعمل القلب يؤثر على عمل البدن، وكذلك عمل البدن يؤثر على القلب، كما أن فقدان عمل البدن قد يكون سببًا في طمس القلوب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

=

٧٩٧) تحقيق رضا نعسان، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار ورجاله رجال الصحيح، ما خلا على ابن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم وابن معين، وضعفه آخرون». «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢)، وقال السبكي: «هذا حديث جيد». «طبقات الشافعية» (١/ ١٢١).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٣٥٠) رقم (١٠٩).

يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤].

قال شيخ الإسلام: «وهذه الأمور الظاهرة والباطنة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا»[1].

[إنما الأعمال بالنيات - نصف الدين - إخلاص - عمل القلب]

[من عمل عملًا - النصف الآخر - متابعة - عمل الجوارح]

ليس عليه أمرنا فهو رد.

قوله: «ومنه الدعاء»: الضمير يعود إلى أنواع العبادة أي أن «من أنواع العبادة الدعاء كما كان المؤمنون يدعون الله وحده ليلًا ونهارًا في الشدة والرخاء ولا يشك أحد أن هذا من أنوع العبادة»[2].

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩).

(٢) «الدرر السنية» (٢/ ٥٤)، وانظر: «رسالة في وجوب توحيد الله» للشوكاني» (٥٥).

ومنه: الدعاء.

....

الدعاء: لغة هو الطلب والسؤال.

قال ابن سيده: الدعاء: «طلب الطالب للفعل من غيره»[(١)].

اصطلاحًا: طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه، رغبة ورهبة[(٢)]، يوضحه قوله ﷺ: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا حين يبقى ثلثُ اللَّيل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[(٣)].

قوله: فأستجيب له: إجابة الداعي، من يسألني فأعطيه: إعطاء السائل وكلاهما جلب منفعة (وهذا هو طلب ما ينفع الداعي).

وقوله: «**مَنْ يَسْتَغْفِرَني فأَغْفِرَ لَهَ**»: المغفرة للمستغفر. وهذا دفع مضرة.

أهمية الدعاء:

الدعاء من أجل العبادات وأعلاها ولذلك ورد ذكره في القرآن في نحو ثلاثمائة موضع[(٤)].

و«قد جاءت السنة المطهّرة بما يدل أبلغ دلالة على أن الدعاء من أكمل أنواع العبادة»[(٥)].

---

(١) «المخصص» (١٣/ ٨٨).

(٢) قال شيخ الإسلام: ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٠)، وانظر: (١٥/ ٧٤).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٦٤)، كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. رقم (٧٤٤٩).

(٤) «الدرر السنية» (٩/ ٤١٨).

(٥) «رسالة في وجوب توحيد الله»، للشوكاني (ص٥٨).

«ومن أمعن النظر في آيات الكتاب وما قص من محاورات الرسل مع أممهم وجد أن أُسَّ الشأن ومحط رحال القصد شيوعًا وكثرة وانتشارًا وشهرة هو دعاء الله وحده»(١).

وتتجلى أهمية الدعاء والبداءة فيه قبل غيره بما يلي:

١ - أن النبي ﷺ حصر العبادة فيه:

حصر النبي ﷺ العبادة في الدعاء لأهميته ولشموله للدين كله كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢) [غافر:٦٠] «فهذه الصيغة الشريفة النبوية المصطفوية قد اشتملت على ثلاثة أشياء كل واحدٍ منها يقتضي الحصر.

الأول: تعريف المسند إليه «وهو الدعاء».

الثاني: تعريف المسند «العبادة».

الثالث: ضمير الفصل «هو».

وقد صرح أرباب علم المعاني والبيان والأصول بأن كل واحد آلة من آلاته وأداة من أدواته وأن وجود أحدها يقتضي الحصر فكيف إذا اجتمعت جميعًا وانضم إليها حرف التأكيد المشعر بأن ما دخل عليه كلام مؤكد فانظر هذه المبالغة البليغة والعبادة المنادية بأبلغ نداء المفيدة أكمل إفادة المشعرة أتم إشعار»(٣).

---

(١) «معارج الألباب» (٢١٤).

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (٢/ ١٦١)، كتاب «الصلاة»/ باب الدعاء. رقم (١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٥٦)، كتاب «الدعوات»/ باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧٢)، وقال: «حديث حسن صحيح». وصححه النووي في «الأذكار» (٣٤٥)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (١/ ١٤٩).

(٣) «رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل» (٥٨-٥٩).

أضف إلى ذلك: الجملة الاسمية التي تدل على الاستمرار والدوام[١].

٢- أن الله بدأ القرآن بالدعاء وختمه به: فبدأه بالفاتحة، والفاتحة أولها ثناء على الله، وآخرها طلب منه، وكذلك المعوذتان كلاهما طلب من الله ودعاء له.

قال شيخ الإسلام: «ختم المصحف بحقيقة الإيمان، وهو ذكر الله ودعاؤه، كما بنيت عليه أم القرآن، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبرًا عن الله كنصف الفاتحة، وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب، وأنفعه وأوجبه ما كان طلبًا من الله، كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين»[٢].

٣- أن الدعاء لبّ العبادة، وعنوان التذلل والافتقار.

ولذا روي: «الدعاء مخ العبادة».

قال ابن عبد البر: «الدعاء مخ العبادة لما فيه من الإخلاص والخضوع والضراعة والرجاء، وذلك صريح الإيمان واليقين»[٣].

قال شيخ الإسلام عند قوله: «﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥] فذكر التضرع فيهما معًا[٤] وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء»[٥].

---

(١) «الدعاء» للعروسي (١/ ١٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٧٩).

(٣) «الاستذكار» (٣/ ٨٤).

(٤) قوله فيهما معًا يقصد أن الله ذكر التضرع في الذكر كما في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةً﴾ وفي الدعاء كما في هذه الآية.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩-٢٠).

وبمثله قال ابن رجب: «واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار وفيه الاعتراف بقدرة المسئول عن رفع الضر ونيل المطلوب... ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة[(١)].

وكذلك النعيمي قال: «لما كان -الدعاء- بكيفية الاضطرار والافتقار إلى القوي القهار العزيز الغفار وضعًا وضبطًا وصنعًا، وإبداء الفاقة والاحتياج إليه وعدم الاستغناء عنه، مترجمًا عن معنى عبدٍ مملوك مربوب والمدعو مالكه وربه كان حينئذ قاعدة أفق العبادة ومنتثل كنانتها وهذا سرُّ اختصاص الله به»[(٢)].

٤- أن الدعاء يجتمع فيه من العبادات ما لا يجتمع في غيره:

يجتمع في الدعاء توجه القلب ورجاء الإجابة وخوف الرد والتوكل والتعظيم ومحبة المدعو واللهج باللسان وانكسار البدن وغير ذلك[(٣)].

٥- أن الشرك في الدعاء هو أصل شرك العالم:

قال ابن القيم أثناء كلامه عن الشرك: «ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم»[(٤)]. كما هي حال قوم نوح عليه السلام.

٦- أن وقوع الشرك في الدعاء أكثر من غيره:

أغلب عبادة المشركين لأوثانهم هو الدعاء والطلب. ولهذا لم يرد في القرآن التحذير من سائر أنواع الشرك مثل ما ورد في التحذير من الشرك في الدعاء[(٥)].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧١-٥٧٢) وانظر إن شئت: «الفوائد» (٣٤٨).

(٢) «معارج الألباب» (٢٢٤).

(٣) انظر: «تصحيح الدعاء» (١٧)، و«الدعاء» للعروسي (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٥) «الدعاء» للعروسي (١/ ٧).

٧- أن دعاء غير الله تعالى بحجة طلب الشفاعة هو أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية: «فأتى بالإخلاص وأخبرهم أنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه وأخبر أن من فعل ما يستحسنونه فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وهذه المسألة هي الدين كله ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد»(١).

أقسام الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى قسمين:

١- دعاء ثناء وعبادة:

وضابطه: قصد المدعو لذاته.

وأثره على العبد: أن يمتلئ قلبه بعظمة الله وجلاله؛ لأن العابد «يدعو خوفًا ورجاءً دعاء عبادة»(٢). قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور:٢٨] «فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة والمعنى أنا كنا من قبل نخلص له العبادة»(٣).

٢- دعاء مسألة وطلب:

وضابطه: قصد المدعو لأمر يطلبه منه؛ لأن العابد «يدعو للنفع والضر»(٤).

وأثره على العبد: أن يمتلئ قلبه بالرغبة والافتقار لله والإنكسار والانطراح بين يديه.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢] لأن المضطر يريد نيل مطلوبه ولذا قال: ويكشف السوء، «وهذا الدعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشدة والضرورة»(٥).

---

(١) «مسائل الجاهلية مع شرحها للألوسي (٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١).

(٣) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١). وانظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٥٣١).

(٥) «تحفة الطالب والجليس» (١٠٣).

ووجه انقسام الدعاء إلى نوعين: «أن الدعاء هو قصد المدعو تارة لذاته وتارة لمسألته أمرًا منه»(١)، والذي يقصد لذاته ولما يطلب منه هو الله تعالى: فـ«كونه أحدًا وكونه الصمد يتضمن أنه الذي يقصده كل شيء لذاته ولما يطلب منه، وأنه مستغنٍ بنفسه عن كل شيء»(٢).

فلا يجوز أن يتجه العبد بالدعاء إلا لمن يملك النفع والضر لأن الدعاء طلب نفع الداعي وطلب دفع ما يضره وكشفه. ولا يملك ذلك إلا الله ﷻ.

ولهذا أنكر الله على من دعا من دونه ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]. وقال إبراهيم عليه السلام لقومه مبينًا جهلهم وسفههم وعدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٦٦-٦٧].

وأبطل دعاء غير الله مرّة أخرى بسؤالهم هل تنفعهم آلهتهم وتسمع قولهم، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء: ٦٩-٧٣]. فلما ألجموا حادوا عن الجواب وقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٧٤].

«فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بُدَّ أن يكون مالكًا للنفع والضر»(٣).

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٤٥٣).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠-١١).

فمن دعا غير الله فقد أساء وظلم واستحق العقوبة. ولذلك توعده الله بالعذاب فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

قال شيخ الإسلام: «وهذان النوعان -أي نوعا الدعاء- هما جميعاً مختصان بالله، حقان له لا يصلحان لغيره، بل دعاء غيره بأحد النوعين شرك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾»[1].

تلازم نوعي الدعاء:

مرّ معنا أن الدعاء ينقسم إلى قسمين وليس معنى ذلك أن بينهما تضاداً أو أن أحدهما لا يدل إلا على النوع الذي أريد به فقط. بل معناه أنه في أحدهما أظهر.

قال شيخ الإسلام عند قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٥-٥٦][2].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء. دعاء العبادة، ودعاء المسألة. فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان... فالداعي يدعو دعاء مسألة لجلب النفع ودفع الضر، ويدعو خوفًا ورجاءً دعاء عبادة فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[3].

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٤٥٧).

(٢) قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ في دعاء المسألة أظهر، أما قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في دعاء العبادة أظهر. انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠-١١) وانظر: زيادة في الأمثلة في (١٥/ ١٢-١٥) وانظر: (١٠/ ٢٤٠).

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

فهذه الآية تتناول نوعي الدعاء. وبكل منهما فسرت الآية.

قيل: «أعطيه إذا سألني وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان،... وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا»(١).

ضابط معرفة نوعي الدعاء:

يكون الدعاء في دعاء المسألة أظهر إذا فُهِمَ من الدعاء التجاءٌ أو كان طلبًا من أحدٍ أن يدعو له(٢)، أو نداءً مباشرًا لله عز وجل، أو عدم سماع المدعوين غير الله تعالى.

أما دليل الالتجاء لكشف الضر، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٤٠-٤١].

«وهذا الدعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشدة والضرورة»(٣).

ودليل الطلب من أحد ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[الأعراف:١٣٤].

أما النداء المباشر لله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران:٣٨].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١).

(٢) والمقصود به طلب الدعاء من حي حاضر قادر.

(٣) «تحفة الطالب والجليس» (١٠٣).

أما عدم سماع المدعوين غير الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾[فاطر:١٣-١٤].

ويكون في دعاء العبادة أظهر فيما عدا ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾[الفرقان: ٧٧]؛ أي: دعاؤكم إياه... والمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ أي: ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه.

وعبادته تستلزم مسألته. فالنوعان داخلان فيه.

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا أعقبه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾[غافر:٦٠][(١)].

أنواع الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى نوعين اثنين:

الدعاء التوحيدي العبادي الإيماني:

وهو دعاء الله وحده دون ما سواه لجلب نفع أو دفع ضر، أو تعظيم.

وقد أمر الله به في آي كثيرة من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[غافر:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥].

ونهى عما يضاده، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[الجن:١٨].

وبيّن غناه وسعة جوده وفضله على من دعاه وحده، فقال في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٢).

كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(١).

وأثنى على رسله بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

وأخبر بإجابته للداعين الموحدين، بل وقربه منهم، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

وللداعي دعاءً توحيديًّا إيمانيًّا عباديًّا ثلاث حالات هي:

١- أن تسأل الله بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

٢- أن تسأله بحاجتك وفقرك وظلمك: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣].

٣- أن تسأله حاجتك ولا تذكر واحدًا من الأمرين: كقول الداعي رب اغفر لي...

فالأول أكمل من الثاني والثاني أكمل من الثالث. فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل.

كما في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لأبي بكر: «**اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذُّنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(٢).

فهذا -الدعاء- فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٣١٧) كتاب «الأذان»/ باب الدعاء قبل السلام. رقم (٨٣٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٨) كتاب «الذكر»/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر. رقم (٢٧٠٥).

وفيه بيان المقتضى للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة. فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب(١).

الثاني: الدعاء الشركي الكفري:

وهو دعاء غير الله مع الله، أو دونه، تعظيمًا، أو لجلب منفعة، ودفع مضرة، قال الشوكاني: «إن الشرك هو دعاء غير الله تعالى...»(٢).

وهذا النوع من الدعاء هو الذي جاءت الرسل كلهم بالنهي عنه، وتقبيحه والتحذير منه، وتنفير الناس عنه.

فنهى عن دعاء من لا ينفع، ولا يضر، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]، فهم أعجز من أن يجيبوهم، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩٧]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦].

ووبّخ من دعا غيره، فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢]، وهذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

وحذّر مَنْ أشرك به في الدعاء من العذاب الأليم، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

وبيّن العذاب رسوله ﷺ فقال: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا: دخل النار**»(٣).

وفي لفظ لمسلم: «**من مات يشرك بالله شيئًا: دخل النار**»(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٤-٢٤٧) و«جلاء الأفهام» (٧٩-٨٠).

(٢) «الدر النضيد» (١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ١٧٦)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:١٦٥]. رقم (٤٤٩٧).

(٤) مسلم (١/ ٩٤)، كتاب «الإيمان»/ باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار. رقم (٩٢).

ومن نماذج الدعاء الشركي:

قول أحدهم في البدوي:

يا من رماه الدهر بالإزعاج ... ناد بعزم يا أبا فراج

فهو المراد إذا الخطوب تراكمت ... وهو المجيب لدعوة المحتاج

وقال آخر في البدوي:

وهو المجيب لسائل يتوسل ... إذ باسمه عند المخاوف يهتف

وهو الملاذ إذا الخطوب تراكمت ... وهو المعاذ وفي الشدائد يعرف[١]

وقول محمد السنوني داعيًا عبد القادر الجيلاني:

من ضاق عنه لأمر مسلك الحيل ... فما له غير عبد القادر الجيلِي

فهو السريع لما يدعى إليه إذا ... ضاق الخناق على من ضل في السُّبل

فناد باسمه فيما عز مدركه ... تلق العناية قد جاءتك بالأمل

غوث يغيث الذي يدعوه منتصرًا ... بغاية الحزم إذ يأتيه عن عجل[٢]

علاقة الدعاء بأنواع التوحيد:

«الإله» هو المعبود الذي يستحق أن يعبد.

و«الرب» هو الذي يرب عبده فيدبره.

«فهو سبحانه مستحق التوحيد الذي هو دعاؤه وإخلاص الدين له: دعاء العبادة بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معاني تألُّهه

---

(١) «البدوي بين الحقيقة والخرافة» (٢٨٠) نقلًا عن «الدعاء» للعروسي (١/ ٤٧١).

(٢) «الرحلة الحجازية» (٣/ ٨٥)، وانظر: «الانحرافات العقدية» في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (١/ ٣٢٠) فما بعدها.

وعبادته، ودعاء المسألة والاستعانة بالتوكل عليه والالتجاء إليه والسؤال له ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته وهو سبحانه الأول والآخر والباطن والظاهر»(١).

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه (الله) تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الآذان والصلاة: الله أكبر، والشهادتين والتشهد والتسبيح والتحميد والتهليل.

وأما السؤال فكثيرًا ما يجيء باسم الرب كقول آدم عليه السلام وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف:٢٣]، وقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾[هود:٤٧]، وموسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[القصص:١٦]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾[إبراهيم٣٧]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾[البقرة:١٢٧]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾[البقرة:٢٠١]، وغيرها كثير.

فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه: الرب، وإن سأله باسمه: الله، لتضمنه اسم الرب كان حسنًا، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك(٢).

ولا يمكن أن يتجه القلب إلى الله فيدعوه ويرجوه ويخافه ويستعين به إلا إذا آمن بأسمائه وصفاته، فيرجوه لأنه يعلم أنه الوهاب، الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود. ويخافه لأنه يعلم عظمته فهو القهار، الجبار، المنتقم من المجرمين. ويستعين به لأنه يعلم أنه الملك القوي القادر سبحانه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٦).

(٢) المرجع السابق (١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٦) باختصار.

أسباب قبول الدعاء:

لقبول الدعاء أسباب منها:

١- الإخلاص:

الإخلاص: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة.

وقد أمر الله نبيه أن يصرح بإخلاصه لله فقال له: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[الزمر:١٤].

وأمرنا الله به أمرًا عامًّا، فقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[غافر:١٤] قال عبدالواحد بن زيد: «الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرق بينهما»[(١)].

٢- التضرع والخشوع والتذلل:

قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥].

التضرع والخشوع هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته. قال شيخ الإسلام: ذكر الله التضرع وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء[(٢)].

٣- قوة الرجاء في إجابة الدعوة:

حث النبي ﷺ على قوة رجاء الله بقبول الدعاء، فقال ﷺ: **«ادعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»**[(٣)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ١٦٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩-٢٠).

(٣) الترمذي (٥/ ٥١٧)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٤٧٩)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والطبراني في «الدعاء» (٣٩) رقم (٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٧٠)، وقال: «هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة، ولم يخرجاه»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٨) رقم (٢٤٣).

وعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا سألتم الله عز وجل أيها الناس، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**»(١). وللرسل عليهم السلام القدح المعلّى في ذلك، فها هو يعقوب عليه السلام يضرب أروع الأمثلة في قوة رجائه بإجابة ربه دعوته رد ابنيه بعد طول مدة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف:٨٣]، ووعى هذا سفيان بن عيينة جيدًا، فقال: «لا يمنعن أحدًا من الدعاء ما يعلم في نفسه من التقصير فإن الله تعالى أجاب شر الخلق إبليس قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الحجر:٣٦]»(٢).

٤- الجزم في الدعاء:

أمر النبي ﷺ بالجزم والعزم في الدعاء، فقال: «**لا يقولنَّ أحدكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئت، اللهمَّ ارحمني إنْ شئتَ، ليعزم المسألة؛ فإنَّهُ لا مستكره له**»(٣). وفي رواية له: «**لا يقل أحدكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ، ارحمني إن شئتَ، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنّه يفعل ما يشاء، لا مكره له**»(٤).

وفي رواية لمسلم: «**ولْيُعظِّم الرغبة؛ فإنَّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»(٥).

فاتضح من هذه الأحاديث أن عدم الجزم فيه ثلاثة محاذير:

أ) اتهام الله بأنه يعطي السائل وهو مكره على ذلك، وهذا لا يليق بالله ولهذا أبطله

---

(١) أحمد (٢/ ١٧٧)، قال المنذري: «رواه أحمد بسند حسن». «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٩١-٤٩٢)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وإسناده حسن». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٠٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١١/ ١٣٩) كتاب «الدعوات»/ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له. رقم (٦٣٣٩).

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٤٨) كتاب «التوحيد»/ باب في المشيئة والإرادة. رقم (٧٤٧٧).

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٦٣) كتاب «الذكر»/ باب العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت. رقم (٢٦٧٨).

النبي ﷺ بقوله: «**فإنَّ اللهَ لا مكره له**».

ب) أنه دليل على ضعف رغبة الداعي وعدم افتقاره إلى ربه، ولهذا عالجه النبي ﷺ بقوله: «**وليعظم الرَّغبةَ**».

ج) أنه سوء ظن بالله تعالى حيث ظن أنه يستكثر شيئًا مما طلبه العبد فيمنعه ويبخل به، ولهذا أبطله النبي ﷺ بقوله: «**فإنْ اللهَ لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه**».

٥- حضور القلب:

عدم حضور القلب دليل عدم الرغبة أوضعفها، ومن كان كذلك فيخشى أن يرد الله دعوته قال ﷺ: «**واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاه**»(١) فينبغي لمن أراد أن يدعو أن يكون قلبه حاضرًا أثناء دعائه؛ فإن ذلك أحرى بالقبول.

٦- إخفاء الدعاء:

إخفاء الدعاء من أعظم أسباب قبوله، ولذلك أمر الله به بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥].

ومدح عبده زكريا بالإسرار به فقال سبحانه ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾[مريم:٣]، أي دعا سرًا من قومه في جوف الليل(٢).

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة، منها:

أ) أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

ب) أنه أعظم في الأدب والتعظيم.

ج) أنه أبلغ في التضرع والخشوع.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٨).

د) أنه أبلغ في الإخلاص.

هـ) أنه أبلغ في جمعِيَّة القلب على الذلة في الدعاء.

و) أنه دالٌّ على قرب صاحبه من الله، فكلما استحضر القلب قرب الله وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

ز) أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف رفع الصوت(١).

٧- رفع اليدين:

رفع اليدين في الدعاء من أسباب قبوله، لقوله ﷺ: «**إنَّ ربَّكُم تبارك وتعالى حيِّيٌّ كريمٌ يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يرُدَّهُما صفرًا**»(٢).

وذلك لأن «رفع اليدين وبسطهما لله تعالى: استكانة وعبودية واستطعام»(٣).

من أسباب رد الدعاء وعدم قبوله:

لرد الدعاء وعدم قبوله أسباب كثيرة منها:

١- الاعتداء في الدعاء:

الاعتداء مشتق من العدوان وهو تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه، ولأجل ذلك نهى الله تعالى عنه.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥-١٩)، وانظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٦-١٠).

(٢) أبو داود (٢/ ١٦٥)، كتاب «الصلاة»/ باب الدعاء. رقم (١٤٨٨)، والترمذي (٥/ ٥٥٦-٥٥٧)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٢٧١)، كتاب «الدعاء»/ باب رفع اليدين في الدعاء. رقم (٣٨٦٥). قال الذهبي: «وهذا حديث صحيح. رواه جماعة من الصحابة». «العرش» (٢/ ٦٦).

(٣) «تصحيح الدعاء» (٢٦).

ومن الاعتداء في الدعاء بل أعظم الاعتداء في الدعاء دعاء غير الله(١)، فهو الشرك الأكبر، وصاحبه أضل الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾[الأحقاف:٥]. ولخطورة الاعتداء فيه تنوعت الأساليب في التحذير منه، **فمنها:**

أ- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أنّ فاعله ظالم: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦].

ب- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن فاعله مُعَذَّبٌ معاقب، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٣].

جـ- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن المدعوّين يهلكون ويموتون وهذا دليل على أنه لا يجوز أن يُدْعوا: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٨٨].

د- بيان حيرة من دعا غير الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾[الأنعام:٧١].

هـ- عدم استجابة المدعوين من دون الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾[الرعد:١٤].

و- عجز المدعوّين وذلك لنقص في صفاتهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[الشعراء:٧٢-٧٣]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ

(١) انظر: «الرد على البكري» (٩٥).

ﵟضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُﵞ[الحج:٧٣]، ﵟقُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًاﵞ[الإسراء:٥٦].

ز- العقوبة بالنار: لقوله ﷺ «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**»[١].

ومن الاعتداء في الدعاء سؤال الله ما لا يجوز سؤاله، كسؤاله ما لا يليق به من منازل الأنبياء. وسؤال ما لا يجوز سؤاله من المعونة على المحرمات. وسؤال ما لا يفعله كسؤال تخليده إلى يوم القيامة، أو يجعله من المعصومين ودعاؤه ربّه غيرَ متضرع. وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل. فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد[٢].

وقد جمعها النبي ﷺ بقوله: «**لا يزالُ يستجاب للعبد ما لم يدع بإثمٍ أو قطيعة رحمٍ...**»[٣].

فيدخل في الإثم جميع ما يأثم به من الذنوب ويدخل في قطيعة الرحم جميع حقوق الأقارب ومظالمهم.

٢- أكل الحرام:

أكل الحرام من موانع إجابة الدعاء لقوله ﷺ حين ذكر: «**الرجل يطيل السَّفرَ أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء، يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرامٌ، ومشربهُ حرامٌ، وملبسهُ حرامٌ، وغذي بالحرام**»، **قال**: «**فأنّى يستجاب لذلك**»[٤].

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٧٦) كتاب «التفسير»/ باب ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا. رقم (٤٤٩٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٢-٢٣).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٩٦) كتاب «الذكر»/ باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي. رقم (٢٧٣٥).

(٤) مسلم (٢/ ٧٠٣) كتاب «الزكاة»/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب. رقم (١٠١٥).

فأنى يستجاب لذلك: أي كيف يستجاب له.

فهذا الداعي أتى بأربعة أسباب من دواعي الاستجابة وهي: أ) السفر. ب) وكونه أشعث أغبر، ج) يمد يديه إلى السماء، د) الإلحاح حيث كرر يا رب. ومع هذه الأسباب الأربعة استبعد النبي ﷺ إجابته لسبب واحد هو حرمة المطعم والمشرب والملبس.

٣- الاستعجال:

آفة كثير من الداعين الاستعجال ولذلك عالجه النبي ﷺ بقوله: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يعجلْ، يقول: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجب لِي**»(١) وفي رواية لمسلم: «قِيلَ يَا رَسُولَ الله، مَا الاسْتَعْجَال؟ قال: «**يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدعُ الدّعاء**»(٢).

ويحفظك من الاستعجال أربعة أمور:

١- معرفة أن الداعي قد تجاب دعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها، وقد تدخر له دعوته يوم القيامة فالله أعلم بما يصلحه.

٢- أن في تأخير إجابة الدعاء استمرار الداعي بالتضرع والذل لله ولو أجيبت دعوته لترك التضرع والدعاء.

٣- أن من الأنبياء من استجاب الله دعوتهم بعد موتهم بقرون كاستجابة الله دعاء أبينا إبراهيم عليه السلام حينما دعا ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾[البقرة:١٢٩].

فبعث الله نبينا محمدًا ﷺ بعد قرون.

٤- أن في الاستعجال آفتين عظيمتين هما سوء الظن بالله وفي المقابل تزكية الداعي نفسه.

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ١٤٠) كتاب «الدعوات»/ باب يستجاب للعبد ما لم يعجل. رقم (٦٣٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

والخوف.

....

الخوف: لغة: الفزع.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع»(١).

واصطلاحًا: هو اضطراب القلب واحتراقه وفزعه عند تذكر مقام الله ووعيده بعقوبة من عصاه وخالف أمره.

أو: «الانخلاع عن طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب»(٢).

والخوف شعار الصالحين، وأقوالهم في ذلك كثيرة، منها:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «يا ليتني شجرة تعضد ثم تؤكل»(٣) وورد مثل هذا عن أبي ذر(٤) وابن مسعود(٥) وعائشة(٦) وأبي الدرداء(٧) وغيرهم(٨) رضي الله عنهم.

وأما عمر رضي الله عنه فاقرأ حواره مع أبي موسى الأشعري تعرف شدة خوفه من ربه، كما رواه ابنه عبد الله بن عمر قال: قال أبي: «يا أبا موسى هل يَسُرُّك إسلامنا مع رسول الله

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٣٠) مادة خوف.

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨١).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٢٥١).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٨٢).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٨٨)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ١٣٣).

(٦) «الزهد» لوكيع (١/ ٣٩٥).

(٧) «الزهد» لهناد (١/ ٢٥٨).

(٨) انظر: «الزهد» لوكيع (١/ ٣٩٣) و«الزهد» لهنّاد (١/ ٢٥٨) كلاهما باب من قال: ليتني لم أخلق.

وهجرتنا معه وجهادنا معه وعملنا كله معه بَرَدَ لنا، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافًا رأسًا برأس فقال أبو موسى الأشعري: لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيرًا كثيرًا وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك. قال عبدالله بن عمر فقال أبي: لكني أنا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك بَرَدَ لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافًا رأسًا برأس»[(١)].

ويضرب عبدالله بن مسعود المثل في خوفه من الله فيقول: «وددت أن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي أو خطيئة من خطاياي وإني لا أعرف لي نسبًا»[(٢)]. وفي لفظ: «لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي رجلان، ولحثيتم على رأسي التراب، ولوددت أن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي، وإني دعيت عبد الله بن روثة»[(٩)].

ويضطرب قلبه رضي الله عنه عندما قال رجل عنده: «ليتني من أصحاب اليمين، فيقول مجيبًا: ليتني إذا مت لم أبعث»[(٣)] ومثله عمران بن حصين رضي الله عنه حيث يقول: «وددت أني رماد تذروني الرياح»[(٤)].

ويصف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حال المؤمن وخوفه وحال المنافق وعدم مبالاته فيقول: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا»[(٥)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٥٤) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩١٥).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٧)، و«المستدرك» (٣/ ٣٥٧).

(٣) «الزهد» لأحمد (١٩٥).

(٤) المرجع السابق (١٨٦).

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠٢)، كتاب «الدعوات»/ باب التوبة. رقم (٦٣٠٨).

ولشدة خوف الحسن البصري فإنه يخشى أن ترد عليه أعماله الصالحة كلها فيقول: «نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئًا»(١).

ويشخص حال كل من المؤمن والمنافق مع الخوف وعدمه فيقول: «المؤمن أحسن الناس عملًا وأشدهم من الله خوفًا لو أنفق في سبيل الله ملء الأرض ذهبًا ما أمن حتى يعاين ويقول: أبدًا لا أنجو، أبدًا لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير وما عسى ذنبي في جملة الذنوب إن الله رحيم وسيغفر لي ثم يقول: ابن آدم تعمل السيئات وتتمنى على الله الأماني»(٢) ويصور مورق حال المؤمن من الخوف والحذر أبلغ تصوير فيقول: «ما وجدت للمؤمن في الدنيا مثلًا إلا كمثل رجل على خشبة في البحر وهو يقول: يا رب يا رب لعل الله ينجيه»(٣).

ويحذر ابن عون ﵀ من الثقة بالعمل والركون إليه ومن الأمن من الذنوب فيقول: «لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري تُقُبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري هل كُفِّرت عنك أم لا، لأن عملك مغيب عنك كله لا تدري ما الله صانع فيه أيجعله في سجين أم يجعله في عليين»(٤).

وإذا ما استشعرت أن ذنبك الذي أذنبته قد كتب أوجب لك الخوف قال بعضهم لرجل: «هل أذنبت ذنبًا؟ قال: نعم، قال: فعلمت أن الله كتبه عليك، قال: نعم، قال فاعمل حتى تعلم أن الله قد محاه»(٥).

---

(١) «صفوة الصفوة (٣/ ٢٣٣).

(٢) «آداب الحسن وزهده» لابن الجوزي (٤١).

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٤٨٤).

(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٥٥٨) رقم (٦٩٣٠).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٢٢).

وأختم هذه الآثار بصورتين حيتين من واقع سلفنا الصالح رحمهم الله:

أما الصورة الأولى فرواها المغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة بنت عبد الملك: يا مغيرة! إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر بن عبدالعزيز، وما رأيت أشد خوفًا من ربه منه، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه ثم ينتبه فلا يزال يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينه يفعل ذلك ليله أجمع»[1].

وأما الثانية فهي: ما كان الضحاك بن مزاحم يفعله فإنه: «إذا أمسى بكى فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي»[2].

حالتا الخائف من حيث الاستقامة وعدمها:

١ - أن يكون مفرطًا عاصيًا مائلًا عن الاستقامة:

فيكون خوفه من العقوبة على ميله.

ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أ- معرفته بالجناية وقبحها.

ب- تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

ج- أنه لا يعلم فربما يحال بينه وبين التوبة بسبب هذا الذنب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤]. فهذا النوع من الخوف ثمرة العلم بالوعد والوعيد.

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (٣٠٨) رقم (٨٨٤)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٦٦).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٥٠).

٢- أن يكون مستقيمًا على الطاعة:

فيكون خوفه مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء الله أقامه وإن شاء أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه كان أكثر يمينه: «**لا ومقلِّب القلوب**»(١)، فأيُّ قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحقُّ بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال. وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله(٢).

متعلق الخوف:

يوضح أمير المؤمنين علي رضي الله عنه متعلق الخوف فيقول: «لا يرج عبد إلا ربه ولا يخف إلا ذنبه»(٣).

فمتعلق الخوف (ذنب العبد وعاقبته) فيخاف العبد أن يخذل بسبب ذنوبه وأن يعاقبه الله ويخزيه بها.

وهذه الحقيقة واضحة وضوحًا تامًّا لدى الصحابة رضي الله عنهم، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك**» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللهِ ما يرجو، وآمنه ممَّا يخاف(٤)**»(٥).

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٥١٣) كتاب «القدر»/ باب يحول بين المرء وقلبه. رقم (٦٦١٧).

(٢) «طريق الهجرتين»(٢٨٣-٢٨٤) بتصرف.

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٨٣-٢٨٤)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١٧/ ٢١٩).

(٤) الترمذي (٣/ ٣١١)، كتاب «الجنائز». رقم (٩٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الموت والاستعداد له. رقم (٤٢٦١)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٨٢)، قال النووي: «إسناده جيد». «خلاصة الأحكام» (٢/ ٩٠٢)، وحسن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٦٨).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦)، و«طريق الهجرتين» (٢٨٥).

قَدْرُ الخوف وعلو منزلته:

تتجلى قيمة الخوف وعلو منزلته بما يلي:

١- أن الخوف من الله شرط في تحقيق الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، «فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف، انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه... فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكلٌّ منهما مستلزم للآخر»(١).

قال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لا يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار لأن أهل الجنة قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[فاطر:٣٤] وينبغي لمن لا يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾(٢) [الطور:٢٦] فمن فقد الخوف خسر الإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

٢- أنه لا يمكن أن تخلو منه عباده:

فالعابد الذي يريد وجه الله راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة:١٦]، ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع(٣).

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٢).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٩١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٠).

٣- أن الله مدح أولياءه وأنبياءه بالخوف منه:

لما كان الخوف أحد أركان العبادة العظام مدح الله أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال عن الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل:٥٠] ومدح الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالخوف منه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾[التوبة:١١٤] الأواه كثير التأوه خوفًا من الله عز وجل[(١)].

«قال ابن إسحاق: قيل لابن المبارك: رجلان أحدهما أخوف والآخر قتل في سبيل الله، قال أحبهما إليّ أخوفهما»[(٢)].

٤- أنه إذا كمل الخوف من الله ذهب الخوف من المخلوق:

إذا كمل خوف العبد من ربه لم يخف أحدًا سواه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، وإذا نقص خوفه من الله خاف من المخلوق. وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف من غير الله. فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحدٌ يسلم منه إلا من عصمه الله.

فإذا خاف الرجل غير الله دل على وجود مرض في قلبه كما ذكروا أن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: «لو صححت ما خفت أحدًا»[(٣)]، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافوا إلا هو سبحانه، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[(٤)] [المائدة:٤٤].

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٧١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (١٩٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٤) و(٢٨/ ٤٩٤).

أقسام الخوف:

الخوف الذي يعتري القلوب أنواع، هي:

الأول: الخوف الواجب «الخوف العبادي التوحيدي الإيماني»:

وهو الخوف من الله تعالى وحده لا شريك له وهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان، بل إنّ فقد هذا الخوف علامة على فقد الإيمان وهو من أفضل مقامات الدين وأنفعها للقلب. وأمر الله به في آي كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[البقرة:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[التوبة:١٨]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، ومدح الملائكة بإخلاص الخوف له فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠] ومدح المبلغين لرسالاته وخصهم بمدحه لإخلاصهم الخوف منه سبحانه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، ولذا صار فرضًا على كل أحد(١).

بل أجمع العلماء على فرضيته، قال ابن بطة: «أجمعت العلماء لا خلاف بينهم أن الله عز وجل قد افترض على الخلق الخوف والرجاء وأنه دعا عباده إليه بالرغبة والرهبة»(٢).

وقدر الخوف الواجب هو ما حجزك عن محارم الله(٣).

وأما الخوف المستحب: فهو ما حمل العبد على «التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات»(٤).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١١)، و«العواصم والقواصم» (٩/ ١٥٦).

(٢) «الشرح والإبانة» (٣٤٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٤) «التخويف من النار» لابن رجب (٢١).

وهذا هو الذي عناه أبو عثمان حين قال: «صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا»[(١)].

وأما «حقيقة الخوف: فألا تخاف مع الله أحدًا»[(٢)].

ثمرة الخوف: ثمرة الخوف هي الزجر والمنع من الخروج عن الطريق وذلك أن المحبة تلقي العبد في السير على محبوبه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب[(٣)]، وفي ذلك صلاح القلب فكلما استقر الخوف في القلب استقام القلب وصلح وكلما نقص الخوف أو انعدم انحرف القلب وضلَّ عن الصراط المستقيم. قال أبو سليمان الداراني: «ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب»[(٤)].

والخوف العبادي التوحيدي يشمل أمورًا ثلاثة:

١- خوف مقام الله: وفسر مقام الله بعظمة الله ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾[نوح:١٣]. أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة. وفسر بالمقام بين يدي الله يوم القيامة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦].

٢- خوف وعيد الله لمن عصاه: كالخوف من عقوبة الله بالنار ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾[النساء:١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾[الأنعام: ١٥-١٦].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣).

وقد جمع الله بين خوف مقامه وخوف وعيده، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤].

٣- خوف القواطع عن الله تعالى:

من أخطر ما يواجه المسلم وهو سائر في طريقه إلى الله: تلك القواطع التي تقطعه عن الله، فتحرف مساره عن الطريق الصحيح، كالشرك والنفاق والفتن ونحو ذلك، فيتحتم على المسلم الخوف منها.

ومن أدلة ذلك: خوف أبي الحنفاء حين دعا ربه، فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وحذر ﷺ صحابته من الشرك، فقال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»(١).

وفزعوا رضي الله عنهم خوفًا من النفاق، كما صوره ابن أبي مليكة بقوله: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»(٢).

خَوْفُ المقام مع الوعيد تصدعت	منه القلوبُ قلوبُ ذي الإيمان
وكذاك خوف قواطعٍ من فتنةٍ	مع شركه ونفاق ذي الكفران

الثاني: الخوف المحرم:

وينقسم الخوف المحرم إلى قسمين:

١- الخوف الشركي الكفري:

وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل أو نحو ذلك

---

(١) أحمد (٥/ ٤٢٨)، قال المنذري: «رواه أحمد بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (١/ ٦٩).

(٢) البخاري (١/ ١٨)، كتاب «الإيمان»/ باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

بقدرته ومشيئته، فهذا شرك أكبر مناف للتوحيد، قال تعالى عن المشركين: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[الزمر:٣٦] ثم ردَّ عليهم ربنا جل وعلا فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ معرة معاداة الأوثان وقالوا: كف عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل أو جنون(١).

ولما خوف إبراهيم عليه السلام قومه آلهتهم رد عليهم بما ذكره الله ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:٨٠] فبين لهم أنه لا يخاف آلهتهم ثم رد الأمر إلى مشيئة الله سبحانه لأنه هو الذي يخاف فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾[الأنعام:٨٠] وهذا الاستثناء منقطع ومعنى ذلك لا أخاف من تلك الآلهة التي تخوفونني بها فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إذا شاء الله أن ينالني بشيء لا راد لذلك لأن الله وحده له المشيئة النافذة والقدرة التامة، وهذا كقول قوم هود لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤] فكان رده عليهم قويًا حتى تحداهم جميعًا هم وآلهتهم فأبطل بذلك ظنهم الشركي الكاذب كما قال الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[هود:٥٤-٥٥].

ولم يهددوا الرسل بالآلهة المزعومة إلا لأنهم يخافون منها. «وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله عز وجل بل أشد. ولهذا لو توجهت على أحدهم باليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبًا أو صادقًا فإن كان اليمين بصاحب التُّربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذبًا، وما ذاك إلا لأنّ المدفون في التراب أخوف عنده من الله... وإذا أراد أن يظلم أحدًا فاستعاذ بالله لم يُعِذْهُ ولو استعاذ

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ٨٠).

بصاحب التربة لم يقدم عليه ولم يتعرض له بالأذى»[١].

وسأكتفي بنموذجين اثنين من الخوف الشركي:

أ- عندما هجا الحاج العربي المشرفي السيد عبد الله بن أحمد احتمى بضريح المولى إدريس نحو عامين[٢]، عامين لم يستطيعوا أن يمسوه بسوء خوفًا من صاحب الضريح.

ب- لما ثار الناس على والي فاس من أجل المكس عام (١٢٩١هـ) هدموا داره، وانتهبوا أثاثه، وأرادوا قتله، فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة، ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس، فأقام به، وأمن على نفسه[٣]. كل أهل فاس خافوا أن يمسوه بسوء خوفًا من صاحب الضريح.

ومن المقولات الخاطئة قول بعض الناس: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك. قال شيخ الإسلام: «هذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدًا فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل ذي شر ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك»[٤].

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٥٨).

(٢) «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام» (٣/ ٥٢).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٧-٥٨)، ومثلها ما اشتهر على ألسنة بعض الناس، وهي قولهم: «الذي لا يخاف من الله خف منه».

٢- خوف المعصية:

وذلك أن يرتكب المسلم المعصية خوفًا من الناس وهو خوف محرم ولا شك. قال رسول الله ﷺ: «**ألا لا يمنعنَّ رجلًا هيبة النّاس أن يقول بحقٍّ إذا علمهُ**». قال فبكى أبو سعيد فقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا[١].

فإن وصل إلى الردة صار كفرًا وشركًا أكبر ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه، فإذا آذاه المشركون في إقراره بالله جعل فتنة الناس إياه في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، فارتد عن إيمانه بالله راجعًا على الكفر به. قال ابن عباس: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي»[٢].

الثالث: الخوف الجائز «وهو الخوف الطبيعي»:

وهو الخوف من شيء مخوف انعقدت أسبابه، وهو الخوف من سبب جرت العادة بخطورته كالخوف من سبع أو حية أو هدم أو غرق ونحو ذلك فهذا لا يمدح ولا يذم لذاته **والفرق** بينه وبين السابق أن المحرم يجر إلى ارتكاب معصية أو ترك طاعة أما الخوف الطبيعي فلا يجر إلى ارتكاب معصية أو ترك طاعة كخوف موسى عليه السلام عندما أرادوا قتله قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٢١] ولم يلمه الله على هذا الخوف فدلَّ على أنه جائز لا بأس به.

وكما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أسلم.

---

(١) الترمذي (٤/ ٤٨٣-٤٨٤) كتاب «الفتن»/ باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة. رقم (٢١٩١)، وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٣٢٨)، كتاب «الفتن»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠٠٧).

(٢) «جامع البيان» (٢٠/ ١٢).

كما يروى ذلك عبدالله بن عمر عن أبيه فيقول: «بينما هو في الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي وعليه حلة حَبرة وقميص مكفوف بحرير وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت، قال: لا سبيل إليك بعد أن قالها أَمِنْتُ. فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي. فقال أين تريدون، فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه. فَكَرَّ الناس»(١).

الأسباب الجالبة للخوف:

الخوف من أجل منازل الطريق فهو الزاجر للقلب عن الخروج من طريق أهل الاستقامة.

وعندما ننظر إلى أنفسنا نجد ضعفها في هذا الجانب فنتساءل هل من سبيل إلى تقوية الخوف من الله؟ والجواب نعم **وذلك بالأمور التالية:**

(١) التوحيد:

التوحيد هو العامل الأول للخوف من الله إذ يشعر الموحد أن النفع بيد الله والضر بيده، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[يونس:١٠٧].

ويقرر النبي ﷺ هذه الحقيقة جيدًا بل ويغرسها في قلوب الشباب من الصغر فيقول في وصيته لابن عباس: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ عليك**»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٧٧) «مناقب الأنصار»/ باب إسلام عمر بن الخطاب. رقم (٣٨٦٤).

(٢) أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٦٦٧)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٥١٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن منده في كتاب «التوحيد» (٢/ ١٠٧) وقال: «هذا إسناد مشهور، رواه ثقات، =

ونتيجة ذلك: أن يتوكل عليه وحده، ويخلص له العبادة.

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله بل يفرد الله بالمخافة ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين[(١)] قال الفضيل بن عياض: «من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[(٢)].

(٢) العلم:

من الأسباب الرئيسة في جلب الخوف من الله هو العلم وهو حقيقة بينها الله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨].

وكلما كان المرء بالله أعلم كان له أخوف وأتقى ولما كان أعلم الناس هو رسول الله ﷺ صار هو أتقاهم وأخشاهم قال ﷺ: «**إنَّ أتقاكم وأعلمكم أنا**»[(٣)].

وفي لفظ: «**واللهِ إنِّي لأرجوا أن أكون أخشاكم للهِ، وأعلمكم بما أتقي**»[(٤)].

وهذه حقيقة مستقرة في قلوب سلف هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم والآثار في ذلك كثيرة أكتفي بثلاثة منها:

أما الأول فقال ابن عباس رضي الله عنه: «من خشي الله فهو عالم»[(٥)] وأما عبدالله ابن المبارك

= وقيس بن الحجاج مصري روى عنه جماعة ولهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها»، وقال ابن رجب: «طريق حنش التي أخرجها الترمذي حسنة جيدة». «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٤٨).

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٥) بتصرف.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٦٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٧٠) كتاب «الإيمان»/ باب قوله ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**». رقم (٢٠).

(٤) مسلم (٢/ ٧٨١) كتاب «الصيام»/ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. رقم (١١١٠).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٩٢) «المقدمة»/ باب فضل العلم والعالم.

فيقول: «أكثركم علمًا ينبغي أن يكون أشدكم خوفًا»(١).

وثالثها قول الفضيل بن عياض: «إن رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله»(٢).

٢- قراءة القرآن وسماعه:

كلام ربي فيه من الزواجر ما يجعل القلوب تلين وتتحرك وتخاف، ولذلك أثنى الله على المتأثرين بالقرآن الخائفين عند سماعه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[الزمر:٢٣].

وإمام الخائفين الخاشين لله هو رسول الله ﷺ كان القرآن يحرك قلبه بالخشية فيبكي ومن ذلك بكاؤه ﷺ عندما قرأ عليه ابن مسعود آية النساء حتى إذا بلغ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾[النساء:٤١]، قال لي: «كف أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان»(٣).

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلًا بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن(٤).

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب:٣٣] فتبكي حتى تبل خمارها(٥).

وقرأ ابن عمر رضي الله عنه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المطففين:١-٦] فبكى حتى خرَّ وامتنع عن قراءة ما بعده(٦).

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٩/ ٩٨) كتاب «فضائل القرآن»/ باب البكاء عند قراءة القرآن. رقم (٥٠٥٥).

(٤) البخاري (٧/ ٢٣١) كتاب «فضائل أصحاب النبي»/ باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٥).

(٥) «الزهد» لأحمد (٢٠٥).

(٦) المرجع السابق (٢٤٠).

٣- استشعار كتابة ما يصدر عنه:

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[الكهف:٤٩]، وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأخذ بطرف لسانه في مرضه فيلوكه ويقول: هذا أوردني الموارد[1].

وكان الإمام أحمد يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله[2].

٤- تأمل معاني أسماء الله التي فيها الجلال والعظمة:

من أعظم ما يوجد الخوف في قلب المسلم تأمل أسماء الله تعالى. قال ابن القيم: «وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقبضت أعِنَّةُ رعوناتها فأحضرت المطيةُ حَظَّها من الخوف والخشية والحذر»[3].

٥- استشعار أن الله مطلع عليه عالم بفعله ونيته:

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١].

«الخبير هو العالم بخفايا الأشياء وحقائقها وهذا الوصف من أكبر الدواعي لإعظام الله ومراقبته وطاعته في أمره ونهيه لأنه مطلع على أسرار الضار والنافع»[4].

---

(١) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٥٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الفوائد» (١٢٠).

(٤) «معارج الصعود» (٣٩).

قال سهل بن عبدالله: «لا يبلغ العبد حقيقة الخوف من الله حتى يخاف مواضع علم الله فيه ويحزن على ذلك»(١).

٦- إرسال الآيات المخيفة:

كلما غفل الناس وضيعوا من أوامر الله ما ضيعوا أرسل الله إليهم ما يذكرهم من الآيات -قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء:٥٩]- لعلهم ينزجرون ويعودون إلى الجادة وإلى الطريق المستقيم ومنها:

أ- الكسوف والخسوف:

كسفت الشمس في عهد النبي ﷺ ففزع فزعًا شديدًا، ومن شدة فزعه أخطأ بدرع إحدى زوجاته حتى أُدرك بردائه ﷺ(٢) وذهب يصلي، فأطال القيام والركوع والسجود، ثم خطب بعد الصلاة ومما قال ﷺ: «**إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكنّ الله تعالى يخوف بهما عباده**»(٣).

ومما قال لهم: «**لله أغير من أن يزني عبده أو أمته فنهاهم عن الذُّنوب وأمرهم بالتعوذ من عذاب القبر وأرشدهم إلى الصّدقة والصّلاة والدّعاء حتّى يكشف الله ما بهم**»(٤).

ب- الرياح الشديدة والغيم:

فعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت الريح الشديدة إذا هبت عُرف ذلك في وجه النبي ﷺ»(٥).

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢١٥).

(٢) مسلم (٢/ ٦٢٥) كتاب «الكسوف»/ باب ما عرض للنبي ﷺ في صلاة الكسوف. رقم (٩٠٦).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٣٦) كتاب «الكسوف»/ باب قول النبي يخوف الله عباده بالكسوف. رقم (١٠٤٨).

(٤) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٢٩) كتاب «الكسوف»/ باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨-٦٣٠)، كتاب «الكسوف». رقم (٩٠١-٩١٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٢٠) كتاب «الاستسقاء»/ باب إذا هبت الريح. رقم (١٠٤٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إذا تخيلت السماء تغير لون النبي ﷺ وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: «**لَعَلَّه يا عائِشة كَما قَالَ قَومُ عَادٍ:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[١]» [الأحقاف:٢٤].

وقد كان السلف يستشعرون ذلك ويخافون منه، قال أبو زكريا الهمداني: كنا عند علي بن بكار فمرّت سحابة فسألته عن شيء فقال لي: «اسكت حتى تجوز هذه السحابة أما تخشى أن تكون فيها حجارة نُرْمَى بها»[٢].

ومن الآيات الزلازل والفيضانات وغيرها، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١].

٧- تذكر عقوبات الأمم الغابرة:

كل أمة عصت وخالفت أمر الله وتجبرت وطغت ولم تطع رسل الله نزلت بها عقوبة الله عز وجل كقوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم، فعلينا أن نتذكر تلك العقوبات ونتوب إلى ربنا، قال تعالى في سورة القمر بعد ذكره عقوبة كل قوم عصوا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[القمر:١٥-١٦]، وفي سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٨].

وعندما ذكر عقوبة قوم لوط قال: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣].

وهذا يقودنا إلى الخوف من الله أن يأخذنا على غرة بسبب ذنوبنا ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأعراف:٩٧-٩٨].

---

(١) مسلم (٢/ ٦١٦) كتاب «صلاة الاستسقاء»/ باب التعوذ من رؤية الريح والغيم. رقم (٨٩٩).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٧٦).

٨- تذكر الأمور المستقبلة:

يستقبلنا أمور عظام، وأهوال جسام (موت، ثم قبر، ثم قيامة، ثم صراط ونار)، فمن أكثر من ذكرها أورثه ذلك الخوف والإشفاق، قال ابن القيم: «فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»[١].

ولقد استقر ذكر الآخرة في قلوب السلف، حتى سيطر الخوف منها على قلوبهم، ومن ذلك: ما رواه المروزي، فقال: «كان أبو عبدالله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب. وإذا ذكرت الموت هان علي أمر الدنيا»[٢].

«ودخل رجل على الحسن فإذا هو يبكي، قال: ما يبكيك أصلحك الله؟ قال: أخاف أن يدخلني مالكي النار ولا يبالي»[٣].

ومن شدة استقرار أمر الآخرة في قلوبهم أن كل شيء يذكرهم الأمور المستقبلة ومن ذلك ما رواه الحسن قال: خرج هرم بن حيان وعبدالله بن عامر يريدان أرض الحجاز فبينما راحلتاهما ترعيان قال هرم بن حيان يا بن عامر! أيسرك أنك شجرة من هذه الشجر أكلتك هذا الراحلة فقذفتك بعرًا فاتُّخِذْت جلة قال والله لما أرجو من رحمة الله ﷿ أحب إليّ من ذلك. فقال هرم بن حيان: ولكني والله لوددت أني شجرة من هذا الشجر أكلتني هذه الناقة فقذفتني بعرًا فاتُّخِذْت جلة ولم أكابد الحساب يوم القيامة إما إلى جنة وإما إلى نار ويحك يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى. قال الحسن كان والله أفقههما وأعلمهما بالله ﷿[٤].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٥).

(٣) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (٢٥).

(٤) «الزهد» لأحمد (٢٨٤-٢٨٥).

والرجاء.

....

الرجاء لغة: الراء والجيم والحرف المعتل أصلان متباينان يدل أحدهما على الأمل[١]. قال الليث: الرجاء ممدود وهو نقيض اليأس[٢].

وإنما يستعمل الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه حرف نفي ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾[نوح:١٣] والمعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمة[٣].

واصطلاحًا: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار والآخرة ويطيب لها السير طامعة فيما عنده من النعيم المقيم وذلك بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي[٤].

مكانة الرجاء وأهميته:

الرجاء من أجل المنازل وأعلاها وأشرفها وتتضح مكانته وأهميته بما يلي:

الأول: أن الله مدح أهله وأثنى عليهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ ﴾[الإسراء:٥٧].

وأثنى على خواص عباده الصالحين برجائهم رحمته، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾[الأنبياء:٩٠].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٥٩) مادة (رجا).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٧٩) مادة (رجا).

(٣) المرجع السابق (١١/ ١٨١) مادة (رجا).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥) وقوله يحدو القلوب: أي يحثها على السير ويقال للسهم إذا مضى حدا الريش وحدا النصل، انظر: «تهذيب اللغة» (٥/ ١٨٦)، وانظر: «المصباح المنير» (١٢٥).

وأن المقتدين بالرسول حقيقة هم أهل الرجاء، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

الثاني: أن الرجاء من أعظم أسباب المغفرة:

يجلي ذلك النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ فيقول: «**يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي**»(١).

الثالث: أن الرجاء هو محرك القلوب والجوارح إلى الله: ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح بل لولا الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة.

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسرًا وتمزقًا
وكذاك لولا برده لحرارة الـ ... أكباد ذابت بالحجاب تحرقا
أيكون قط حليف حب لا يرى ... برجائه لحبيبه متعلقا
أم كلما قويت محبته له ... قوي الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطي لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا(٢)

وهذا يدل على أهمية الرجاء وعظيم منزلته وأنه يدخل في جميع أنواع العبادات فلا يتصور أن تخلو منه عبادة(٣).

الرابع: أن الرجاء ضرورة: الرجاء ضروري للعبد فلو فارقه لحظة لتلف أو كاد، **لأن العبد دائر بين أمور خمسة:**

١- ذنب يرجو غفرانه.

---

(١) الترمذي (٥/ ٥٤٨) كتاب «الدعوات»/ باب في فضل التوبة والاستغفار. رقم (٣٥٤٠). قال ابن رجب: «إسناده لا بأس به». «جامع العلوم والحكم» (٣/ ١١٥٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٠).

٢- عيب يرجو إصلاحه.

٣- عمل صالح يرجو قبوله.

٤- استقامة يرجو حصولها ودوامها.

٥- قرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها.

فالرجاء من أقوى الأسباب التي يصل بها العبد إلى مطلوبه[١].

متعلق الرجاء:

متعلق الرجاء هو الله سبحانه وذلك لأن رحمة الله من لوازم ذاته -التي لا تنفك عنه بحال- فسبقت غضبه[٢]. بيَّن ذلك النبي ﷺ حينما دخل على شاب وهو في الموت فقال: «**كيف تجدك؟**»، فقال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه ممَّا يخاف**»[٣].

ووعاها علي رضي الله عنه فقال: «لا يرج عبد إلا ربه»[٤].

فعلق رجاءك بربك سبحانه. واحذر أن تعلقه بمخلوق، «لأن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابًا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لابد له من معاون، ولابد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد»[٥].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤١-٥٢).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧).

أقسام الرجاء:

ينقسم الرجاء إلى قسمين هما:

الأول: الرجاء التوحيدي العبادي:

الرجاء التوحيدي العبادي: هو رجاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ربهم سبحانه فقط، مخلصين له وحده، آملين منه أن يحقق الله لهم ما يرجون.

ورجاؤهم على وجوه أربعة هي:

١) رجاء الظفر بالمطلوب.

٢) رجاء دوامه بعدما قد حصل.

٣) رجاء دفع المكروه وصرفه لئلا يقع.

٤) رجاء الدفع والإماطة لما قد وقع[١].

وأهل الرجاء التوحيدي العبادي نوعان هما:

أ- رجاء المسيئين المفرطين:

ينبغي لكل من أساء بارتكاب الذنب وكلنا كذلك إلا من رحم ربك أن يخافوا أن يخذلوا بذنوبهم ومع ذلك ينبغي لهم أن يرجوا عفو الله ورحمته، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٠٢] وعسى من الله واجبة لأنها إطماع من كريم قد غلبت رحمته غضبه. وإليك أنموذجًا يحرك قلبك برجاء العفو من العفو الرحيم قال ﷺ: «**يجيءُ يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبالِ يغفرها اللهُ لهم**»[٢].

(١) «المنهاج» للحليمي (١/ ٥١٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢١٢٠) كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة التائب. رقم (٢٧٦٦).

وأما آخر أهل الجنة دخولًا فله نبأٌ عجيب أخبر به النبي ﷺ بقوله: «**إنِّي لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النّار خروجًا منها. رجلٌ يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: إنَّ لك مكان كل سيِّئة حسنة. فيقول: ربِّ قد عملت أشياءً لا أراها ههنا فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذه**»(١).

ب- رجاء المطيعين الصالحين:

لما كان الخوف لا يمكن أن يفارق القلب مهما ارتقى في مدارج الكمال واجتهد في طاعة ربه وانكف عن معاصيه. كان لا بُدَّ له من رجاء يبرد حرارة ذلك الخوف ويقويه على الاجتهاد في الطاعة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[البقرة:٢١٨].

ومن ذلك ما فعل عمير بن الحمام رضي الله عنه في غزوة بدر عندما دنا المشركون قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض**». قال عمير رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض. قال: «**نعم**». قال: بخ بخ. قال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنَّك من أهلها**». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»(٢).

---

(١) مسلم (١/ ١٧٧) كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة. رقم (١٩٠).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٠-١٥١١) كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت الجنة للشهيد. رقم (١٩٠١).

وهو على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: رجاء يبعث المسلم على الاجتهاد في الطاعات متلذذًا بها مع بغضه للمحرمات وتركه لها.

قال شاه الكرماني: «علامة صحة رجاء العبد حسن الطاعة».

الدرجة الثانية: رجاء المجاهدين لأنفسهم بترك المشتبهات:

فهؤلاء يتركون كثيرًا من المباحات خوفًا من الوقوع في المكروهات ويتركون المشتبهات لئلا يقعوا في المحرمات ممتثلين قول النبي ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهة فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأَ على ما يشكُّ فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان والمعاصي حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه**»[(١)].

قال حسان بن أبي سنان: «ما رأيت شيئًا أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)].

وقال عبدالله بن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»[(٣)].

الدرجة الثالثة: رجاء أصحاب القلوب الممتلئة بالإيمان واليقين لقاء ربهم:

أعظم الراجين لله سبحانه نبينا محمد ﷺ، ولذلك كان أشد الناس شوقًا للقائه، ولهذا كان يقول في دعائه: «**وأسألك لذَّة النَّظر إلى وجهك والشَّوق إلى لقائك في غير ضرَّاء**

---

(١) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٩٠) كتاب «البيوع»/ باب الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات. رقم (٢٠٥١).

(٢) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٩١) كتاب «البيوع»/ باب تفسير المشبهات.

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٤٥) كتاب «الإيمان»/ باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس».

مضرّة، ولا فتنةٍ مضلة»[١]، لعلمه ﷺ: **«أن من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه»**.

قال تعالى مبشرًا من يرجوه ويحب لقاءه بقرب لقائه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[العنكبوت:٥].

وهذه هي أفضل درجات الرجاء وأعلاها وهي محض الإيمان وزبدته وإليها شخصت أبصار المشتاقين ولذلك سلاَّهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلًا يسكن قلوبهم ويطمئنها[٢].

الثاني: الرجاء الشركي الكفري:

الرجاء الشركي: هو رجاء غير الله في دفع الضر وجلب النفع.

كلما تباعد الناس عن عصر النبوة. خَفَتَ عندهم نور الوحي فانتكست مفاهيمهم فعبدوا غير الله واتجهوا بقلوبهم وأعمالهم إليهم راجين منهم جلب النفع ودفع الضر وتفريج الكرب كما وقعت فيه الأمم المشركة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «ولا ريب أن الاستشفاع بالأموات يتضمن أنواعًا من العبادة: سؤال غير الله، وإنزالُ الحوائج به من دونه، ورجاؤه والرغبة إليه، والإقبال عليه بالقلب والجوارح واللسان. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله»[٣].

---

(١) النسائي (٣/ ٥٤)، كتاب «السهو»، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩) رقم (١٣)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٦١)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٤)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٣١٩) رقم (٢٤٤)، وصححه الألباني في تحقيقه «للكلم الطيب» (٦٦) رقم (١٠٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٤) بتصرف يسير.

(٣) «القول الفصل النفيس» (٩٠).

والمصيبة الكبرى والداهية العظمى أن هذا الانحراف قد تسرب إلى المسلمين من اليونان، وأمم الكفر، فانحرفت مفاهيم بعضهم حتى جهلوا معنى لا إله إلا الله. ففسروها بأنه القادر على الاختراع أي بتوحيد الربوبية فظنوا أن من آمن بتوحيد الربوبية فقد صح إيمانه وتم، فوقعوا فيما وقع فيه الأولون من الشرك بالله تعالى.

ومن أمثلة ما وقعوا فيه مما زينته لهم الشياطين:

١- قول قائلهم: «قبر معروف ترياق مجرب»(١).

٢- لما قدم التتار إلى دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجونها لكشف الضر.

حتى قال قائلهم:

يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبي عمر(٢)

٣- ومن صور الاستغاثة بالشيخ عبدالقادر الجيلاني: «بأن من كان له حاجة وصلى ركعتين في الليل ثم استقبل بغداد وتوجه إلى الشيخ عبدالقادر واستغاثه بهذين البيتين:

أَيُدركُني ضيمٌ وأنت ذخيرتي ... وأُظْلَمُ في الدنيا وأنت نصيري

وعار على راعي الحمى وهو في الحمى ... إذا ضاع في الهيجا عقال بعير

وناداه باسمه وذكر حاجته فإنها تقضى(٣).

ويظن بعض الناس أن رجاء أصحاب القبور ودعاءهم والطلب منهم في وقت مضى. وليس الأمر كذلك بل كثير منها موجود اليوم كما يؤكد ذلك محمد الغزالي فيقول متحدثًا عن القبور في هذا العصر «ومع ذلك فهي مزارات معمورة مشهورة تقصد لتفريج

---

(١) «وفيات الأعيان» (٥/ ٢٣٢).

(٢) «غاية الأماني في الرد على النبهاني» (٢/ ٣٤٤).

(٣) «صيانة الإنسان» (١٩٣).

الكرب وشفاء المرضى وتهوين الصعاب»[(١)].

وأختم بما ذكره عبدالرحمن الوكيل عن حالة الطلبة في معهدٍ دينيٍّ عند الاختبار حيث يصف حالته وحالة زملائه فيقول: «عندما توزع أسئلة اختبار آخر العام تهب هذه الآلاف المضطربة من الطلبة رافعة أكفها في ضراعة.. حتى يبح صوتها وتتمزق حناجرها إذ تنعق ضارعة يا سيد ويا ويل السمع من ياء النداء، لقد كانت تطول وتطول حتى ليخيل إليك أنها دخان مارد يحترق فيلمس دخانه قبة النجم، ولعلك تسألني وماذا يفعل بكم شيوخكم؟ كانوا يرفعون في سكرة الحب وذل الخشية أيديهم المعروقة يمسحون بها وجوههم أو يمشطون لحاهم ومن بين الشفاه الذوابل تنساب هذه الهمهمة رضي الله عنك يا سيد ثم يلتفتون إلينا وعلى وجوههم ألق الرضى ناصحين في تأييد وإعجاب «كفاية ما خلاص سمعكم السيد»[(٢)].

وهل الرجاء الشركي ينفع صاحبه؟

لا، لا ينفع صاحبه فما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه لأنه وضع الرجاء في غير موضعه.

بل يحصل له نقيض قصده، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[آل عمران:١٥١][(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]، فرجوا منهم الأمن والحماية، فعوملوا بنقيض قصدهم، فأصابهم الرعب والرهق.

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢].

---

(١) «عقيدة المسلم» (٢٨).

(٢) «هذه هي الصوفية» (٤ – ٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧).

مذمومًا لا مادح لك، مخذولًا لا ناصر لك.

وذلك أن «المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد والثناء تارة فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم»(١).

فمن رجا غير الله عومل بنقيض قصده لأنه أساء في رجائه وعمله.

أقسام الرجاء من حيث الصحة والكذب:

ينقسم الرجاء من حيث الصحة والكذب إلى قسمين:

(١) **الرجاء الصحيح**: هو **ما قارنه العمل** وبينه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠].

فجعل شرط الرجاء الصحيح العمل الصالح الذي يبتغى به وجه الله تعالى.

ووصف أهله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة:٢١٨].

فجمعوا بين أمور ثلاثة عظام هي: الإيمان والهجرة والجهاد، فمن قام بها على صعوبتها وشدتها كان للقيام بما سواها أولى وأحرى.

«وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة»(٢).

(٢) **الرجاء الكاذب**: وهو «حديث النفس بحصول ذلك المقصود مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه»(٣). فالرجاء الكاذب حقيقته التمني. والأماني رؤوس أموال المفاليس وصاحبه من العجزة كما قال ﷺ: «**والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله**

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٠).

(٢) «تيسير الكريم المنان» (١/ ٢٧٠).

(٣) «الروح» (٢٤٥).

الأماني»[(١)].

قال ابن أبي الدنيا: «الرجاء بلا عمل اجتراء على الله عز وجل»[(٢)].

وبهذا يتضح الفرق بين الرجاء الصحيح وبين الرجاء الكاذب الذي هو في الحقيقة تمنٍّ وغرور.

الأسباب الجالبة للرجاء:

الأسباب الجالبة للرجاء كثيرة منها:

١ - التوحيد:

وعد الله أهل التوحيد وعدين لم يَعِدْ بهما أحداً غيرهم، فقال: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[الأنعام:٨٢]، أَمْنٌ في الدنيا والآخرة، واهتداء في الدنيا والآخرة، ومن رزق هذين الوعدين، فلا أحد أرجى منه.

ولكونه أعظم أسباب الرجاء ربط النبي ﷺ الفلاح والسعادة به حين كان يطوف بالعرب بسوق ذي المجاز ويقول: «**أَيُّهَا النَّاس قُولُوا لاَ إِلَه إِلاَّ الله تُفْلَحُوا**»[(٣)].

٢ - العمل الصالح:

لما كان العمل هو شرط الرجاء الصحيح صار من أهم الأسباب الجالبة للرجاء ولهذا بشر الله العاملين بجنات النعيم في قوله: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾[البقرة:٢٥].

---

(١) أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٤/ ٦٣٨)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥٩)، وقال: «هذا حديث حسن»، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٨) رقم (٤١١٦).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٩٨).

(٣) «دلائل النبوة» (٢/ ١٨٦) للبيهقي، وقال الذهبي: «إسناده قوي». «السيرة النبوية» (٨٦).

ومن الأعمال البدنية قوله ﷺ: «**من حجَّ هذا البيت فلمْ يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدتْهُ أُمهُ**»(١). وإذا كانت أعمال الجوارح بهذه المثابة، فأعمال القلوب أعظم وأعظم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلُّهم في ظلّي يوم لا ظلَّ إلَّا ظلي**»(٢).

٣- تأمل أسماء الله التي فيها العفو والمغفرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[الشورى:٢٣].

«أي يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات فيستر ويضاعف فيشكر»(٣). فمن استشعر عفو الله ومغفرته قوي رجاؤه بربه تبارك وتعالى.

٤- سعة رحمة الله تعالى:

إذا استشعر المسلم رحمة الله التي وسعت كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] طمع في أَنْ تَسَعَهُ رحمة أرحم الراحمين الذي خلق مائة رحمة، قال النبي ﷺ: «**الله خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السموَاتِ وَالأرضِ مَائة رحْمَةٍ. كُلّ رَحمةٍ طِباق ما بين السّماءِ والأرْضِ...**»(٤).

٥- الشفاعة:

الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ يفرح بها العبد المسلم لأن النبي ﷺ خير بين أن يدخل نصف أمته الجنة أو الشفاعة فاختار الشفاعة، كما في حديث عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنَّه أتاني الليلة من ربي آت يخَيّرني بين أن يدخل نصف أُمّتي**

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٨٢) كتاب «الحج»/ باب الحج المبرور. رقم (١٨٢٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١١٤).

(٤) مسلم (٤/ ٢١٠٩) كتاب «التوبة»/ باب سعة رحمة الله. رقم (٢٧٥٣).

الجنّة، وبين الشّفاعة، وإنِّي اخترتُ الشّفاعة»[١].

٦- فتح باب التوبة:

ما أكثر الذنوب والخطيئات التي نرتكبها في الليل والنهار «**يَا عِبادي إنَّكُمْ تُخْطِئُون بِالليلِ والنّهارِ**»[٢]، وكثرة الخطأ والزلل مما يخيف العبد ولكن الله تكرم علينا ففتح باب التوبة كي نمحو خطيئاتنا وزلاتنا وذلك لعظم كرمه وجوده. قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللّيلِ لِيَتُوبَ مُسيءُ النّهارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنّهَارِ لِيَتُوبَ مُسيء الليلِ حَتّى تَطْلَع الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبها**»[٣].

قال ابن القيم: «قلت لشيخ الإسلام رحمه الله يومًا: سئل بعض أهل العلم أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار فقال: إذا كان الثوب نقيًّا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنسًا، فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لي رحمه الله: فكيف والثياب لا تزال دنسة»[٤]. أي لازم التوبة والاستغفار لتجلوا عنك أثر الذنوب والخطايا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٤/ ١٩٩٤)، كتاب «البر والصلة»/ باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧).

(٣) مسلم (٤/ ٢١١٣) كتاب «التوبة»/ باب قبول التوبة من الذنوب. رقم (٢٧٥٩).

(٤) «الوابل الصيب» (١٩٨).

والتوكل.

....

التوكل لغة: الواو والكاف واللام أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك... والتوكل هو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك[١].

واصطلاحًا: هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار في الدنيا والآخرة، وعرفه ابن عباس بقوله: «هو الثقة بالله تعالى»[٢].

قال أحمد بن حنبل: «وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به»[٣].

وقال الحسن: «إن مِنْ تَوكُّلِ العبد أن يكون الله هو ثقته»[٤].

فـ «التفويض روح التوكل ولبه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلبًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا»[٥] ولهذا أمر الله بتفويض الأمور إليه وحده فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣] هذه الآية أكبر آية في القرآن تفويضًا[٦].

وكان رسول الله ﷺ مفوضًا أمره إلى ربه قائلًا: «**اللهمَّ أسلمت وجهي إليك،**

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٣٦) مادة (وكل).

(٢) «زاد المسير» (٢/ ٢٤).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٧٢).

(٤) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (١٨) و«الحث على التجارة» للخلال (١٢٥).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٢).

(٦) «جامع البيان» (٢٨/ ١٤٠).

وفوَّضتُ أمري إليك»[١].

ولما نصح مؤمن آل فرعون قومه بطاعة الله ورسوله بيَّن لهم صدق اعتماده على الله، وتفويض أمره إلى ربه؛ لأنه هو الذي يحفظه ويحميه من ضررهم وأذاهم: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[غافر:٤٤].

فماذا حصل بسبب تفويضه أمره إلى الله؟ أن وقاه الله شرهم ومكرهم: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٥].

وكان سعيد بن جبير يدعو الله أن يرزقه التوكل عليه، فيقول: «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك»[٢].

ومما يدل على أن التوكل هو اعتماد القلب على الله لجلب المنافع ودفع المضار ورود كلمة (حسبي الله) فإنها وردت في القرآن في كليهما، فأما في جلب المنافع ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق:٢-٣].

وأما في دفع المضار ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[آل عمران:١٧٣]. ومعنى حسبنا الله: أي كافينا الله.

وجمعهما النبي ﷺ بقوله: «**إذا خرج الرجل من بيته، فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذٍ: هديت وكفيت، ووقيت، فتتنحى له الشّيطاين،**

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٣٥٧) كتاب «الوضوء»/ باب فضل من بات على وضوء. رقم (٢٤٧).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٥٣٨) رقم (١٧١٩٢).

فيقول له شيطانٌ آخر: كيف لك برجلٍ قد هدي وكفي ووقي»[١].

فقوله: «هدي»: جلب منفعة، وكفي ووقي: دفع مضرة.

ولازم التوكل: «قطع الاستشراف بالإياس من الخلق»[٢].

أهمية التوكل وعلو منزلته:

التوكل من أَجَلِّ أعمال القلوب وأعلاها، ومما يدل على أهميته وعلو منزلته ما يلي:

١- أن الله جعله شرطًا في الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]، فدلّ الشرط على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل فمن لا توكل له لا إيمان له. قال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان»[٣].

وقال سهل: «من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»[٤].

٢- أن التوكل على الله نصف الإيمان[٥] ولأجل ذلك جمع الله بين التوكل والعبادة في سبعة مواضع من كتابه، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، وقال حكاية عن عباده المؤمنين إنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا

---

(١) أبو داود (٥/ ٣٢٨) كتاب «الأدب»/ باب ما يقول إذا خرج من بيته. رقم (٥٠٩٥)، والترمذي (٥/ ٤٩٠)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا خرج من بيته. رقم (٣٤٢٦)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، قال ابن القيم: «حديث حسن». «زاد المعاد» (٢/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٤١٦).

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٥٣٨) رقم (١٧١٩١)، وابن أبي الدنيا في «التوكل» (٥)، و«حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٤).

(٤) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٩٥)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ١٧٩).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٦).

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤]، وأمر الله نبيه بالتوكل، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل:٨-٩]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠]، وأمرنا به جميعًا فقال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج:٧٨].

فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين التوكل وهو الوسيلة والإنابة وهي الغاية، فأشرف الغايات هي عبادة الله والإنابة إليه ولا وسيلة إليها إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، فلذا صارت هذه الوسيلة أشرف الوسائل(١).

قال شيخ الإسلام: «إن الله لم يأمر بالتوكل فقط بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذَّر، فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالًا كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل كان ضالًا»(٢).

وهذا ظاهر في هدي النبي ﷺ كما في قوله عند ذبح الأضحية: «**اللهمَّ منك ولك**»(٣).

فإن قوله: «منك» هو معنى التوكل والاستعانة وقوله «لك» هو معنى العبادة(٤).

وبهذه الأدلة يتضح أن «التوكل نصف الدين والنصف الثاني هو الإنابة فإن الدين استعانة وإنابة»(٥).

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٥٥-٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢٧).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٣١) كتاب «الضحايا»/ بباب ما يستحب من الضحايا. رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣)، كتاب «الأضاحي»/ باب أضاحي رسول الله ﷺ. رقم (٣١٢١)، والدارمي (١/ ٥٣٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب السنة في الأضحية. رقم (١٩٤٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٢٨٧) باب استحباب توجيهه للقبلة والدعاء عند الذبح. رقم (٢٨٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٣٩)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(٤) «التوحيد» لابن تيمية (٩٩).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣).

٣. تلازم التوكل والهداية:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[إبراهيم:١٢]. فكل مهتد لا بُدَّ أن يكون متوكلًا على الله تعالى، فهؤلاء الرسل «عجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا، وهذا دليل على أن التوكل والهداية متلازمان»(١).

ولما أمر الله نبيه أن يتوكل عليه علل ذلك بأنه على الحق المبين فقال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[النمل:٧٩].

فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به فهو ناصر دينه ومؤيده وهو حسب من قام به وتوكل عليه وكافيه.

٤ - أن التوكل يجمع أصلين اثنين هما علم القلب وعمله.

«أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه»(٢).

٥ - أن التوكل أقوى الأسباب لدفع الأذى:

«فمن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه... قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاءً من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق:٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال»(٣). ومن

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٧).

(٣) «ذم الحسد وأهله» لابن القيم (٣٢).

ثم كانت الرسل عليهم السلام يربون أتباعهم على التوكل على الله كما كان موسى عليه السلام يفعل مع قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[يونس:٨٤] فأمرهم بالتوكل على الله لأن فيه الوقاية من أذى فرعون وقومه.

ولأجل هذا صار التوكل على الله ملجأ الخليلين ومعاذهما فلقد توكلا على الله في أحلك الظروف وأحرج المواقف فوقاهما الله شر أعدائهما.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٣].

وفي رواية عنه: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار (حسبي الله ونعم الوكيل)[(١)].

بل تحدّى نوح عليه السلام قومه بتوكله على الله كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[يونس:٧١].

«فلولا أن تحقيقه هذه الكلمة وهو توكله على الله يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجزته، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه وهذا لا يجوز وهذا طلب تعجيز لهم. فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به»[(٢)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٢٩) كتاب «التفسير»/ باب الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم. رقم (٤٥٦٣ و٤٥٦٤).

(٢) «جامع الرسائل» المجموعة الأولى (٩٦).

ولقوة التوكل في دفع الأذى ربطه الله باسميه العزيز والحكيم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٤٩].

«﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها فينصر من يستحق النصر ويخذل من هو أهل للخذلان»(١).

٦- أنه أوسع المنازل وأجمعها:

«منزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار... فأفضل التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في جلب مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم»(٢).

«والأصل الجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات هو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه والاعتماد بالقلب عليه وهو خلاصة التفريد ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به ربًا وإلهًا والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعدَّه من النعماء كما في حديث السبعين ألفًا الذي يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فسبحان من يتفضل على من شاء بما يشاء والله ذو الفضل العظيم»(٣).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣-١١٤).

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (١١٠)، وانظر: «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

ولسعته ذكره الله وأمر به في مقامات كثيرة منها:

أ- مقام العبادة: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[المزمل:٧-٩].

ب- مقام الدعوة ووجود المعاندين والمناوئين: قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾[يونس:٧١].

ج- في مقام الحكم والقضاء: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:١٠].

د- في مقام الإيمان: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر؟ -وفي رواية الترمذي: فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم- قال المسلمون: يا رسول الله، فما نقول، قال: قولُوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»**(١).

هـ- في مقام الجهاد: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[آل عمران:١٢١-١٢٢] بل جعله الله أعظم أسباب النصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٣].

و- في حال السلم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنفال:٦١].

ذكر الله التوكل في حال السلم لأن الناس قد يظنون أن التوكل في حال الحرب

---

(١) أحمد (٣/ ٧٣)، والترمذي (٤/ ٦٢٠) «صفة القيامة»/ باب ما جاء في شأن الصور. رقم (٢٤٣١)، وقال: «هذا حديث حسن».

والخوف فقط(١).

٧- أن الله أمر به الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم وجعله شعارًا لهم:

قال تعالى آمرًا نبينا محمد ﷺ بالتوكل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٨].

وأما أنه شعار لهم، ففي قوله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦].

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤].

وأما أنه شعار لأتباعهم ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:٢-٤].

قال قتادة: «هذا نعت لأهل الإيمان، نعتهم فأثبت نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم»(٢).

حكم التوكل:

التوكل على الله واجب لما يلي:

١) أن الله ذكر التوكل آمرًا به أو مثنيًا على المتوكلين في خمسة وعشرين موضعًا، تسعة مواضع منها لنبينا محمد ﷺ. ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المجادلة:١٠]، والأمر يقتضي الوجوب.

---

(١) انظر: «التوكل على الله» للقرني (٦٦-٧٥)، فقد ذكر مقامات غير هذه. تركتها لأجل الاختصار.

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٦)، و«جامع البيان» (٩/ ١٧٩).

٢) أنّه «أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأنّ منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»(١).

قال شيخ الإسلام: «فالتوكّلُ على الله واجبٌ من أعظم الواجبات كما أنّ الإخلاصَ لله واجبٌ وحبَّ اللهِ ورسولِهِ واجبٌ، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظمَ ممّا أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾»(٢) [هود:١٢٣].

أنواع التوكل:

ينقسم التوكل إلى قسمين:

الأول: التوكل الشرعي التوحيدي العبادي:

وهو توكل أهل التوحيد على الله وحده في كل شأن من شؤون دينهم ودنياهم.

قال تعالى حاصرًا التوكل عليه سبحانه وحده: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

فأتى بإنما الدالة على الحصر والقصر، وقدَّم ما حقه التأخير لحصر توكل المؤمنين عليه وحده.

وأمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه وحده معللًا بأنه الحي الذي لا يموت وغيره يموتون، وهو الخبير ومن عداه ليس عندهم علم، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٨].

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/٧).

وبين النبي ﷺ أن التوكل على الله وحده من أخص صفات السبعين ألفًا الذين استحقوا دخول الجنة بلا حساب كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه وفيه: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكلون**»(١).

فلنحرص على تحقيقه لأن من لم يحققه كان مآله الخذلان(٢).

درجات الناس في التوكل:

الناس في التوكل على درجات متعددة، هي:

(١) درجة أولياء الله المتوكلين عليه في نصرة دينه:

وهذه حال أصحاب الهمم العالية الذين همهم إعلاء كلمة الله ونصر دينه، وأعلى هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام وصحابتهم رضوان الله تعالى عليهم فإن همهم في التوكل عليه أعلى من غيرهم، فإن توكلهم كان في نصر دين الله وإعلاء كلمته وعبادته وحده لا شريك، وفتح قلوب العباد وبصائرهم لنور الهدى، فملؤوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانًا، وفتحوا ديار الكفر فصارت ديار إيمان وإسلام. وصدوا عدوان المفسدين ودحروهم، وهكذا ورثتهم إلى قيام الساعة.

(٢) المتوكل على الله في استقامته في نفسه فقط:

وهذه حال كثير من العباد الذين لم تكن لهم همة إلا صلاح نفوسهم فقط، وهذه دون الأولى.

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٤٠٥-٤٠٦) كتاب «الرقاق»/ باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب. رقم (٦٥٤١)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. رقم (٢٢٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) المتوكل على الله في جلب حوائجه الدنيوية أو دفع المكروهات والمصائب الدنيوية، وهذا حال من يبحث عن الدنيا من منصب ومال وزوجة، وولد ونحو ذلك، وهذه المرتبة دون الثانية.

(٤) المتوكل على الله في حصول الإثم والفواحش[١]:

«وهؤلاء لا ينالون مطالبهم غالبًا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم»[٢].

الغبن في التوكل:

«كثير من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء.... فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين»[٣].

متى يبرز التوكل على الله ويتضح أو يختفي ويتلاشى؟

يبرز التوكل على الله ويتضح في مواقف الشدة والضيق والحرج، كتوكل إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وموسى عليه السلام عندما خافت بنو إسرائيل حين لحقهم فرعون، والنبي ﷺ وأصحابه عندما قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

فإذا لم يجد الإنسان التوكل على الله في مثل هذه المواطن فليراجع إيمانه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣)، و«التحفة العراقية» (٤٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥-١٢٦).

الثاني: التوكل الشركي:

وهو الاعتماد على غير الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار وهذا النوع من التوكل ينافي ويضاد التوكل على الله تعالى بل هو شرك، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم:١١] في هذه الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة فصرفه لغير الله شرك.

ولأنه لما كان لا كافي إلا الله سبحانه كان التوكل على غيره شركًا وباطلًا، ولهذا قال الصالحون: «حسبنا الله» ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله.

ويدل على التوكل الشركي قوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقى والتَّمائم والتِّوَلَةَ شركٌ**»(١).

فحكم على التمائم بأنها من الشرك لما فيها من الاعتماد على غير الله تعالى في دفع الشرور والآفات(٢).

وأبطل الطيرة وغيرها مما يكون سببًا في الاعتماد على غير الله تعالى.

وينقسم التوكل الشركي إلى قسمين:

(١) **التوكل والاعتماد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله**، فهذا شرك أكبر، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء النصر والحفظ ونحو ذلك. ويسمى هذا النوع توكل السر، لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سِرِّيًا في الكون.

(٢) **التوكل على الأسباب الظاهرة**، كالتوكل على السلطان فيما جعله الله بيده وهذا

---

(١) أحمد (١/ ٣٨١) وأبو داود (٤/ ٢١٢)، كتاب «الطب»/ باب في تعليق التمائم. رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٦-١١٦٧)، كتاب «الطب»/ باب تعليق التمائم. رقم (٣٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٦٩).

(٢) «الوعد الأخروي» (٢/ ٨٣٤-٨٣٥).

من الشرك وإن كان دون الأول. قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «هذا نوع شرك خفي»(١) إلا إن كان يعتقد أنها مؤثرة بنفسها فهذا شرك أكبر.

ومن توكل على غير الله واعتمد عليه عوقب بالخذلان.

قال شيخ الإسلام: «إن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته فإنه يُخْذَلُ من تلك الجهة وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء. ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ولا استنصر بغير الله إلا خُذِلَ وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ »(٢) [مريم:٨١-٨٢].

ولما توكل بعض الإنس على الجن ليؤَمّنوهم زاد الجنُ الإنس خوفًا وذعرًا قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ [الجن:٦].

ولما لبس الرجل تلك الحلقة متوكلًا عليها أن تحميه من الواهنة أخبره النبي ﷺ أنها لا تزيده إلا وهنًا، كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقه من صُفْر، فقال: «**ويحك ما هذه؟**». قال: من الواهنة، قال: «**أما إنَّها لا تزيدك إلا وهنًا، انبذها عنك؛ فإنَّك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»(٣).

قال شقيق البلخي: «لكل واحد مقام فمتوكل على ماله ومتوكل على نفسه ومتوكل على لسانه ومتوكل على سيفه ومتوكل على سلطنته ومتوكل على الله عز وجل، فأما المتوكل على

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٣٧٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩).

(٣) أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٧-١١٦٨)، كتاب «الطب»/ باب تعليق التمائم. رقم (٣٥٣١)، وابن حبان (١٢/ ٤٤٩) رقم (٦٠٨٥). وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٧٧)، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «رواه أحمد بسند لا بأس به». «كتاب التوحيد» (٩).

الله عز وجل فقد وجد الاسترواح، نوّه الله به ورفع قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، وأما من كان مستروحًا إلى غيره يوشك أن ينقطع به فيشقى»[١].

ويلحق بهما الوكالة الجائزة: وهي توكيل الإنسان غيره في فعل مقدور عليه. ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكّله بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه[٢].

ومن ذلك وكالة يعقوب أبناءه بالبحث عن يوسف وأخيه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف:٨٧].

ووكالة النبي أبا هريرة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وكّلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان»[٣].

الأسباب الجالبة للتوكل:

الأسباب الجالبة للتوكل على الله كثيرة منها:

١ - **التوحيد**: التوحيد هو أعظم الأسباب الجالبة للتوكل «فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة»[٤].

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ١٨٢).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٣٧٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٤/ ٤٨٧)، كتاب «الزكاة»/ باب إذا وكل رجلًا فترك شيئًا فأجازه الموكل؛ فهو جائز. رقم (٢٣١١).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

وذلك أنه إذا علم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها وأنه ليس له مشارك في ذرَّة من ذرات الكون، كان هذا العلم من أقوى أسباب توكله وأعظم دواعيه... وذلك لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصًا من التوكل بعد هذا؟[1] قال تعالى عن هود عليه السلام أنه قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦] فاستشعاره أن أمور العباد كلَّها بيد الله جعله يتوكل على ربه وحده.

٢- معرفة أسماء الله وصفاته:

معرفة أسماء الله وصفاته شرط أساس في حصول التوكل «فالتوكل من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقًا خاصًا بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات، فله تعلق باسم «الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن» وتعلق باسم «المعز المذل الخافض الرافع المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسّره من فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى»[2].

ولأجل هذا فإن الله لما أمر نبيه بالتوكل عليه قرنه باسمين من أسمائه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم ثلّث بالرؤية: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ثم بيّن اختصاصه بالسمع والعلم فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٢٥).

٣- استشعار العبد حاجته إلى الله تعالى وضرورته إليه:

إذا عرف العبد فقره وفاقته وضعفه وحاجته إلى الغني الكبير الكريم أوجب ذلك له التوكل عليه، وهذا ظاهر جلي في كتاب الله فـ «القرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ومن ذكر نعمائه عليهم ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه»[1].

فإذا استشعر حاجته إلى ربه افتقر إليه وتوكل عليه، قال سهل: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار»[2].

فإذا كان خير الخلق وأكملهم أمره الله أن يبين للناس حاجته وفقره إلى ربه فكيف بغيره، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[الأعراف:١٨٨].

٤- حسن الظن بالله عز وجل:

«على قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به»[3].

ثمرات التوكل:

١- الرضى:

الرضا ثمرة التوكل، وذلك أن الرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢١).

وهذا هو معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم**»، فهذا توكل وتفويض ثم قال: «**فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علَّام الغيوب**»، فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان، ثمَّ رضني به**»(١).

فقد اشتمل هذا الدعاء على التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل والتفويض وهو علامة صحته، فإن لم يرض بما قُضِيَ له فتفويضه معلول فاسد.

ومن فسّر التوكل بالرضا فقد فسَّره بأجل ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله(٢).

٢- تحقيق الإيمان:

قال تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

فلا تحقيق للإيمان إلا بتحقيق التوكل على الله تعالى وحده، فمن حقق التوكل على الله وحده فقد حقق الإيمان. ومن لا فلا.

٣- طمأنينة النفس وانشراح الصدر:

أقوى الناس توكلًا هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتوكلهم على الله أورثهم انشراح الصدور وطمأنينة النفوس والصبر مهما أصابهم من الأذى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم:١٢]

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ١٨٣) كتاب «الدعوات»/ باب الدعاء عند الاستخارة. رقم (٦٣٨٢).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٢-١٢٣)، «التحفة العراقية» (٤٤).

«وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة... فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحُسْنِ ظنه به»(١).

٤ - كفاية الله للمتوكلين:

الله كافٍ من توكل عليه، قال ابن القيم: «ولا ريب أن الكفاية من الله لا تنال إلا بأسبابها من عبوديته، وسببها المقتضى لها هو التوكل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣] أي كافيه فجعل التوكل سببًا للكفاية»(٢).

فيكفيه الله من كل ما أهمه، ألا ترى أن الله كفى نبينا محمدًا ﷺ لما توكل عليه من الأعرابي (غورث بن الحارث) عند ما جاءه وهو نائم وأخذ سيفه واخترطه وكان معلقًا بشجرة فاستيقظ وهو في يده صلتًا فقال له: من يمنعك مني، قال رسول الله ﷺ: «الله»(٣) «فسقط السيف من يده...»(٤).

ولما خشي يعقوب عليه السلام على أبنائه من أعين الحاسدين توكل على الله مع فعل الأسباب: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧] فحفظهم الله ووقاهم شر الحاسدين.

ويكفي الله العبد من الشيطان بتوكله عليه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل:٩٨-٩٩].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٧١).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٢٦)، كتاب «المغازي»/ باب غزوة ذات الرقاع. رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦).

(٤) «دلائل النبوة» (٣/ ٣٧٦).

ويكفيه من الفتن: كفتنة الدجال، قال ﷺ: «**إنَّ رأس الدّجال من ورائه حُبُكٌ حبك**(١)، **فمنْ قال: أنتَ ربٌّ افْتُتِنَ، ومن قال: كذبتَ، ربِّي الله عليهِ توكلتُ، فلا يضُرُّهُ، أو قَالَ: فلا فتنةَ عليهِ**»(٢).

«فالتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه ولا يضره إلا أذى لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا»(٣).

٦- العزّة والنصر:

كما أن من توكل على غير الله خذل من تلك الجهة التي أراد منها العزة والنصر، فإن من توكل على الله رزقه العزة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

ووهب له النصر، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[آل عمران:١٦٠].

---

(١) الحبك هو: «المتكسر من الجعودة». «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢٦٤).

وفي حديث ابن عمر في وصف الدجال: «... جعد قطط...». «صحيح البخاري» (٧/ ١٦١)، كتاب «اللباس»/ باب «الجعد». رقم (٥٩٠٢)، ومسلم (١/ ١٥٤)، كتاب «الإيمان»/ باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال. رقم (١٦٩).

وقال ابن عبد البر: «أما قوله: «جعد قطط» في صفة الدجال، فالقطط هو المتكسر الشعر الملتوي الذي لا يسترسل شعره ألبتة، مثل شعر الحبش». «التمهيد» (١٤/ ١٩٢).

(٢) أحمد (٤/ ٢٠)، و«جامع معمر بن راشد» المطبوع مع «المصنف» لعبد الرزاق (١١/ ٣٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٥٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤٢) رقم (١٢٥٢٢).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٧).

«نهى عن التوكل على غيره وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره»[١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٤].

«فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل»[٢].

٧- دخول الجنة بلا حساب:

كما في حديث السبعين ألفًا وفيه: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكلُون**»[٣].

٨- جلب الرزق:

قال ﷺ: «**لو أنَّكم تتوكلون على اللهِ حقَّ توكله لرزقكم كما يرزقُ الطَّير، تغدو خماصًا، وتروحُ بطانًا**»[٤].

قال ابن رجب: «فهذا الحديث أصل في التوكل وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق»[٥].

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٥).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٩٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٥٧٣) كتاب «الزهد»/ باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤). وقال: «هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠١) رقم (٤١٠٨) وقال: «حديث حسن».

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٣/ ١٢٦٦).

٩- الشجاعة وقوة القلب:

الشجاعة والقوة ظاهرة في تحدي الرسل عليهم السلام لأقوامهم الكفرة. فعادٌ وَهُمْ أقوى الأمم في عصرهم بلغت بهم قوتهم أن اغتروا بأنفسهم حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ ومع هذا يأتي شخص واحد يقابلهم ويقول لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ويعلل سر هذا التحدي بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود:٥٥-٥٦] فسرُّ التحدي هو قوة التوكل على الله تعالى، قال شيخ الإسلام: «وهم كانوا أكثر وأقوى منه فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله على الله»[(١)].

قال بعض السلف: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[(٢)] وإذا كان المتوكل لا يبالي بالناس وقوتهم وهم أمام ناظريه فحري به ألّا يبالي بالأشياء الوهمية التي لا حقيقة لها كالطيرة ونحوها.

الأسباب والتوكل:

ينقسم الناس في موقفهم من الأسباب **إلى أربعة أقسام هي:**

١- الاعتماد على الأسباب.

٢- محو الأسباب.

٣- الإعراض عن الأسباب.

٤- الاعتماد على الله مع فعل الأسباب وهو الذي عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان.

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٧).

(٢) «التحفة العراقية» (٤٠) وروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ ولكن ضعفه كثير من أهل العلم وحسنه المناوي والسيوطي. انظر «التوكل» لابن أبي الدنيا تحقيق جاسم الفهيد (٦٠).

قال طائفة من العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مُقْتَضَى التوحيدِ والعقلِ والشرعِ»(١). وهو الاعتماد على الله مع فعل الأسباب.

الالتفات للأسباب شرك	ومحوها جنون فهو إفك
ومعرض عن الأسباب قادح	في شرعنا إيّاه لا يصافح
وفعلك الأسباب والتوكلا	على الإله سنة أتتك فاعملا

وإليك البيان والتوضيح:

الالتفات للأسباب شرك في التوحيد، وذلك لاعتماده عليها واطمئنان قلبه إليها في جلب النفع ودفع الضر ظانًا أنها بذاتها محصلة للمقصود الذي يريده قال شيخ الإسلام: «الالتفات إلى الأسباب -وحدها- شرك في التوحيد وهو ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه»(٢).

ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا: أي نفي تأثير الأسباب، فقالوا: إن الله لم يجعل فيها قوى تؤثر فنفوا أن يكون في النار قوة الإحراق ونفوا أن يكون في السم قوة الإهلاك، وليس الشبع بالأكل ولا الري وإذهاب العطش بالماء وليس التوحيد سببًا لدخول الجنة ولا الشرك سببًا لدخول النار، وغير ذلك من الأسباب(٣).

وكونه نقصًا في العقل لأن إنكار الأسباب مخالف لما عليه جميع العقلاء بل جميع الأسوياء فلو قلت لطفل صغير أعطني شيئًا أقطع به اللحم لجاءك بالسكين ولو قلت

---

(١) «التحفة العراقية» (٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٥) وانظر إن شئت: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٥-٤٩٩).

لأحد أنضج لنا الطعام لأشعل النار ووضعه عليها ولو قلت لأحد إني جائع لأتاك بالطعام ولو قلت لأحد إني عطشان لأعطاك ماءً وهكذا.

أما الإعراض عن الأسباب: فهو تركها وعدم تعاطيها

كقول أبي سليمان الداراني: «لو توكلنا على الله ما بنينا الحائط ولا جعلنا لباب الدار غلقًا مخافة اللصوص»(١).

قال ابن الجوزي: «لو قال رجل للصوفية: من أين أُطْعِمُ عيالي لقالوا: قد أشركت ولو سئل عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل»(٢).

وكونه قدحًا في الشرع لأن الله أمرنا بفعل الأسباب الشرعية ورتب على فعلها الثواب وعلى تركها العقاب.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] فأمرنا بالدعاء ووعدنا الاستجابة.

وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣] أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة.

وأمرنا بالأسباب الحسية النافعة، مبطلًا ما يقوله المعرضون عن الأسباب، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]»(٣).

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥٦).

(٢) «تلبيس إبليس» (٢٨٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ٤٤٩) كتاب «الحج»/ باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. رقم (١٥٢٣).

وقال أبو عبد الله -أحمد بن حنبل- لما سأله رجل قائلًا: «الرجل يدخل المفازة بغير زاد، فأنكره إنكارًا شديدًا، وقال: أف. أف. لا لا -ومد بها صوته- إلا بزاد ورفقاء وقافلة»[١]. وقال صالح بن الإمام أحمد: «سئل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون. قال: هؤلاء مبتدعة»[٢].

فالمنادون للإعراض عن الأسباب بدعوى التوكل قدحوا في الشرع من وجهين:

(١) أنهم خالفوا جميع الأدلة الدالة على فعل الأسباب وأبطلوها.

(٢) أن قولهم يدل دلالة واضحة على اتهام الشرع بالتناقض إذ زعموا أن التوكل على الله ينافي الأسباب كما قال ذو النون المصري معرفًا التوكل: «التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب»[٣].

وما علموا أنّ الذي أمر بالتوكل عليه هو الذي شرع فعل الأسباب وأمر باتخاذها. فلا تناقض بينهما لأن التوكل عمل القلب وفعل الأسباب عمل الجوارح.

وأما الاعتماد على الله مع فعل الأسباب فهو الذي عليه رسولنا عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان من أهل السنة والجماعة.

ويدل على الاعتماد على الله جميع الآيات والأحاديث الآمرة بالتوكل على الله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

وأما فعل الأسباب فأدلته كثيرة لا تحصى إلا بكلفة ومنها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[النساء:٧١] فأمر الله المؤمنين بأخذ الأسباب ومنها الحذر من الكفار.

---

(١) «الحث على التجارة» (١٣٧) رقم (٩٠).

(٢) «مسائل الإمام أحمد» برواية ابنه صالح (٢/ ٩) رقم (٥٩٢).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ١٠٤) رقم (١٢٩١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال:٦٠] فأمر الله بأخذ أسباب النصر على الأعداء من قوة ومن رباط الخيل.

وأما سنته ﷺ فكثيرة جدًا ومنها أنه ظاهر بين درعين يوم أحد واستأجر دليلًا ليدله على طريق هجرته إلى المدينة ونهى عن دخول أرض الطاعون وأمر أبا هريرة أن يحرس الصدقة وأمر بلالًا أن يرقب لهم الصبح في أحد أسفاره ورغب في الزواج وغير ذلك كثير وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم.

وجمع النبي ﷺ بين التوكل وفعل الأسباب في أكثر من حديث ومن ذلك قوله ﷺ: **«لو أنَّكم توكلتم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا»**(١).

فجمع ﷺ بين الحث على التوكل والعمل وهو غدوها لطلب الرزق قال الإمام أحمد: «ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق»(٢).

وقال رجل للنبي ﷺ: أرسلُ ناقتي وأتوكَّل، قال: **«اعقلها وتوكل»**(٣). وفي لفظ: **«بل قيدها وتوكل»**(٤).

فجمع له النبي ﷺ بين فعل الأسباب وهو عقل الناقة والتوكل على الله في حفظها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٦٦-٦٧).

(٣) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٢/ ٢١٥) رقم (٩٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٥١٠) رقم (٧٣١).

(٤) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٢/ ٢١٥) رقم (٩٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٧٢٢)، وقال الذهبي: «سنده جيد»، وقال العراقي: «رواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد» تخريج الإحياء (٤/ ٢٧٩).

وهكذا فهم أصحابه رضي الله عنهم ومن ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر على قوم فقال: «من أنتم؟ فقالوا: نحن المتوكلون فقال: بل أنتم المتكلون -أي على أموال الناس- ألا أخبركم بالمتوكلين رجل ألقى حبه في بطن الأرض ثم توكل على ربه»[١].

قال ابن القيم: «فالتوكلُ من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها»[٢].

---

(١) «التوكل» لابن أبي الدنيا (٦١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

والرغبة.

....

الرغبة لغة: الراء والغين والباء أصلان أحدهما طلب لشيء والآخر سعة في شيء... والرغبة العطاء الكثير(١). ويقال: رغب يرغب رغبة، إذا حَرَصَ على الشيء وطمع فيه.

ومنه أفضل العمل منح الرغاب، أي: الإبل الواسعة الدَّر الكثيرة النفع(٢).

واصطلاحًا: «سفر القلب في طلب المرغوب فيه»(٣).

وقيل: الرغبة «إرادة الشيء مع الحرص عليه»(٤).

فالرغبة أخص من الرجاء، فالرجاء طمع والرغبة طلب فإن قوي الطمع صار طلبًا(٥).

ومما يدل على أن الرغبة طلب: حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال صلّى رسول الله ﷺ: «صلاة فأطالها» قالوا: يا رسول الله، صليت صلاة لم تكن تصليها، قال: «**أجل إنَّها صلاة رغبةٍ ورهبةٍ، إنِّي سألت الله فيها ثلاثًا فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدةً، سألته أن لا يهلك أمّتي بسنةٍ فأعطانيها، وسألتهُ أن لا يُسلِّط عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعضٍ فمنعنيها**»(٦).

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤١٥) مادة (رغب).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٣٦-٢٣٧)، وانظر: «اللسان» (١/ ٤٢٢) مادة (رغب).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).

(٤) «الكليات» (٤٨٢).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٥-٥٦) بتصرف.

(٦) أحمد (٥/ ٢٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٧١-٤٧٢) كتاب «الفتن»/ باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته. رقم (٢١٧٥)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب، وفي الباب عن سعد وابن عمر»، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٣) كتاب «الفتن»/ باب ما يكون من الفتن. رقم (٣٩٥١) عن معاذ بن جبل س. قال=

فالنبي ﷺ حسَّن صلاته زيادة على العادة لأنه طلب بها شيئًا عظيمًا لأمته، لذا قال: «**صَلاة رغبة وَرَهْبَة**».

ولعلو مرتبة الرغبة مدح الله سبحانه تعالى بها أنبياءه ورسله فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

ولكونها من أعظم العبادات وأجلها أمر الله بصرفها له وحده لا شريك له فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩].

«فجعل الله الرغبة إليه وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره»[1].

وأرشد النبي ﷺ المسلم إلى تطهير القلب والبدن رغبة إلى الله وحده، لعله إن مات مات على التوحيد، فقال: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصّلاة، ثمَّ اضطجع على شقك الأيمن، ثمُّ قل: اللهمَّ أسلمت وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللَّهُمَّ آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت، فإن متَّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهنَّ آخر ما تتكلّم به**»[2].

=

البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (٤/ ١٧٠).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

والرهبة.

....

الرهبة لغة: الراء والهاء والباء أصلان أحدهما يدل على خوف(١).

قال الراغب الرهبة: مخافة مع تحرز واضطراب. ومنه الرهبانية: وهي غلو في تحمل التعبد من فرْط الرهبة(٢).

فهي أخص من الخوف، فالخوف هرب من المكروه وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه(٣).

وفي الاصطلاح: «هي الخوف الدائم في القلب»(٤).

ولكون الرهبة عبادةً عظيمة أَمَرَ الله عباده أن يرهبوه سبحانه وحده لا شريك له فقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[النحل:٥١] وتقديم ما حقه التأخير (إياي) يفيد الحصر أي حصر الرهبة منه سبحانه وحده.

وجمع لراهبيه الهدى والرحمة، فقال: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤]. وذلك لأن أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو رهبته وحده.

ولعلو منزلة الرهبة عند الله، أثنى على سادات الأولياء برهبتهم منه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٤٧) مادة (رهب).

(٢) «المفردات» (٢١٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٥٥) رقم (١٦٨). وبهذا عرفها الحسن.

وكان النبي ﷺ يدعو ربه أن يوصله تلك المرتبة، فيقول: «**ربِّ أعنّي ولا تعنْ عليّ، وانصرني ولا تنصُر عليّ، وامكر لي ولا تمكُر عليّ، واهدني ويسِّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، ربِّ اجعلني لك شاكرًا لك ذاكرًا لك راهبًا لك مُطيعًا، إليك مخبتًا، إليكَ أواهًا مُنيبًا، ربِّ تقبّل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدِّد لساني، وثبّت حُجّتي، واسلل سخيمة قلبي**». قال أبو الحسن الطنافسي: قلت لوكيع: أقوله في قنوت الوتر؟ قال: نعم»[1] وفي هذا دليل على أنها مرتبة عالية ترنو لها القلوب الحية. فهي عبادة من أَجَلِّ العبادات يجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له ولذلك وصف الله من يرهب غيره أَشَدَّ من رهبته منه بالجهل وعدم الفقه ومعرفة حقائق الأشياء، فقال: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[الحشر:١٣].

---

(١) أحمد (١/ ٢٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩) كتاب «الدعاء»/ باب دعاء رسول الله ﷺ. رقم (٣٨٣٠) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٥٥٤)، كتاب «الدعوات»/ باب دعاء النبي ﷺ. رقم (٣٥٥١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (٢/ ١٧٥-١٧٦)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول الرجل إذا سلم. رقم (١٥١٠)، و«شرح السنة» للبغوي (٥/ ١٧٦) رقم (١٣٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال ابن القيم: «هذا حديث صحيح». «الوابل الصيب» (٤٠٤).

والخشوع.

....

الخشوع في اللغة: الذلّ والسكون والانخفاض والتطامن.

قال أبو زيد: خشعت الشمس وكسفت بمعنى واحد. وقال أبو صالح الكلابي، خشوع الكواكب إذا غارت فكادت تغيب في مغيبها وخشوع سنام البعير: إذا أنضى فذهب شحمه وتطأطا شرفه[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[طه:١٠٨] أي سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع.

ومنه: خشوع الأرض ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[فصلت:٣٩].

«فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز والاهتزاز حركة، وتربو والربو الارتفاع، فعلم أن الخشوع فيه سكون وانخفاض»[2].

وفي الاصطلاح: خضوع القلب ومسكنته لله منقادًا ذالًّا لأمره وقضائه.

فيكون الخشوع معنىً يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار[3].

محل الخشوع:

أجمع أهل العلم على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح[4].

---

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ١٥١-١٥٢)، «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٢) مادة (خشع).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١-٥٢٢).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

قــال تعــالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد:١٦].

﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾: أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له»[(١)].

قال علي بن أبي طالب: «الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم وألا تلتفت في صلاتك»[(٢)]، وبمثله قال النخعي وقتادة وغيرهم[(٣)].

وأما أن ثمرته على الجوارح فلأنها تتأثر به صلاحًا وفسادًا وخشوعًا وخوفًا، قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[(٤)].

ومما يدل على أن خشوع الجوارح تبع لخشوع القلب ووجله قوله سبحانه: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾[النازعات:٨-١٠].

وقال تعالى عن خشوع الصوت: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه:١٠٨].

فلما وجلت القلوب وخافت وذلت وخضعت تبعتها الجوارح فخشع البصر وخشع الصوت.

فـ «الخشوع يتضمن معنيين: (أحدهما) التواضع والتذلل (والثاني) السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٤٨).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٤٠٣) رقم (١١٤٨)، و«الزهد» لوكيع (٢/ ٥٩٩) رقم (٣٢٨)، وانظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (١/ ١٨٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٥-٥٥٦).

(٤) سبق تخريجه.

وطمأنينته أيضًا... وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب»(١).

قال ابن رجب: «وأصل الخشوع هو ليْنُ القلب ورقَّتُه وسكونُه وخضوعه وانكساره وحرقته فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له»(٢).

وقال القرطبي: «إن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقًا متأدبًا متذللًا»(٣).

علامة الخشوع:

علامة الخشوع «أنَّ العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد»(٤).

حكم خشوع القلب: «خشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب»(٥).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فدعا الله عباده إلى الخشوع وأمرهم به وحذرهم من ضده فقال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد:١٦] فقسوة القلب من أبرز صفات أهل الكتاب وذلك لفسقهم وبعدهم عن طاعة الله تعالى. **ففي هذه الآية دليل على وجوب الخشوع من وجهين:**

١- عتاب الله المؤمنين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد:١٦].

٢- أن في قسوة القلوب مشابهةً لليهود والنصارى، ومشابهةُ اليهود والنصارى جريمةٌ منكرة، وذنب عظيم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨-٢٩).

(٢) «الخشوع في الصلاة» (١٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩).

درجات الخشوع:

الخشوع على درجات ثلاث هي:

١- التذلل لأمر الله والاستسلام لحكمه: ومعنى التذلل للأمر أي تلقيه بالقبول والانقياد والامتثال ظاهرًا وباطنًا مع إظهار العبد ضعفه وفقره وحاجته إلى ربه وهدايته وإعانته على فعله، قال سهل بن عبدالله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة هو الخوف من الله تعالى»[1].

وهذا يجعله يستسلم لحكم الله الديني الشرعي فلا يعارضه برأي أو شهوة، ويستسلم لحكمه القدري فيقابله بالصبر والرضا ولا يتلقاه بالتسخط والاعتراض ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

وقال ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[2].

وقال ﷺ: «**إنَّما الصَّبر عند الصدمة الأولى**»[3]، ولا يصبر إلا إذا استسلم لحكم الله.

٢- مراقبة آفات النفس ورؤية فضل كل ذي فضل عليك:

وذلك بالنظر في عيوب النفس من الكبر والعُجْب والغرور والرياء وضعف الإخلاص وقلة اليقين، وغير ذلك من عيوبها وباتهامها دائمًا بالتقصير وضعف العمل وكثرة الذنوب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦٣) كتاب «الجنائز»/ باب ليس منا من شق الجيوب. رقم (١٢٩٤)، ومسلم (١/ ٩٩) كتاب «الإيمان»/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية. رقم (١٠٣).

(٣) سبق تخريجه.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لو كان للذنوب رائحة ما جلستم عندي». وقال محمد بن واسع: «لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني»[1].

وقال أبو العتاهية:

نح على نفسك يا مسكين إنْ كنت تنوح لتموتن وإن عمرت ما عمر نوح

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح فإذا المستور منا بين جنبيه فَضُوح

وعندما سئل الإمام أحمد: «أطلبت العلم لله، قال: أما لله فعزيز».

وذلك أن «النظر في عيوب النفس يجعل القلب خاشعًا لا محالة»[2].

وأما رؤية الفضل فأعلى فضل هو فضل الله علينا، فجميع النعم التي نتقلب فيها هي محض فضل الله علينا بداية من خلقنا، ثم هدايتنا إلى هذا الدين. قال أهل الجنة معترفين بفضل الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣] فهو المانُّ بها سبحانه بلا سبب من العبد.

وأما في تعامله مع الخلق، فإن الخاشع لا يرى له على غيره فضلًا، قال بكر بن عبدالله المزني: «إني لأخرج من بيتي فما ألقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليّ، لأني من نفسي على يقين، أما من الناس في شك»[3].

وقال: «إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا خيرٌ مِنِّي سبقني إلى الجنة، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: هذا خير مني سبقته إلى الذنوب، وإذا رأيت أصحابك يجلونك فقال: هذا كرم منهم لا أستحقه، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته»[4].

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد (٢١٨).

(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٦)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٨).

قال شيخ الإسلام: «العارف لا يرى له على أحد حقًا ولا يشهد له على غيره فضلًا ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب»(١) وقال ابن القيم: «وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك وتعترف بفضل ذي الفضل منهم وتنسى فضل نفسك»(٢).

٣- ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال:

قد يعجب بعض الناس بعمله فيظن أن له فضلًا وإحسانًا حتى قد يصل به الأمر أن يمن بذلك على الله، ومن كان كذلك فقد أصيبت مقاتله ولما منّ قوم في عهد رسول الله ﷺ عليه بإسلامهم أنزل الله قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الحجرات:١٤]. وهذا خلل كبير سببه فقد الخشوع أو ضعفه.

فالخاشع الموفق هو الذي يضبط نفسه بالاستمرار والمداومة على استشعار الذل والفاقة والانكسار بين يدي الله عز وجل حتى عند نشوة النصر، فها هو نبينا ﷺ دخل مكة فاتحًا منتصرًا قد أعزه الله على عدوه دخلها حين دخلها متواضعًا متخشعًا متذللًا لله تعالى مطأطئًا رأسه حتى إنه ليكاد رأسه يمس مورك رحله.

وهكذا أتباعه من بعده:

كما قال عمر رضي الله عنه: «وددت أني خرجت كفافًا، لا لي، ولا عليّ»(٣).

وعندما ألف البخاري كتابه «الصحيح» ذكر أول حديث فيه: «**إنَّما الأعمال بالنِّيات، وإنَّما لكُلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها؛ فهجرته**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

إلى ما هاجر إليه»[(١)]، فترك أول الحديث لئلا يزكي نفسه.

ولما قال رجل للإمام أحمد: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا ثم قال: «ومن أنا؟ وما أنا»[(٢)].

وكان شيخ الإسلام إذا أثني عليه في وجهه يقول: «والله إني إلى الآن أجدِّدُ إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا».

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي

ومن شعره الذي كتبه في آخره عمره (وهو محبوس بالقلعة):

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي
وهذ الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عَبْدٌ له آتي[(٣)]

منزلة الخشوع وأهميته:

الخشوع عبادة عظيمة منبعها من القلب وتفيض وتظهر على الجوارح، ولذلك خص به النبي ﷺ ربه فكان من دعائه في ركوعه: «**اللهمَّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٧٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٥) و«العقود الدرية» (٢٥٠).

(٤) مسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥) كتاب «صلاة المسافرين»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧١).

ومما يبين منزلة الخشوع وأهميته ما يلي:

١) أن الخشوع صفةُ الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم: أثنى الله عليهم ومدحهم به. فقال سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

وهو حال أكملهم نبينا ﷺ كما وصفه ابن عباس رضي الله عنهما حال خروجه لصلاة الاستسقاء، فقال: «خرج رسول الله ﷺ متواضعًا متبذلًا متخشعًا مترسلًا متضرعًا»[١].

والتخشع لله: هو الإخبات والتذلل[٢].

وأثنى على أهل العلم بخصوصهم بالخشوع عند سماعهم لكلامه فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء:١٠٧-١٠٩]. بل ذكره الله وصفًا عامًا لأتباع الرسل من عباده الصالحين الذين أعدّ لهم المغفرة والنعيم المقيم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥].

٢) الأمر به بصيغة عتاب من لم يخشع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد:١٦].

---

(١) الترمذي (٢/ ٤٤٥)، كتاب «أبواب الصلاة»/ باب ما جاء في صلاة الاستسقاء. رقم (٥٥٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١٥٦) كتاب «الاستسقاء»/ باب الحال التي يستحب للإمام أن يكون عليها إذا خرج، وأبو داود (١/ ٦٨٨-٦٨٩)، كتاب «الصلاة»/ باب جماع أبواب صلاة الاستسقاء. رقم (١١٦١)، وابن ماجه (١/ ٤٠٣)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها»/ باب ما جاء في صلاة الاستسقاء. رقم (١٢٦٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (١/ ١٥٢).

أي أما آن للمؤمنين أن تلين قلوبهم لذكر الله، وتنقاد له، قال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»[(١)].

٣) عظيم ثمراته:

للخشوع ثمرات عظيمة منها:

أ) الرفعة في الدنيا والآخرة:

قال ابن مسعود ﷺ: «من تواضع لله تخشعًا رفعه الله يوم القيامة»[(٢)] وقال ابن القيم: «وقد اقتضت حكمته أنَّ خِلَعَ النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾[القصص٥-٦]»[(٣)].

ب) يسر العبادات وسهولتها:

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[البقرة:٤٥].

ج) حماية العبد من الشيطان:

قال سهل بن عبدالله: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان»[(٤)]، «فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي خشي به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتًا له»[(٥)].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٣١٩)، كتاب «التفسير»/ باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]. رقم (٣٠٢٧).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٥).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٤٧٨).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢).

(٥) «الروح» (٢٣٢).

٤) شموليته للقلب والجوارح:

لما كان الخشوع أصله في القلب ويظهر على الجوارح، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح ظهر من ذلك شموليته لهما معًا.

قال سهل: «لا يكون خاشعًا حتى تخشع كل شعرة على جسده لقول الله تبارك وتعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الزمر:٢٣]»[١].

وقال تعالى عن خشوع الصوت: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه:١٠٨].

ووصف تعالى خشوع الأبصار بقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[القلم:٤٣] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾[النازعات:٨-٩].

وتقرب النبي ﷺ إلى ربه بخشوع أعضائه له سبحانه فكان يقول في ركوعه: «**اللهم لك ركعت، وبك آمنت، خشع لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي**»[٢].

ومدح الله عباده الصالحين بظهور الخشوع على وجوههم فقال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح:٢٩].

قال قيس بن عباد واصفًا عبدالله بن سلام: «فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع»[٣].

قال مجاهد مبينًا ما المقصود بسيماهم في هذه الآية: «ليس بهذا الأثر الذي في الوجه ولكنه الخشوع والتواضع»[٤].

قال ابن رجب: «إذا خشع القلب فإنه يسكن خواطره وإراداته الرديئة التي تنشأ عن

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ١٢٩) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مناقب عبدالله بن سلام رضي الله عنه. رقم (٣٨١٣).

(٤) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٩٨).

اتباع الهوى وينكسر ويخضع لله عز وجل فيزول بذلك ما كان فيه من الترفع والتعاظم والتكبر ومتى سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت»[(١)] ويدرك خشوع القلب «بسكون الجوارح إذ الظاهر عنوان الباطن»[(٢)].

٥) ترتب الفلاح عليه:

مدح الله المؤمنين بالخشوع في أشرف عباداتهم لترتب فلاحهم عليه، فقال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[المؤمنون:١-٢].

٦) التحذير من فقده:

تَخَوَّف النبي ﷺ على أمته من فقد الخشوع وما ذلك إلا لسرعة فقده لقلة من يتعلمه فهو أول علم يرفع من هذه الأمة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «**هذا أوان يختلس العلم من النّاس، حتّى لا يقدروا منه على شيءٍ**»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنّه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال: «**ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التّوراة والإنجيل عند اليهود والنّصارى، فماذا تُغني عنهم**». قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء؟ قال: صدق أبو الدرداء إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»[(٣)].

---

(١) «الذل والانكسار» (٣٧).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٢٢٦).

(٣) الترمذي (٥/ ٣١-٣٢) كتاب «العلم»/ باب ما جاء في ذهاب العلم. رقم (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والدارمي في «سننه» (١/ ٨٤) «المقدمة»/ باب من قال: العلم الخشية وتقوى =

وفي رواية عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ نظر إلى السماء يومًا فقال: «**هذا أوان يرفع العلم**»، فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: يا رسول الله كيف يرفع وقد أثبت ووعته القلوب؟ فقال له النبي ﷺ: «**إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة**»، ثم ذكر له ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله، قال فلقيت شداد بن أوس بحديث عوف فقال: ألا أخبرك بأَوَّلِ ذلك يرفع؟ فقلت بلى. قال: الخشوع حتى لا ترى خاشعًا»[(١)].

ولكي نحذر ونخاف من فقده حذرنا ربنا من حال أهل الكتاب قبلنا فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد:١٦].

«أي لا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولا ثبتوا بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزله الله ولا ينبغي الغفلة فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين»[(٢)].

= الله. رقم (٢٨٨)، والحاكم في «المستدك» (١/ ٧٩)، وقال: «هذا إسناد صحيح من حديث البصريين». وله شاهد من حديث زياد بن لبيد عند أحمد (٤/ ١٦٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٤)، كتاب «الفتن»/ باب ذهاب القرآن والعلم. رقم (٤٠٤٨). قال القرطبي: «إسناده صحيح». «التذكرة» (٢/ ٥١١)، وقال ابن كثير: «هذا إسناد صحيح». «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٨).

(١) أحمد (٦/ ٢٦-٢٧) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١٠٥-١٠٦) رقم (٣٣٧-٣٣٩)، واللفظ له. والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٣٩٢) رقم (٥٨٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ٤٣٣) رقم (٤٥٧٢). قال القرطبي: «حديث حسن». «التذكرة» (٢/ ٥١٠)، وقال ابن مفلح بعد ذكره لحديث أبي الدرداء، وعوف بن مالك: «هذان حديثان جيدا الإسناد». «الآداب الشرعية» (٢/ ٦٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٤٠).

أنواع الخشوع:

ينقسم الخشوع إلى ثلاثة أقسام هي:

الأول: الخشوع التوحيديّ العباديّ:

وهو الذُّل والتطامن والخضوع واستشعار الفقر والحاجة لله وحده لا شريك له.

قال تعالى حاثًّا عباده على الخشوع له سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الحديد:١٦].

وضرب المثل لعباده بخشوع الصم الصلاب لكلامه سبحانه فكيف تكون قلوبهم أقسى منها، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١]. فمن تفكر قاده ذلك التفكر إلى الخشوع والذل لله سبحانه.

وأثنى على رسله بالخشوع له وحده فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

ومدح المؤمنين بخشوعهم له وحده فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون:١-٢].

«أفلحوا وفازوا ونالوا البغية وأحرزوا البقاء الدائم بخشوعهم في الصلاة لاستشعار قلوبهم هيبة الموقف في الصلاة بين يدي الله وخشوعهم فيها وتذللهم لله فيها بطاعته وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها»(١).

ومدح الصالحين من أهل الكتاب بإفرادهم الخشوع له فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[آل عمران:١٩٩].

---

(١) «جامع البيان» (١٦/ ٣٤٩-٣٥٠).

﴿خَٰشِعِينَ﴾: «أي خاضعين لله بالطاعة مستكينين له بها متذللين»(١).

وكان الخشوع التوحيدي العبادي لله سمة رسول الله ﷺ كما وصفه ابن عباس رضي الله عنه عند خروجه لصلاة الاستسقاء فقال: «خرج رسول الله ﷺ متواضعًا متبذلًا متخشعًا مترسلًا متضرعًا»(٢) هذه صفة خروجه لصلاة الاستسقاء.

أما في يوم عرفة في الموقف العظيم فخشوعه من أعجب العجب، قال ابن عباس: «رأيت رسول الله ﷺ بعرفة يدعو ويداه إلى صدره كاستطعام المسكين»(٣). ووصفه جرير رضي الله عنه بقوله: «رأيت رسول الله ﷺ واقفًا بعرفة متأبطًا رداءه رافعًا يديه لا يجاوزان رأسه وعضلتاه ترعدان»(٤).

الثاني: الخشوع الشركي الكفري:

وهو خشوع العبد لغير الله كخشوع بعض الناس لأصحاب القبور وذلهم لهم وانكسارهم أمام قبورهم تقرُّبًا إليهم ورجاءً لما عندهم كما يزعمون وخوفًا منهم كما يتوهمون.

ومن ذلك ما حكاه عبد الله بن محمد بن خميس عن مشاهداته قائلًا: «لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق، فوجدت فئامًا من الناس يغدون إليه ويروحون... وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه، وتنادي: أغثني يا محيي الدين... وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن الأكف، ويمسحن الوجوه، ويخشعن ويتضرعن»(٥).

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٣٨٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «أخبار مكة» (٤/ ٣٢٠) رقم (٢٧٥٦)، و«المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٩) رقم (٢٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٥/ ١٩٠) رقم (٩٤٧٤).

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٣٣٢) رقم (٢٣٨٦).

(٥) «شهر في دمشق» (٦٤-٦٥) نقلًا عن «الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (١/ ٣٢٩).

وهذا النوع من الخشوع يلقي صاحبه في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية:٢-٤] أي ذليلة خاضعة لا ينفعها ذلها وخضوعها وتعبها بل يضرها فبسببه تصلى النار عقوبة لها على خشوعها لغير الله.

الثالث: الخشوع النفاقي:

وهو ما يسميه السلف خشوع النفاق وهو خشوع الجسد دون خشوع القلب فيتكلف خشوعَ جوارحه وإسكانُها وقلبُه عارٍ من الخشوع. فظاهر جسده شيء وباطنه وقلبه شيء آخر.

ويصوره ابن القيم فيقول: «وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عبد تكلف إسكان الجوارح تصنعًا ومراءاةً، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة»(١). وهذا النوع من الخشوع أكثر ما يخاف منه على العباد والقراء.

وسببه حرمان الخشوع الحقيقي، وذلك أن من حرم الخشوع الحقيقي الإيماني الشرعي ابتلي بأمرين أو أحدهما.

وهما:

١- قسوة القلب:

قسوة القلب من الأمراض العظيمة، فصاحبه لا يرعوي لزاجر ولا يأتمر بأمر ولا ينتهي عن عصيان. ولو سمع كلام الله ما تأثر. فقلبه أقسى من الحجر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة:٧٤].

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾: أي اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة حتى صار من غلظها أنها أشد قسوة من الحجارة علمًا أنّ الحجارة أشدُّ قسوة من الحديد لأن الحديد والرصاص إذا

---

(١) «الروح» (٢/ ٦٩٥).

أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار. فما أعظم قسوة هذه القلوب! وما أقبح هذه الصفة! ولقبحها تعوّذ النبي ﷺ منها فقال: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يستجاب لها**»(١).

جمع ﷺ بين هذه الأمور الأربع؛ لأن عدم خشوع القلب دليل على أن علمه لم ينفعه؛ لأنه علم لسان وليس علم قلب، فنفسه جشعة منهومة بالدنيا فتفكيره فيها وحبه لها وبغضه لها، وربما جمع المال من غير حِلِّه فلذلك لا تستجاب دعوته لما يوجد من الصوارف عن إجابتها.

قال عبدالأعلى التيمي: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علمًا ينفعه لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(٢) [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقسوة القلب من أعظم عقوبات الذنوب، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[المائدة:١٣].

«أي غليظة لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شرًا»(٣).

بل يقع فيها عكس ذلك فهي تستجيب لإلقاء الشيطان وتسويله السوء، قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٨٥)، «المقدمة»/ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله. رقم (٢٩١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٢٥).

فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم على باطلهم وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله ولهذا قال الله سبحانه بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[الحج:٥٣].

فبذلك استحقوا وعيد الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر:٢٢].

٢- خشوع النفاق:

مَنْ حُرِمَ خشوع القلب ابتلي بقسوته، ثم استهواه الشيطان، فزيَّن له خشوع النفاق، فأظهر للناس الخشوع تكلفًا وتصنعًا وليس في قلبه من ذلك شيء.

ولخطورته على المصلين العابدين حذّر منه السلف أيما تحذير قال حذيفة رضي الله عنه: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له وما خشوع النفاق، قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع»[(١)].

وبمثله قال أبو الدرداء إلا أنه قال: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق...»[(٢)]. وبنحوه عن أبي هريرة[(٣)]، أما سفيان الثوري فقال: «إياك وخشوع النفاق، وأن تظهر على وجهك خشوعًا ليس في قلبك»[(٤)].

وكان أهل الخير والاستقامة يكرهونه أشد الكره، كما قال الفضيل بن عياض: «كان يكره أَنْ يُرِيَ الرجلُ من الخشوع أكثرَ مما في قلبه»[(٥)].

وكما كانوا يحذِّرُون منه كانوا أيضًا يَحْذَرُونه على أنفسهم فيتعوذون بالله منه فها هو

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٧٦) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٤/ ٩٥).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (٤٦)، و«شرح السنة» (١٤/ ٣٢٧).

(٤) «حلية الأولياء» (٧/ ٤٨).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعوذ من خشوع النفاق[١] وكذلك سفيان الثوري[٢]، وغيرهم رحمهم الله.

الأسباب الجالبة للخشوع:

عندما يحس المسلم بقسوة قلبه يتألم، فيتساءل: هل بالإمكان إزالة هذه القسوة، فيلتفت يمنة ويسرة، فلا يجد، فيتوجه صوب كتاب الله، فيجد النور هناك، فيتبعه، فيحيا قلبه، وتلين قسوته: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الحديد:١٧].

قال ابن كثير: «فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ويفرج الكروب بعد شدتها فكما يحيي الأرض المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة»[٣].

ومن الأسباب الجالبة للخشوع ما يلي:

١) معرفة الله تعالى واستشعار رؤيته:

من كان بالله أعرف كان منه أخوف وله أخشع فإن العلم بالله يثمر للعبد الخشوع ولقد قال سيد الخائفين من الله والخاشعين له: «**والله إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»[٤].

فلقوة علمه بالله صار هو أخشع الخلق لله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[النازعات:٤٠].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٢٥).

(٢) المرجع السابق (٧/ ٣٦٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٤٩).

(٤) مسلم (٢/ ٧٨١) كتاب «الصيام»/ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. رقم (١١١٠).

«وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له كان أشدَّ خشوعًا وإنما يفارق -الخشوع- القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه»(١).

«وأصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف كان له أخشع.

وتتفاوت القلوب في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع.

فمن خاشع لقوة مطالعته قرب الله من عبده واطلاعه على سِرِّه وضميره المقتضي للاستحياء من الله تعالى ومراقبته في الحركات والسكنات ومن خاشع لمطالعته لجلال الله وعظمته وكبريائه المقتضي لهيبته ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته ومن خاشعٍ لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه»(٢).

٢- قراءة القرآن وسماعه:

للقرآن أثر بالغ على إزالة قسوة القلوب وتليينها: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٢٣].

«ولين القلوب هو زوال قسوتها بحدوث الخشوع فيها»(٣).

قال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أدنه من الذكر»(٤).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٢) «الذل والانكسار» (٣٩).

(٣) «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٢٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (٣٢٦).

٣- طلب العلم:

طلب العلم النافع لا بُدَّ أن يورث القلب الخشية والخشوع.

قال الحسن: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره، وبرِّه»(١).

وقال ابن رجب: «فالعلم النافع هو ما باشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار»(٢).

فمن لم يورثه العلم خشية وخشوعًا، فليعلم أن هناك صارفًا منعه، فليراجع نفسه.

٤- مطالعة عيوب النفس:

مطالعة عيوب النفس توجب للعبد خوفه من ربه وحياءه منه فيذل له ويخشع له.

---

(١) المرجع السابق (٣١٩).

(٢) «الخشوع في الصلاة» (٢٥).

والخشية.

....

الخشية لغة: الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر.. ويقال هذا المكان أخشى من ذلك: أي أشد خوفًا[(١)].

وفي الاصطلاح: خوفٌ يشوبه تعظيم.

وإنما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ولذلك خص الله العلماء بها وحصرها فيهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[(٢)] [فاطر:٢٨].

قال ابن رجب عند قوله تعالى: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ دلت هذه الآية على إثبات الخشية للعلماء بالاتفاق وعلى نفيها عن غيرهم على أصح القولين، فإن صيغة «إنما» تقتضي تأكد ثبوت المذكور بالاتفاق لأن خصوصية إنّ إفادة التأكيد. وهذه الآية كقوله: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[إبراهيم:٥٢]، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[طه:٩٨].

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء والاستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء. فنفى الخشية عمّن ليس من العلماء، وأثبتها للعلماء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)] [الزمر:٩].

فمن كان بالله أعرف كان له أشد خشية وتعظيمًا، فأخشى الناس على الإطلاق هو رسولنا ﷺ لكمال علمه بالله ومعرفته به وبصفاته، فعن عائشة ﵂ قالت: صنع النبي ﷺ شيئًا فرخّص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال**

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٤-١٨٥) مادة (خشى).

(٢) «المفردات» (١٥٥) بشيء من التصرف.

(٣) إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢٨-٤٧)، كل هذه الصفحات في بيان حصر الخشية في العلماء.

أقوامٍ يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إنِّي لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[١].

فتبين بذلك أن الخشية أخصُّ من الخوف، ولأجل ذلك فسر ﷺ أعلى مراتب الدين بها عندما سئل عن الإحسان. فقال: «**أن تخشى اللهَ كأنك تراهُ**»[٢].

وخص عبد الله بن مسعود رضي الله عنه العلم بها، فقال: «كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار به جهلًا»[٣].

وحصر الشعبي العلم بها فقال لما قال له رجل: أيها العالم، فقال: «إنما العالم مَنْ يخشى الله»[٤].

وجعلها الفضيل بن عياض علامة الفقيهِ الفارقَةَ له عن غيره، فقال: «إنما الفقيهُ الذي أنطقته الخشية، وأسكتته الخشية، إن قال قال بالكتاب والسنة، وإن سكت سكت بالكتاب والسنة، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده، ورده إلى عالمه»[٥].

قال ابن القيم: فالخشية أخص من الخوف فإنها للعلماء فهي خوف مقرون بمعرفة فالخوف حركة، والخشية: انجماع وانقباض وسكون، ثم وضح ذلك بالمثال فقال: مثاله: العدو والسيل عندما يراهما الإنسان **فله حالتان:**

١. حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

٢. سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية. فصاحب الخوف يلتجئ

---

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥١٣) كتاب «الأدب»/ باب ما لم يواجه الناس بالعتاب. رقم (٦١٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩) كتاب «الفضائل»/ باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته. رقم (٢٣٥٦).

(٢) مسلم (١/ ٤٠) كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٧٨).

(٥) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٥٠).

إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم ومثلهما مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية[(١)].

أهمية الخشية وعظيم منزلتها:

خشية الله عمل عظيم من أعمال القلوب كان النبي ﷺ يسألها ربه، فيقول: «**وأسألك خشيتك في الغيب والشّهادة**»[(٢)]، وتتجلى أهميتها بما يلي:

(١) الثناء على أهلها:

مدح الله تعالى رسله الكرام بها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾[الأحزاب:٣٩].

وأثنى على أتباعهم بإفرادهم إياه بها فقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[التوبة:١٨].

فأتى بالنفي والإثبات الذي يفيد الحصر والقصر فقال: ولم يخش إلا الله.

وأثنى على ملائكته بها فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨].

(٢) الأمر بصرفها له وحده:

أنكر الله سبحانه على من صرف الخشية لغيره، فقال: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ ثم بين أن الخشية

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢-٥١٣).

(٢) سبق تخريجه.

حقه وحده، فقال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ وجعلها شرطًا في صحة الإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[التوبة:١٣]، فدل على أن من فقد خشية الله، أو صرفها لغيره، فقد فَقد الإيمان.

(٣) مغفرة الله لمن خَشِيَهُ بالغيب:

يظهر صدق الخشية عندما تكون بالغيب قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[الملك:١٢] وذلك أن من يخشى الله بالغيب أي في الحالة التي لا يطلع عليه فيها إلا الله فقد صدق في خشيته لله، لعدم وجود من يرائيه، أو يخشاه من المخلوقات، ومن خشي الله بالغيب فهو في المشاهدة أحرى وأولى، فأُعطي بذلك أمران عظيمان هما المغفرة والأجر الكبير.

(٤) منع العبد من ارتكاب الذنوب:

الخشية تمنع العبد وتحجزه عن ارتكاب الذنوب والخطيئات كما في قصة النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار ومنهم الذي أراد أن يزني بابنة عمه التي هي من أحب الناس إليه، فلما خوفته بالله تركها خشية الله قال في دعائه: «فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا»[(١)]، قال سعيد بن جبير: «الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته، فتلك الخشية»[(٢)].

(٥) الإعانة على فعل الطاعات:

كما أن الخشية مانعة من ارتكاب الآثام فهي من أكبر ما يعين على فعل الطاعات قال عبيد الله بن أبي جعفر: «ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله عزوجل»[(٣)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٠٥-٥٠٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب حديث الغار. رقم (٣٤٦٥).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٥) رقم (١٣٨)، و«حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٦).

(٣) «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩).

(٦) محبة الله لها ولآثارها:

ولعظم الخشية عند الله؛ فإنه يحبها بل يحب أثرها كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس شيءٌ أحبُّ إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموعٍ من خشية الله، وقطرة دمٍ تُهْراق في سبيلِ الله. وأما الأثران: فأثرٌ في سبيل الله، وأثر فريضة من فرائض الله**»[١].

ولم يحب الله الدمعة من خشيته إلا لعظم منزلتها عنده، واستوعب ذلك عمرو بن العاص، فقال: «لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليَّ من أن أتصدق بألف دينار»[٢].

ومما سبق نعلم أن الخوف والرهبة والخشية مراتب.

فالمرتبة الأولى: الخوف

والمرتبة الثانية: الرهبة.

والمرتبة الثالثة وهي أعلاها: الخشية.

فكل خاشٍ راهب خائف وليس كلُّ خائف راهب خاشياً.

ومن جميل الترتيب ذكر الإنابة بعد الخشية لأن الذي يخشى الله لابد أن يخاف عقابه فينيب إليه.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٣١-٣٣].

---

(١) الترمذي (٤/ ١٩٠)، كتاب «فضائل الجهاد»/ باب ما جاء في فضل المرابط. رقم (١٦٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، و«المعجم الكبير» للطبراني (٨/ ٢٣٥) رقم (٧٩١٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٠).

والإنابة.

....

والإنابة في اللغة: مأخوذة من النَّوْب وهو رجوع الشيء مرّة بعد أخرى ومنه سميت النحل نُوْبًا لرجوعها إلى مقارها[١].

وفي الاصطلاح: انصرافُ دواعي القلب وجواذبه إلى الله بعكوفه عليه محبة وتعظيمًا وخضوعًا.

وينبغي أن يُعْلَمَ أن عكوف القلب يثمر عكوف الجوارح على الطاعات.

وهذه الإنابة هي: إنابة أولياء الله لألوهيته فهي إنابة عبودية ومحبة متضمنة لأمور أربعة هي:

١-محبته.

٢- الخضوع له.

٣- الإقبال عليه.

٤- الإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك[٢].

درجات المنيبين:

المنيبون إلى الله تعالى على درجات متفاوتة بعضهم أعلى من بعض.

---

(١) «المفردات» (٥٠٩) وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٣٦٧) مادة (نوب).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

وهذه الدرجات هي:

١) المنيب إلى الله بالرجوع من المخالفات والمعاصي «مصدرها مطالعة الوعيد».

٢) المنيب إلى الله بفعل الطاعات والقربات «مصدرها مطالعة الوعد».

٣) المنيب إلى الله بالتضرع والافتقار والدعاء وسؤال الحاجات «مصدرها شهود فضل الله ومنته وكرمه وغناه وقدرته».

٤) المنيب إلى الله بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجوارحه «مصدرها شدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى الله».

فإنابة الروح بجملتها هي أعلى درجات المنيبين وأرفعها، وذلك أنها لما أنابت إلى الله دخلت كلَّ مَفْصِل وعِرْق، فأنابت بذلك جميع قوى الإنسان وجوارحه(١).

أنواع الإنابة:

تنقسم الإنابة إلى قسمين:

الأول: الإنابة الشرعية العبادية التوحيدية:

وهي الإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له وهي التي أمر الله بها جميع الناس بقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾[الزمر:٥٤].

ثم بين أنها هي الواقية من عذابه فقال: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[الزمر:٥٤].

وحصر قدوتنا ﷺ الإنابة إليه تعالى فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر كما قال الله عنه إنه قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[الشورى:١٠].

وفي دعائه ﷺ إذا قام يتهجد من الليل: «**اللَّهُمَّ لك الحمد أنت قيُّوم السَّماوات**

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١٧٣-١٧٤).

والأرض ومن فيهنَّ... اللَّهُمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبتُ...»(١).

بل جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام إبراهيم عليه السلام ومن معه حصروا إنابتهم إلى الله وحده، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤].

فمن أكثر التوبة لله صار من المنيبين كفعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والله لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢).

وقال ابن عمر رضي الله عنه: إنْ كنا لنعدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرةٍ: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»(٣).

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا أكثَرَ أَنْ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٤).

---

(١) البخاري (٢/ ٦٠) كتاب «التهجد»/ باب التهجد بالليل. رقم (١١٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٦) كتاب «الذكر والدعاء»/ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. رقم (٢٧١٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠١)، كتاب «الدعوات»/ باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة. رقم (٦٣٠٧).

(٣) الترمذي (٥/ ٤٩٤-٤٩٥)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا قام من المجلس. رقم (٣٤٣٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وأبو داود (٢/ ١٧٨)، كتاب «الصلاة»/ باب في الاستغفار. رقم (١٥١٦) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٣)، كتاب «الأدب»/ باب الاستغفار. رقم (٣٨١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٢) رقم (٦١٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٧١-٧٢) رقم (١٢٨٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٠) رقم (٤٥٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٢٢) رقم (٣٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٠٧) رقم (٩٢٨).

فمن شعر بكثرة ذنوبه وخطورتها عليه وعلم عِلم قلب بعفو الله ومغفرته وفرحه بتوبة عبده إليه قاده ذلك إلى كثرة الإنابة إليه والرجوع إليه فيفر منه إليه وحده.

الثاني: الإنابة الشركية الكفرية:

وهي الإنابة إلى غير الله فيما هو من أمور الشرع والدين.

كما يفعله كثير من مريدي الشيوخ الذين إذا ارتكبوا الذنوب والعصيان جاؤوا إلى شيوخهم فاعترفوا عندهم وذلوا وخضعوا لهم زاعمين بجهلهم أنهم مذنبون ولا يستطيعون أن يدعوا الله مباشرة أو يتوبوا إلى الله مباشرة وإنما يتوبون إلى الشيخ فإذا قبل الشيخ توبتهم وإنابتهم رفعها الشيخ إلى الله فتاب الله عليهم وقبل منهم زعموا.

أهمية الإنابة وعلو منزلتها:

مما يدل على أهمية الإنابة وعلو شأنها ومنزلتها ما يلي:

١) أن الله أثنى على رسله بها فقال عن خليله عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود:٧٥].

«والمنيب إلى الله: هو المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه»(١).

فأناب عليه السلام بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجسده وجوارحه إلى الله تعالى وعكف قلبه على ربه فصار يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله.

فمن حرم هذا العكوف «فلم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان حظُّه العكوفَ على الربِّ الجليل»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

(٢) «الفوائد» (٣٣٩).

ومــــدح الله داود عليه السلام بالإنابـــة فقـــال: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾[ص:٢٤].

ومثله سليمان عليه السلام: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[ص:٣٤].

٢- الوقاية من العذاب. قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[الزمر:٥٤].

فأمر بالإنابة إليه لأنها هي الواقية من العذاب.

٣- البشرى للمنيبين: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾[الزمر:١٧].

لهم البشرى التي لا يقادِرُ قدرَها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم الله بها وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي قبورهم ويوم القيامة ويتوجون بتلك البشارة وهي رضوان الله عليهم فلا يسخط عليهم أبدًا(١).

٤- الانتفاع والذكرى بما يرى من الآيات: قال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[سبأ:٩].

وذلك لأن المنيب مقبل على ربه ليس له همٌّ إلا مرضاة ربه فيكون نظره إلى المخلوقات نظر تفكر واعتبار فيستدل بنظره إلى السماء والأرض على قدرة الله وعظمته.

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢١).

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٦-٨].

بل إن الله حصر المتذكرين في المنيبين فقط، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر:١٣].

٥- تقريب الجنة للمنيبين وإدخالهم إياها:

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[ق٣١-٣٤].

فجاء وصف القلب بالإنابة لأن الإنابة من أعمال القلوب، فأصل الدين ما وقع في القلب وثبت فيه. وذلك من أعظم أسباب دخول الجنة.

٦- أن الإنابة سبب للهداية:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد:٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣].

فهذا السبب من الأسباب التي يتوصل بها العبد إلى هداية الله تعالى له، وهو إنابته لربه وانجذاب دواعي قلبه إليه وكونه قاصدًا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾(١) [المائدة:١٦].

٧- الأمر باتباع سبيل المنيبين:

الذين أنابوا إلى الله انجذبوا إليه بأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وهممهم وإراداتهم وأعرضوا عما سوى الله، فلذلك حَسُنَ اتباع سبيلهم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٥٥).

إِلَيَّ ﴾[لقمان:١٥]، لأنهم لا تصرفهم الصوارف مهما عظمت عن الله وعن مرضاته.

والتوبة: أصل تاب عاد إلى الله ورجع إليه وأناب، وتاب الله عليه، أي عاد عليه بالمغفرة[١].

وقيل: «الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»[٢].

وقيل: «الرجوع إلى الله بعد الإباق منه»[٣].

والتوبة والإنابة كالإسلام والإيمان بينهما عموم وخصوص فكل منيب تائبٌ وليس كل تائبٍ منيبٌ.

وذِكْرُ المؤلف للإنابة بدلًا من التوبة أولى لأمور:

١- أنها أعلى من التوبة لأنها تشعر الاعتماد على الله واللجوء إليه[٤].

٢- أن الإنابة ورد وصف القلب بها في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيكون ارتباطها بأعمال القلوب أقوى من أعمال الجوارح.

٣- أن الإنابة تشارك التوبة بالإقلاع عن المعاصي والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إلى الذنب وبفعل الطاعات والافتقار إلى الله وتزيد عليها أن المنيب يقبل على ربه بكليته مستمرًا على الدوام.

٤- أن صورة العبادة بالنسبة للإنابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة بسبب زيادة الإقبال على العبادة[٥].

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣٣٢).

(٢) «التوبة» لابن تيمية (٤٢).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢٣١).

(٤) «شرح الأصول» للشيخ العثيمين (٥٧).

(٥) «حصول المأمول» (٩١).

والاستعانة.

....

الاستعانة لغة: طلبُ العون[١]. لأن الألف والسين والتاء في اللغة للطلب، فإذا قيل استعان فمعناه طلب الإعانة وإذا قيل: استغاث أي طلب الغوث وإذا قيل: استخبر أي طلب الخبر[٢].

وفي الشرع: طلب العون من الله مع الاعتماد عليه والثقة به في تحصيل ما يطلب.

أركان الاستعانة:

١) الثقة بالله.

٢) الاعتماد عليه.

فلا بُدَّ من اجتماع هذين الركنين في الاستعانة بالله فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره. مع ثقته به. لاستغنائه عنه وقد يعتمد عليه -مع عدم ثقته به- لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به[٣].

وتنقسم إلى قسمين:

١- **استعانة عبادية**، وضابطها: «هي الاستعانة المطلقة التي يستقل بها المغيث»[٤].

٢- **استعانة مباحة**، وضابطها: «ما كان من باب فعل الأسباب».

---

(١) «المفردات» (٣٥٦).

(٢) «حصول المأمول» (٩٢)، وانظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠١).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٧٥)، وانظر أيضًا: (١/ ٨٢).

(٤) قاعدة: «كل عمل قلب أو جوارح فوق الأسباب العبادية؛ فهو عبادة».

الفرق بين الاستعانة والتوكل:

أن الاستعانة لجلب المنفعة والتوكل لجلب المنفعة ودفع المضرة.

قال شيخ الإسلام: «يكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩]، وقال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾»(١) [آل عمران:١٧٣].

أنواع الاستعانة:

الاستعانة ثلاثة أنواع هي:

(١) الاستعانة التوحيدية العبادية:

وهي الاستعانة بالله وحده في جميع أمور العبد. لأن العبد ضعيف لا يستطيع أن يستقل بنفسه في أفعاله فلا بُدَّ له من معين وهو الله تعالى.

ومن ثم شرع الله له الاستعانة به وحده فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر، فكأنه قال: لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك.

وأرشد النبي ﷺ إلى الاستعانة بالله فقال: «**استعن بالله، ولا تعجز**»(٢)، وقال ﷺ: «**وإذا استعنت؛ فاستعن بالله**»(٣)، وأمر موسى عليه السلام قومه بها عندما خافوا من فرعون. ﴿**ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ**﴾[الأعراف:١٢٨].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٢)، كتاب «القدر»/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم (٢٦٦٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٢) الاستعانة الشِرْكِيَّةِ الكُفْرِيّةِ:

وهي الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعانة بأصحاب القبور في قضاء الحوائج أو الاستعانة بالطفل الصغير الذي لا يميز ولا يعقل وكالاستعانة بالأحياء الغائبين لأن من استعان بهؤلاء فقد ظن أو اعتقد أن لهم قوة غيبية لا يقدر عليها سائر الناس وهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة والعياذ بالله.

ومن ذلك: استعانة المريدين بمشايخهم في رفع دعائهم إلى الله تعالى. قال شيخ الإسلام: «وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم لا ظاهرًا ولا باطنًا بهذه الوسائط والحجاب فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا»[١]. ومن أمثلة الاستعانة الشركية ما نقله البريلوي:

نادِ عليًّا مظهر العجائب ... تجده عونًا لك في النوائب

كلّ هَمٍّ وغَمٍّ سينجلي ... بولايتك يا علي يا علي[٢]

ويقول البريلوي: «إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور»[٣].

(٣) الاستعانة المباحة (الجائزة):

وهي الاستعانة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه، وهذا لا خلاف في جوازه عند أهل العلم بل هو في غاية الوضوح والظهور ومن أدلة ذلك طلب ذي القرنين من الذين اشتكوا إليه يأجوج ومأجوج الإعانة حتى يبني لهم السد ﴿قَالَ مَامَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[الكهف:٩٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٩).

(٢) «البريلوية» إحسان إلهي ظهير (٥٧).

(٣) المرجع السابق (٦٤).

ومن السنة قول النبي ﷺ: «**واللهُ في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**»(١)، وقوله ﷺ: «**ويعين الرّجل على دابته، فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة**»(٢).

ومن أقوال الصحابة في الاستعانة الجائزة قول حكيم بن حزام لما أخبره عبدالله بن الزبير عن دين على أبيه فاستكثره وظن أن ما خلّف الزبير لن يُوفيَ دينه الذي عليه فقال حكيم له: «ما أراكم تطيقون هذا فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي»(٣).

منزلة الاستعانة:

للاستعانة بالله منزلة عظيمة من الدين ومما يدل على عظمة منزلتها ما يلي:

١- **أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات**، وذلك لأن الله سبحانه لا يعبد إلا بمعونته(٤)، ولهذا كان النبي ﷺ يرشد أصحابه إذا أرسلهم للجهاد أن يستعينوا بالله على قتال المشركين كما في حديث بريدة رضي الله عنه، وفيه:

«فإذا هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»(٥).

بل كان النبي ﷺ يستعين بالله في جميع أموره، كما يقول في خطبه ﷺ: «**إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه**»(٦).

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، كتاب «الذكر»/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم، وعلى الذكر. رقم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ١٣٢)، كتاب «الجهاد»/ باب من أخذ بالركاب ونحوه. رقم (٢٩٨٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٢٨)، كتاب «فرض الخمس»/ باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميتًا مع النبي ﷺ، وولاة الأمر. رقم (٣١٢٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٦).

(٥) مسلم (٣/ ١٣٥٧)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام. رقم (١٧٣١).

(٦) مسلم (٢/ ٥٩٣)، كتاب «الجمعة»/ باب تخفيف الصلاة والخطبة. رقم (٨٦٨).

ومن دعائه ﷺ: «**ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ**»(١).

وربَّى أصحابه على الاستعانة بالله، ومن ذلك ما قاله لمعاذ رضي الله عنه: «**يا مُعاذ، والله إنِّي لأُحِبُّك فلا تدعنَّ في دُبُر كلّ صلاةٍ مكتوبةٍ أن تقول: اللهمَّ أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(٢).

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قنوته: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك...»(٣). وبمثله عن علي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب(٤)، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم(٥).

فعباد الله الصالحون الذين جعلوا عبادة الله وطاعته غاية مرادهم علموا أنه لا يمكنهم ذلك إلا بمعونة الله تعالى فسألوا الله العون على ذلك، قال شيخ الإسلام: «تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته تعالى ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]»(٦).

«فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاة الله وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها»(٧).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٣١٤)، قال ابن حجر: «إسناده صحيح». «تلخيص الحبير» (٢/ ٢٥).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٣١٤).

(٥) المرجع السابق (٢/ ٣٠١).

(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨).

(٧) المرجع السابق.

«ومن المعلوم أن العبد لا بُدَّ له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية فأشرف غاياته التي لا غاية له أجلَّ منها عبادةُ ربه والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة فهذه أشرف الغايات وتلك أشرف الوسائل»(١).

٢- أن الاستعانة بالله تدفع الكبر والعجب والشرك:

من أعظم الأمراض التي تعرض للعُبّاد وغيرهم مرض العجب، فيشرك الإنسان بنفسه فيستكبر «والكبر مستلزم للشرك»(٢) ولا دفع لها إلا بتحقيق الاستعانة بالله وإظهار الافتقار والحاجة إليه في جميع الأمور، كما قال سهل بن عبدالله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار»(٣).

قال شيخ الإسلام: «وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر. فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج من الإعجاب»(٤).

٣- أن من لم يستعن بالله خذل:

من استعان بغير الله خذله أحوج ما يكون إليه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢] أي مخذولًا لا ناصر لك.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٩).

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

وذلك أنه يُوكَلُ إلى من استعان به من الخلق الضعفاء المحتاجين إلى الإعانة، وقد كتب الحسن رحمه الله إلى عمر بن عبدالعزيز: «لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه»(١).

فكل من لم يحقق الاستعانة بالله: «مخذولون فيما يقصدونه، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة والإعجاب أخرى، فإن لم يحصل له مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فَيُخْذَلُ»(٢).

٤- أن الاستعانة بالله هي السبيل الوحيد للتغلب على المصائب والملمات:

قال يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

وقال موسى عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[الأعراف:١٢٨].

ولما آذى المشركون النبي ﷺ ولم يقبلوا دعوته استعان بالله وحده، حيث قال الله عنه إنه قال: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١١٢].

وربَّى النبي ﷺ أمته على ذلك فقال: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضّعيف وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ؛ فلا تقل: لو أنّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر اللهُ وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتحُ عمل الشَّيطان**»(٣).

ومن ثم انغرست الاستعانة بالله وحده في قلوب السلف عند الملمات والمصائب.

---

(١) «نور الاقتباس» (٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٥٢)، كتاب «القدر»/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم (٢٦٦٤).

فعثمان رضي الله عنه لما بشر بالجنة على بلوى تصيبه حمد الله، ثم قال: «الله المستعان»[(١)].

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما رميت بالزنا، قالت: «والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[يوسف:١٨]»[(٢)].

والزبير رضي الله عنه لما أحسَّ بالوفاة أوصى ابنه أَنْ يقضي دينه وكان دينًا كثيرًا وقال له: إِنْ عجزت فاستعن بمولاي، فقال له: يا أبت من مولاك؟ قال: الله عز وجل، قال: فما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه»[(٣)].

٥- أن الاستعانة بالله هي السبيل الوحيد للعصمة من الذنوب والخطيئات:

ويوضحه ويدل عليه عصمة الله ليوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز مع وجود المغريات الكثيرة من جمالها وكونها في بيت الملك وإغلاق الأبواب وكونه شابًا عزبًا غريبًا فلما استعان بالله صرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

لماذا الاستعانة بالله وحده؟

أجاب عن هذا التساؤل ابن رجب فقال:

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق فَلِأَنَّ العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن المعنى لا تَحَوُّلَ للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٣)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب مناقب عمر بن الخطاب. رقم (٣٦٩٣).
(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٥٤)، كتاب «التفسير»/ باب ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. رقم (٤٧٥٠).
(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٢٧)، كتاب «فرض الخمس»/ باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميتًا. رقم (٣١٢٩).

المحظورات والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ يوم القيامة ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»[1].

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وَكَلَهُ الله إلى من استعان به فصار مخذولًا[2].

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧٢-٥٧٣).

والاستعاذة.

....

الاستعاذة: الألف والسين والتاء دالة على الطلب فقوله: أستعيذ بالله أي أطلب العياذ به كما إذا قلت: أستخير الله أي أطلب خيرته.

ولفظ عاذ وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا ويسمى ملجأً ومنه الحديث «**فمن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به**»(١)(٢).

فيكون معناها لغة: ألتجئ وأعتصم وأتحرز(٣).

اصطلاحًا: الالتجاء إلى الله والاعتصام به من شر كل ذي شر.

فائدة الاستعاذة: «إظهار العبد فاقته لربه وتضرعه إليه»(٤).

أصل الاستعاذة:

في أصلها قولان:

١- أنه مأخوذ من السِّتْر.

٢- أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معًا فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٩-٣٠) كتاب «الفتن»/ باب تكون فتنة القاعد خير فيها من القائم. رقم (٧٠٨١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

(٣) انظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٩٨)، «المفردات» (٣٥٥).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٤٩).

معتصم به، فقد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفًا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه وفرّ إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ إليه(١).

وتنقسم إلى قسمين:

١- استعاذة عبادية، وضابطها: «الاستعاذة المطلقة التي يستقل بها المعيذ».

٢- استعاذة مباحة، وضابطها: «ما كان من باب فعل الأسباب»(٢).

أنواع الاستعاذة:

الاستعاذة ثلاثة أنواع هي:

الأول: الاستعاذة العبادية التوحيدّية الإيمانيّة:

وهي الاستعاذة بالله وحده من شرِّ كل ذي شر.

وهي الاستعاذة التي أمر الله بها بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل:٩٨]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[فصلت:٣٦]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨].

والاستعاذة بالله هي حال رسل الله وعباده الصالحين:

فهذا نوح عليه السلام استعاذ بالله وحده لما نهاه أن يَدْعُوَ لابنه الكافر فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[هود:٤٧].

وموسى عليه السلام استعاذ بالله من الجهل: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) هذا التقسيم يصح في الاستغاثة.

[البقرة:٦٧]، ولما خشي من فرعون وقومه استعاذ بالله والتجأ إليه واعتصم به من شرهم فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾[الدخان:٢٠].

ومريم ابنة عمران عند ما جاء إليها جبريل عليه السلام بصورة بشر خافت منه فاستعاذت بالله منه: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[مريم:١٨].

وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يخصه بالاستعاذة به سبحانه، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١] وشرعها لنا المصطفى ﷺ عند دخول المسجد فكان يقول «**أعوذُ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشَّيطان الرجيم**»(١).

أو بصفة من صفاته كقوله ﷺ: «**أعوذُ بكلمات الله التّامات من شرِّ ما خلق**»(٢).

«وقد نص الأئمة كأحمد وغيره أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله عز وجل غير مخلوق»(٣).

وقوله ﷺ «**أعوذ بعزّة الله وقدرته من شرِّ ما أجد وأحاذر**»(٤).

قال شيخ الإسلام: «والمستعيذ يطلب مَنْعَ المستعاذ منه أو رَفْعَهُ، فإذا كان مخوفًا طلب

---

(١) أبو داود (١/ ٣١٨)، كتاب «الصلاة»/ باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد. رقم (٤٦٦)، قال النووي: «حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد». «الأذكار» (٣١) رقم (٨٢)، وصححه الألباني في تحقيقه «الكلم الطيب» لشيخ الإسلام (٥١) رقم (٦٥).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٨٠)، كتاب «الذكر والدعاء»/ باب التعوذ من سوء القضاء. رقم (٢٧٠٨).

(٣) «تلخيص الاستغاثة» (٢٨٧) قوله: «وهذا مما استدلوا به» يقصد حديث: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق».

(٤) مسلم (٤/ ١٧٢٨)، كتاب «السلام»/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء. رقم (٢٢٠٢).

منعه، كقوله ﷺ: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر**»(١).

وإن كان حاضرًا طلب رفعه كقوله في الحديث الصحيح: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»، فتعوذ بالله من شر الموجود، وشر المحاذر»(٢).

وقال ابن القيم: «تعوّذ بالله من شر الموجود طالبًا رفعه ودفعه كقوله: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾[آل عمران:١٩٣] وشر المحاذَر الذي لم يقع طالبًا عدم وقوعه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[آل عمران:١٩٤]»(٣).

وقوله ﷺ: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك**»(٤). وهذا النوع «وهو الاستعاذة الكاملة التي يستقل بها المغيث»(٥)، لا يجوز أن يطلب إلا من الله.

٢- الاستعاذة الشركية:

وهي الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعاذة بالأموات والغائبين، وهي استعاذة ضارة في الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]، طلبوا الأمن في الدنيا فأصيبوا بالرهق وأما في الآخرة فصاحبها مخلد في النار أبد الآبدين.

وهذا النوع من الاستعاذة الشركية ممنوع بالنص والإجماع، قال شيخ الإسلام: «نُفِيَ عنه -أي النبي ﷺ- وعن غيره من الأنبياء والمؤمنين وهو أنهم لا يُطْلَبُ منهم بعد الموت شيء ولا يطلب منهم في الغيبة شيء لا بلفظ الاستغاثة، ولا الاستعاذة، ولا غير ذلك، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذا حكم ثابت بالنص وإجماع علماء الأمة مع

---

(١) مسلم (١/ ٤١٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب ما يستعاذ منه في الصلاة. رقم (٥٨٨).

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٨).

(٤) مسلم (١/ ٣٥٢)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقال في الركوع والسجود. رقم (٤٨٦).

(٥) «تلخيص الاستغاثة» (٣١٦).

دلالة العقل على ذلك»(١).

٣- الاستعاذة المباحة: وهي الاستعاذة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه:

وهذا النوع يختص بالعمل الظاهر، أما القلب فهو معتمد على الله وحده.

ويدل له قول النبي ﷺ: «**من استعاذ بالله، فأعيذوه**»(٢).

ويجب: اعتقاد أنها سَبَبٌ إن شاء الله أمضاها، وإن شاء منعها.

---

(١) «تلخيص الاستغاثة» (٣٦٩)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ٣٣١).

(٢) أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود (٢/ ٣١٠)، كتاب «الزكاة»/ باب عطية من سأل بالله. رقم (١٦٧٢)، والنسائي (٥/ ٨٢)، كتاب «الزكاة»/ باب من سأل بالله عز وجل، وقال النووي: «حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي بأسانيد الصحيحين». «رياض الصالحين» (٥٤٧-٥٤٨) رقم (١٧٣٢).

والاستغاثة.

....

الاستغاثة لغة: الغين والواو والثاء كلمة واحدة وهي الغوث من الإغاثة وهي الإغاثة والنصرة من الشدة.

قال الأزهري: الغياث ما أغاثك الله به ويقول الواقع في بلية أغثني أي فَرِّجْ عني[١].

واصطلاحًا: طلب الغوث وهو طلب كشف الشدة والتخليص منها[٢].

ومنه سميت صلاة الاستغاثة لأنها طلب كشف الجدب وإبداله بالخصب والنبات.

وكان من دعائه ﷺ فيها: «**اللهمَّ أغثنا، اللهمَّ أغثنا، اللهمَّ أغثنا**»[٣].

الفرق بين الدعاء والاستغاثة:

أنَّ الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩]. قال الحليمي: «الغياث هو المغيث وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ومعناه: المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم»[٤]. وأما الدعاء فيكون من المكروب وغيره فهو أعم من الاستغاثة فبينهما عموم وخصوص فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٨/ ١٥٨) مادة (غوث) و«معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٠٠).

(٢) انظر: «تلخيص الاستغاثة» (٢٨٧)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ٣٨٧)..

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠٧)، كتاب «الاستسقاء«/ باب الاستسقاء في خطبة الجمعة. رقم (١٠١٤)، مسلم (٢/ ٦١٢)، كتاب «صلاة الاستسقاء»/ باب الدعاء في الاستسقاء. رقم (٨٩٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١١).

أنواع الاستغاثة:

الاستغاثة ثلاثة أنواع:

١- الاستغاثة التوحيدية العبادية الإيمانية:

وهي التي لا تطلب إلا من الله تعالى وحده فقط، وضابطها: «الاستغاثة المطلقة التي يستقل بها المغيث»، فلا يجوز أن تطلب إلا منه سبحانه لأن الأمور كلها بيده، قال شيخ الإسلام: «فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب ولا نبي مرسل»(١).

وعلى هذا إجماع علماء المسلمين(٢).

«قال أبو عبدالله القرشي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون» وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوَّةً وحولًا وإلا فليس له من نفسه شيء قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾»(٣) [البقرة:١٠٢].

والمقصود بها الاستغاثة المطلقة الكاملة التي يستقل بها المغيث وهي التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.كإنزال المطر وغفران الذنوب، وإزالة المرض والانتصار على العدوّ، وهداية القلوب، وليست الإغاثة التي هي من باب فعل الأسباب(٤).

وقال الشوكاني: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستغاث إلا به كغفران الذنوب والهداية وإنزال المطر ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٧).

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٦)، و«الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٤ و٥٢٠).

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[القصص:٥٦]»[1].

ولأجل ذلك وبّخ سبحانه من يستغيث بغيره بصيغة الاستفهام، فقال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده وهل يكشف الضر والبلاء والنقمة إلا هو، فلماذا تستغيثون بغيره.

وحَصَرَ الاستغاثة به وحده، فجمع بين النفي والإثبات فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[يونس:١٠٧]، فأثبت لذاته كشف الضر، ونفاه عن غيره

والله قريب مجيب يغيث من استغاث به ومن أمثلة ذلك:

استغاثة النبي بربه في غزوة بدر لما رأى كثرة المشركين وكثرة عدتهم وعتادهم، وقلة المسلمين وعدتهم وعتادهم، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه[2]: «**اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللهمَّ آت ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:٩] فأمده الله بالملائكة.

---

(١) «الدر النضيد» (٤).

(٢) أي يستغيث بربه.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أَقْدِمْ حَيْزُوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفه وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صَدَقْت، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين»(١).

وكذلك استغاثة يونس عليه السلام لما التقمه الحوت، وغير ذلك.

وينبغي أن تكون الاستغاثة قبل نزول العذاب فإن العبد إذا خشي من عذاب الله بسبب ذنوبه وما اقترفت يداه ثم استغاث بالله وتاب إليه رفع عنه العذاب كما وقع لقوم يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٖ﴾[يونس:٩٨].

«لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فلما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخِّروا»(٢).

أما إذا وقع العذاب فلا تنفع الاستغاثة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾[المؤمنون:٦٤-٦٥].

فإن المنعمين بالدنيا إذا أصابهم عذابُ الله وبأسه ونقمته، يصرخون ويستغيثون

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٣)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. رقم (١٧٦٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦٦٨).

ولكنهم لا يجيرهم أحد مما حلَّ بهم سواء جأروا أو سكتوا إذْ لزم الأمر ووجب العذاب(١).

وكذلك إذا استغاثوا وهم في النار ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:٢٩].

٢- الاستغاثة المباحة:

وهي الاستغاثة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه، وضابطها: «ما كانت في الأسباب العادية، بحيث لا يستقل بها المغيث».

قال صنع الله الحلبي: «والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العاديّة من الأمور الحسّية في قتال أو إدراك عدوٍّ أو سبع ونحوه»(٢).

ولها وقتان: أحدهما: في الدنيا، والثاني: يوم القيامة.

أما في الدنيا فمن أدلته قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[القصص:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[الأنفال:٧٢].

لكن يجب عليك أن تعلم أن المستغاث به سبب «والنصر المطلق وهو خلق ما به يغلب العدو لا يقدر عليه إلا الله»(٣).

يوضحه أنه ﷺ في حياته، وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يتركون أحدًا يُشرك بهم في حضورهم بل ينهونهم عن ذلك ويعاقبونهم عليه فدل ذلك على أنهم

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٩٣٥).

(٢) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (٤٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١٣).

إذا أقروا أحدًا استغاث بهم في حياتهم فيما يقدرون عليه أنه جائز كما أغاث النبي ﷺ خزاعة.

وكما أجاب النبي ﷺ من طلب منه أن يستغيث للمسلمين لإزالة الكرب والشدة فاستسقى لهم النبي ﷺ فأغاثهم الله وأنزل المطر(١).

وأما في يوم القيامة فكذلك: عندما يضيق بالناس الموقف ويرغب الناس في إراحتهم منه يذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام ثم محمد ﷺ، فيذهب النبي ﷺ إلى ربه فإذا رآه خرّ ساجدًا ويحمده بمحامد يفتحها الله عليه لا يحسنها الآن فيقال له: «**ارفع محمد وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع**»(٢).

وعلى هذا أجمع المسلمون(٣).

قال الشوكاني: «ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يَقْدِرُ على الغَوْثِ فيه من الأمور ولا يحتاج مثل ذلك إلى استدلال فهو في غاية الوضوح»(٤).

٣- الاستغاثة الشركية الكفرية:

هي الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كهداية القلوب، وإنزال المطر، وإحياء الموتى، ومغفرة الذنوب ونحو ذلك من الأمور المعنوية أو يعتقدون التأثير منهم في قضاء حاجاتهم استقلالًا(٥).

---

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠١)، كتاب «الاستسقاء»/ باب الاستسقاء في المسجد الجامع. رقم (١٠١٣).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٩٢)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. رقم (٧٤١٠).

(٣) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٢٤٤).

(٤) «الدر النضيد» (٤).

(٥) «الرد على المستغيثين بغير الله» لابن عيسى (٦٤)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٤).

أو فيما لا يقدر عليه المستغاث به لكونه ميتًا أو غائبًا، ونحو ذلك، فلا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد المشايخ الغائبين ولا الميتين مثل أن يقول يا سيدي فلان أغثني وانصرني وادفع عني، أو أنا في حسبك، ونحو ذلك، بل كل هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله... وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الأوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عباد الأصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخاطبهم كما تخاطب الشياطين الكهان، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء حتى فعل ذلك ويقول أحدهم: هذا سِرُّ الشيخ وحاله وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به. وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيوخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان(١).

بل إن «من أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب»(٢).

بل إن الاستغاثة بالموتى أصلُ شرك العالم وذلك لأن الميت لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا عمَّن استغاث به(٣).

ولهذا لم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين

---

(١) انظر: «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٣٠٠-٣٠١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٤).

يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم[١].

وقال شيخ الإسلام عند ذكره أنواع الاستغاثة: (الرابع) استغاثة في تفريج الكربة، لكن لا يجوز ذلك من ميت ولا غائب ولا من حي حاضر إلا فيما يقدر عليه خاصة[٢].

وقال رحمه الله: «نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحدًا من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله»[٣].

وقال رحمه الله: «ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف تيقن قطعًا أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلًا، بل كانوا ينهون عن ذلك مَنْ كان يفعله من جهالهم»[٤].

«بل أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن طلب الحاجات من الأموات والغائبين والاستغاثة بهم أنه الشرك الأكبر»[٥].

ولذلك أبطلها الله بأنهم لا يملكون كشف الضر إذا وقع ولا تحويله، فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[الإسراء:٥٦].

وليست عندهم القدرة على رد ضر أراده الله، ولا كشفه، ولا إمساك رحمته عن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨٠-٨١)
(٢) «تلخيص الاستغاثة» (١٢٣).
(٣) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٦٢٩).
(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٠٠-٢٠١).
(٥) «الرد على المستغيثين بغير الله» لابن عيسى (٥٧).

عبـــاده، فقـــال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨].

وإن تعجب فعجب فعل المشركين، فإنهم مع علمهم التام أنه لا يكشف الكروب إلا الله، فيستغيثون به عندما تَدْلَهِمُّ الخطوب سريعًا ما ينكثون عهودهم، ويعودون إلى شركهم وكفرهم.

قـال تعـالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[النحل:٥٣-٥٤].

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ «أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به»[(١)].

ومن نماذج الاستغاثة الشركية استغاثة إبراهيم عبد الدامغ بالشيخ خوجلي وهو ميت في قبره، حيث يقول:

اليوم يا خوجلي يا غوث مَنْ ذُعِرا ... أبناؤك الغر من بين الورى أُسَرا
وقد عهدناك طودًا يستغاث به ... لدى الشدائد والأمر الذي عَسِرا
كم مرة صاح محزونٌ فكنت له ... في الحال خير مغيث عندما قُهِرا
وكم أتاك كئيب القلب في نُوَبِ ... أَعْيَت فجاء له النصر الذي انتصرا

ثم زاد فاستغاث بآخرين، ومما قال:

ألا إغاثة قطب الوقت تنجدهم ... ألا الإمامان أعني صحبه الوزرا
ألا الذين هم في العد أربعة ... أهل الولاية والسر الذي بهرا
ألا من البلا ألا تأتي إغاثتهم ... إلا من العشر سيف النصر قد شهرا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧٦٠).

ألا الجنيـد ألا الجـيلاني ينـصرهـم ألا الدسـوقـي ألا المتبـولي منـه قـرا
ألا الرفـاعي ألا المـشهور سيـدنـا أبو اللئام الذي كم فـك مـن أسـرا[1]

الفرق بين الاستعانة والاستغاثة:

(١) أن الاستعانة على أمر يريد أن يفعله، أما الاستغاثة على أمر يريد التخلص منه.

(٢) أن الاستعانة تكون في الشدة وغيرها، أما الاستغاثة فإنها لا تكون إلا في حال الشدة فقط.

=

(١) «تاريخ السلطنة السنارية» (١٠٧-١٠٩)، نقلًا عن «الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (١/ ٣١٩).

والذبح.

....

الذبح في اللغة: الشق.

وفي الاصطلاح: قطع الحلقوم من باطن عند النصيل وهو موضع الذبح من الحلق[١].

أنواع الذبح:

ينقسم الذبح إلى ثلاثة أقسام:

١- الذبح التوحيدي العبادي الإيماني:

وهو ما ذبح باسم الله تقربًا إلى الله عز وجل وابتغاء مرضاته، قال النبي ﷺ عندما أراد ذبح نسكه وأضحيته: «**اللهمَّ منك ولك، وعن محمد وأمته. بسم الله واللهُ أكبر**»[٢]، ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تَعَبَّدَ اللهُ العبادَ بها[٣]. قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر:٢].

وقد نقل الشنقيطي الإجماع على أن الذبح على وجه القربة عبادة[٤]، «لأن الذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له»[٥]. وضابط الذبح العبادي هو «ما كان الذبح فيه أصلًا

---

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٤٧٠-٤٧١). والنصيل هو مفْصِلُ ما بين العنق والرأس.

(٢) أبو داود (٣/ ٢٣١)، كتاب «الضحايا»/ باب ما يستحب من الضحايا. رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣)، كتاب «الأضاحي»/ باب أضاحي رسول الله ﷺ. رقم (٣١٢١)، والدارمي (١/ ٥٣٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب السنة في الأضحية. رقم (١٩٤٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٨٥).

(٣) «شرح الصدور» للشوكاني (١١) ضمن الرسائل السلفية.

(٤) «دفع إيهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان» (١٠/ ١٠٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٨٤).

لا تبعًا». أي المقصود به ذات الذبح، وليس أكل اللحم، فلولا أنها عقيقة ما ذبحها.

وأنواع الذبائح التي هي قربة لله وعبادة ثلاثةٌ «الهدي والأضحية والعقيقة»[1] ويزاد رابع وهو «الفدية».

ويوضح ابن القيم أن التقرب إليه بالهدايا وإشعارها إظهار للتوحيد وتقرب إلى رب العبيد فيقول: «ولو لم يكن في حكمة الإشعار إلا تعظيم شعائر الله وإظهارها وعلم الناس بأن هذه قرابين الله عز وجل تساق إلى بيته تذبح له ويتقرب بها إليه عند بيته كما يتقرب إليه بالصلاة إلى بيته عكس ما عليه أعداؤه المشركون الذين يذبحون لأربابهم ويصلون لها فشرع لأوليائه وأهل توحيده أن يكون نسكهم وصلاتهم لله وحده وأن يظهروا شعائر توحيده غاية الإظهار ليعلو دينه على كل دين»[2].

٢- الذبح الشركي الكفري:

وهو الذبح باسم الله تقربًا لغير الله تعالى، أو الذبح بغير اسم الله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[المائدة:٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما أُهِلَّ للطواغيت كلِّها»[3]، وقال مجاهد: «ما ذبح لغير الله»[4] وبمثله قال عطاء[5]، وقال الربيع: «ما ذكر عليه غير اسم الله»[6]، وقال الزهري: «الإهلال أن يقول باسم المسيح»[7].

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣١٢).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٣٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٨٣).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «جامع البيان» (٢/ ٨٦).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٨٥).

(٧) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٦٥).

قال ابن عطية: «يعني ما ذبح لغير الله تعالى وقصد به صنم أم بشر من الناس كما كانت العرب تفعل وكذلك النصارى وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به فذلك إهلاله»(١).

قال أحمد: «أكره كُلَّ ما ذبح لغير الله والكنائس إذا ذبح لها.. وإذا ذبح يريد به غير الله فلا نأكله، وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه»(٢).

وقال الأوزاعي: «سألت ميمونًا -ميمون بن مهران- عما ذبحت النصارى لأعيادهم وكنائسهم فكره أكله»، وقال أحمد بن حنبل ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾: على الأصنام وقال: «كل شيء ذبح على الأصنام لا يؤكل»، قال حنبل: سمعت أبا عبدالله قال: «لا يؤكل لأنه أهل لغير الله به»(٣).

وقال ابن أبي موسى: «ويجتنب أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ولا يؤكل ما ذبح للزّهرة»(٤).

وقال الشافعي: «وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم أو للكعبة ونحو ذلك فكل هذا حرام ولا تحل الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا، نص عليه الشافعيُّ واتفق عليه أصحابنا»(٥).

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥٠).

(٢) «أحكام أهل الملل» (٣٧٢).

(٣) المرجع السابق (٣٧١-٣٧٢).

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦١) ففيه زيادة بيان.

(٥) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١).

والكراهة عند المتقدمين تطلق ويراد بها التحريم[١].

«فالمسلم لو ذبح لغير الله أو ذبح باسم غير الله لم يبح وإن كان يكفر بذلك»[٢] فتكون ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يشمل ما قصد به التقرب إلى غير الله[٣]. يعني ذبح لغير الله وما ذبح باسم غير الله.

و﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[المائدة:٣] والنصب أصنام كانوا يذبحون ويهلون عليها كذا قاله ابن عباس. وقال قتادة: النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك[٤].

قال الحسن: «هو بمنزلة ما ذبح لغير الله»[٥].

وقال أحمد بن حنبل: «كل شيء ذبح على الأصنام لا يؤكل»[٦].

قال ابن كثير: «فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب فهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله»[٧].

ومنه الذبح عند القبور:

وهذه من مسائل الجاهلية فقد كانوا يذبحون عندها فأبطلها المصطفى ﷺ حيث

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» لابن تيمية (٤/ ٢٥٢). وقد أطال ابن القيم في «إعلام الموقعين» في بيان هذه الكراهة وأن المقصود بها عندهم هو التحريم وذكر الأمثلة على ذلك (١/ ٣٩-٤١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٠).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٦٨).

(٤) «جامع البيان» (٦/ ٤٨-٤٩).

(٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨) وقال: رواه ابن أبي شيبة.

(٦) «أحكام أهل الملل» (٣٧٢).

(٧) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٢).

قال: «**لا عقر في الإسلام**»، قال عبدالرزاق: «كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة»(١).

والنحر عند القبور عبادة لها قال الشوكاني: «ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبَّد الله العباد بها كالهدايا والفدايا والضحايا فالمتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشرِّ به وهذه عبادة لا شك فيها وكفاك من شرٍّ سماعه»(٢).

ويبطل ذلك الزعم الكاذب القائل بأنهم لا يقصدون العبادة فيقول: «ومن قال إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر عليهم عبادتهم فقل له: فلأي مقتض صنعت هذا الصنع؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمرٍ بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك، فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عروض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فأنت مصاب بعقلك، وهكذا إن كنت تنحر لله وتنذر لله فَلِأَيِّ معنىً جعلت ذلك وحملته إلى قبره فإنَّ الفقراء على ظهر البسيطة في كلِّ بقعة من بقاع الأرض، وفِعْلُك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قصدته أو أمر أردته وإلا فأنت مجنون»(٣).

ويزيد هذا البيان بيانًا وإيضاحًا الصنعانيُّ فيقول: «فإن قال إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه فقل: إن كان النحر لله فلأيِّ شيءٍ قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم، فقل له هذا النحر لغير الله تعالى، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس

---

(١) أحمد (٣/ ١٩٧)، وأبو داود (٣/ ٥٥٠)، كتاب «الجنائز»/ باب كراهية الذبح عند القبر. رقم (٣٢٢٢) واللفظ له، قال ابن مفلح: «رواه أحمد بإسناد صحيح». «المبدع» (٢/ ٢٨٣)، وصححه الشوكاني في «شرح الصدور» (١١) ضمن الرسائل السلفية، والألباني في «صحيح الجامع» (٦/ ١٩٩) رقم (٧٤١١)، وابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٩/ ٣٩٤).

(٢) «شرح الصدور» (١١) ضمن الرسائل السلفية.

(٣) «الدر النضيد» (٢١) ضمن الرسائل السلفية.

الداخلين؟ أنت تعلم يقينًا أنك ما أردت ذلك أصلًا ولا أردت إلا الأول ولا خرجت من بيتك إلا قصدًا له»(١).

ومن ذلك ما رواه الجبرتي حيث قال: «حضر حسين باشا القبطان من الجيزة، ودخل المدينة وتوجه إلى المشهد الحسينيّ، فزاره وذبح به خمس جواميس وسبعة كباش، واقتسمها خَدَمة الضريح»(٢).

ومثله الذبح للجن، والذبح لاستقبال السلطان:

وذلك أن يمسك بالذبيحة فإذا وصل السلطان ذبحها في مقدمه وأهرق دمها لمقدمه، فهذا مما أُهِلَّ به لغير الله(٣) لما في ذلك من تعظيمه بالذبح.

وكذلك معاقرة الأعراب: وهي أن يتبارى الرجلان ويتفاخرا في عقر الإبل ويتكاثرا في ذلك فأيهما يعقر أكثر من صاحبه تكون له الغلبة(٤) فهذه الصورة كرهها ابن عباس ولما سئل عنها قال: «إني أخاف أن تكون مما أهل لغير الله به»(٥).

أما علي بن أبي طالب فقد جزم بتحريمها وأنها مما أهل به لغير الله، وذلك أن سحيم بن وثيل الشاعر نَافَرَ غالب بن صعصعة أبا الفرزدق الشاعر بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء، فلما وردت الإبل الماء قاما إليها بأسيافهما فجعلا ينسفان عراقيبها. فخرج الناس على الحُمرات والبغال يريدون الحمل - أي حمل اللحم- وعلي رضي الله عنه بالكوفة فخرج على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي:

---

(١) «تطهير الاعتقاد» (ص٣٣).

(٢) «عجائب الآثار» (٢/ ٤٧٩).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١)، وانظر: «فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٠٨)، و«الدين الخالص» (٢/ ٢٥٤).

(٤) انظر: «معالم السنن» حاشية أبي داود (٣/ ٢٤٦).

(٥) «تفسير ابن أبي شيبة» نقلًا عن «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦).

«يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها فإنها أهل بها لغير الله»[(١)].

قال شيخ الإسلام بعد ذكره هذين الخبرين: «فهؤلاء الصحابة قد فسروا ما قصد بذبحه غير الله داخلًا فيما أهل به لغير الله»[(٢)].

وقال ابن عطية المالكي عندما ذكر أثر عليٍّ رضي الله عنه: «ألا ترى أن عليّ بن أبي طالب راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق فقال: إنها مما أهل به لغير الله فتركها الناس»[(٣)]. ولذلك منع مالك أكل ما ذبحه اليهود والنصارى في يوم عيدهم. أو لأنصابهم كما قال عند قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[المائدة:٥]: «تؤكل ذبائحهم المطلقة إلا ما ذبحوا يوم عيدهم لأنصابهم»[(٤)].

قال ابن عبدالبر: «وكره مالك ما صنعه الكفار لأعيادهم من الطعام وخشي أن يكون مما أهل به لغير الله»[(٥)].

ولما سئل الحسن عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرسًا فذبحت جزورًا. قال الحسن: «لا يحل أكلها فإنها إنما ذبحت للصنم». ذكره ابن عطية، ثم قال: «فأنكر أن يذبح لغير الله وجعله شركًا»[(٦)].

ومن ذلك ما ينحر لأجل إقامة البدع ومن ذلك ما ينحر لأجل أكبر وليمة في الشرق الأوسط ونحو ذلك.

---

(١) رواه أبو إسحاق بن دحيم في «تفسيره» نقلًا عن «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧-٦٨) وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨).

(٣) «المحرر الوجيز«(٢/ ٧٠).

(٤) «أحكام القرآن» (٢/ ٥٥٤).

(٥) «الكافي» (١/ ٣٧٨).

(٦) «أخبار الحسن» نقلًا عن «المحرر الوجيز» (٢/ ٧٠).

بل ذهب الإمام مالك أبعد من ذلك فمنع من ذكر الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح معللًا: «أن تلك الذبيحة التي يصلى على النبي ﷺ عندها مما أهل به لغير الله»(١).

ويعلل ابن القاسم المنع من الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموضع فيقول: «وذلك موضع لا يذكر هنا إلا اسم الله وحده»(٢). وعلى هذا درج العلماء رحمهم الله كما قال القرطبي: «وكره العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح وقالوا: لا يذكر هنا إلا الله وحده»(٣).

ويجب الحذر من الذبح بمكان أعياد الكفار وأوثانهم فهو معصية لله تعالى لا يجوز فعله، حتى ولو كان قد تُرك العيد، أو أُزيل الوثن، بدليل حديث ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ: أن ينحر إبلًا ببوانة فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة فقال النبي ﷺ: **«هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»**، قالوا: لا، قال: **«فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»**، قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: **«أوف بنذرك فإنه لا وفاء في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»**(٤).

٣- الذبح المباح:

وهو الذي لم يقصد بذبحه التقرب وإنما قصد به التوصل إلى أكل اللحم، وضابطه:

---

(١) «الحاوي» للماوردي (١٥/ ٩٦).

(٢) «المدونة» (٢/ ٦٦).

(٣) «المفهم» (٥/ ٣٦٣).

(٤) أبو داود (٣/ ٦٠٧)، كتاب «الأيمان»/ باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر. رقم (٣٣١٣)، وقال شيخ الإسلام: «وهذا الإسناد على شرط الصحيحين وإسناده كلهم ثقات مشاهير، وهو متصل بلا عنعنة». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٩٠)، وصحح إسناده ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٤/ ١٨٠) رقم (٢٠٧٠). والرجل هو كردم بن سفيان الثقفي كما ورد مصرحًا به في الرواية التي بعدها كما في «السنن». رقم (٣٣١٤).

«ما كان الذبح فيه تبعًا لا أصلًا».

كالذبح لأكل اللحم، أو لإكرام الضيف أو لهدية اللحم كما كان النبي ﷺ يذبح الشاة ويهديها إلى صواحب خديجة[1]. أو لوليمة العرس قال أنس: «ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، أَوْلَمَ بشاة»[2]، وقال ﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «**أَوْلِمْ ولو بشاة**»[3].

---

(١) البخاري (٥/ ٣٨)، كتاب «النكاح»/ باب تزويج النبي خديجة وفضلها. رقم (٣٨١٨)، ومسلم (٤/ ١٨٨٨)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب فضائل خديجة. رقم (٢٤٣٥).

(٢) البخاري (٧/ ٢٤)، كتاب «النكاح»/ باب الوليمة ولو بشاة. رقم (٥١٦٨).

(٣) البخاري (٧/ ٢٤)، كتاب «النكاح»/ باب الوليمة ولو بشاة. رقم (٥١٦٧)، ومسلم (٢/ ١٠٤٢)، كتاب «النكاح»/ باب الصداق. رقم (١٤٢٧).

والنذر.

....

النذر لغة: ما كان وعدًا على شرط[(١)].

وهو: إلزام المكلف نفسه بشيء ما «وهو الإيجاب».

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾[البقرة:٢٧٠] «أي أوجبتم على أنفسكم شيئًا من التطوع»[(٢)].

قال شمر وأبو سعيد الضرير: «إنما قيل له نذر لأنه نُذِرَ فيه، أي أوجب من قولك: نذرت على نفسي أي أوجبت[(٣)].

وفي الاصطلاح: هو إيجاب المكلف على نفسه عبادة ليست واجبة بأصل الشرع.

أقسام النذر:

ينقسم النذر إلى ثلاثة أقسام هي:

١- النذر التوحيدي العباديّ:

وهو النذر لله تعالى نذر الطاعة، فمن نذر نذر طاعة وجب عليه الوفاء به لقوله ﷺ: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فلاَ يَعْصه»**[(٤)].

«وذلك لأن الناذر لله وحده قد علّق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢٣) و«القاموس المحيط» (٦١٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢٢).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢٠).

(٤) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٨١)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب النذر في الطاعة. رقم (٦٦٩٦).

ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله»[(١)].

وقد مدح الله الموفين به فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧] وكل أمر مدح الشارع من فعله فهو عبادة فمن جعله لله تعالى فقد فعل قربة يرفعه الله بها درجات.

وهو قسمان:

(أ) نذر مطلق لم يعلق بشرط وذلك يفعله من يريد إلزام نفسه بأمر يعمله كمن يقول: لله عليّ نذر أن أصوم أيام البيض، وكنذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام.

(ب) نذر معلق بشرط:

كمن يقول: إن شفى الله مريضي لأصومن ثلاثة أيام.

والوفاء به واجب بالكتاب والسنة والإجماع[(٢)].

٢- نذر المعصية:

ونذر المعصية لا يجوز الوفاء به لقوله ﷺ: «**ومن نذر أن يعصيه؛ فلا يعصه**» كمن نذر أن يصوم يوم العيد[(٣)].

٣- النذر الشركي:

وهو النذر لغير الله تعالى كالنذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم، فهو نَذْرُ شِرْكٍ ومعصية لله تعالى سواء كان النذر نفقة أو ذهبًا أو

---

(١) «قرة عيون الموحدين» (٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٣٦).

(٣) انظر: «البخاري مع الفتح» (١١/ ٥٩٠-٥٩١)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب من نذر أن يصوم أيامًا فوافق النحر أو الفطر. رقم (٦٧٠٥، ٦٧٠٦).

غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام[١] وقد اتفق العلماء على أن هذا النذر شرك لا يوفى به»[٢].

قال الشيخ ابن باز: «النذر لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة ومن اعتقد جواز النذر للمقبورين فاعتقاده هذا شرك أكبر مخرج من الملة يستتاب صاحبه ثلاثة أيام ويضيق عليه فإن تاب وإلا قتل»[٣].

وهؤلاء الذين ينذرون النذور الشركية إنما ينذرونها «لأنهم يعتقدون أنها باب الحوائج إلى الله وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ مصر ومن اعتقد هذا فهو كافر مشرك يجب قتله»[٤]، وقال الصنعاني مبيناً هذه الحقيقة: «قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا معتقدًا لجلب نفع أكثر منه أو دفع ضرر، فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك وهذا اعتقاد باطل ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهمًا»[٥].

ومن نماذج النذر الشركي: ما ينذره بعض الناس للبدوي، قال محمود أبو ريّة: «لما فتح صندوق النذور القائم بجوار أحمد البدوي وجد فيه خمسون ومائة ألف جنيه، وما يقدر بثلاثمائة جنيه من الحلي الذهبية، ووجد فيه التماسات يرغب فيها أصحابها من البدوي أن ينظرهم إلى ميسرة فيما له عليهم من دين»[٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨٦).

(٣) «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ١١٠).

(٤) «مجموعة الرسائل والمسائل» (١/ ٦٨).

(٥) «تطهير الاعتقاد» (٣٣).

(٦) «البدوي» لمحمود أبو ريّة (٢٢٤).

وفي ذلك يقول حافظ إبراهيم:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
للسيد البدوي مُلْكٌ دخله ... خمسون ألفًا والحظوظ هبات
من لي بِحَظِّ النائمين بحفْرَةٍ ... قامت على أرجائها الصلوات
يسعى الإمام لها ويجري حولها ... بَحْرُ النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تقضى بها الحاجات(١)

لماذا نهى النبي ﷺ عن النذر؟

نهي عن النذر، وإن كان طاعة؛ لأمور:

١- أن النذر لا فائدة فيه إلا التزام ما التزمه وقد لا يرضى به فيبقى آثمًا، وإذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيرًا له.

٢- أن النذر ليس سببًا في حصول المطلوب ودفع المرهوب حتى وإن كان نذر طاعة، وإنما الخير الذي يحصل للناذر يوافقه موافقة فقط. بدليل قوله ﷺ: «**إنَّ النذر لا يُقرّب منْ ابن آدمَ شيئًا لم يكن الله قدّرهُ له، ولكنَّ النذر يُوافقُ القدر فيخرجُ بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يُريد أنْ يخرج**»(٢).

٣- أن في النذر زيادة تكليف على الناذر مع أنه كان في حِلٍّ منه.

٤- ندم كثير منهم حيث لا يستطيع الوفاء بنذره فيذهب يبحث عن مخرج.

٥- أن في هذا دليل على ثِقَلِ الطاعة عليه فليحذر أن يكون فيه شبه من المنافقين.

٦- أن النذر المقيد فيه نوعُ مشارطة مع الله، وهذا فيه سوء أدب مع الله تعالى.

---

(١) المرجع السابق (١٩)، ولك أن تلاحظ الفرق بين مبلغ النذور؛ لأن السنوات مختلفة.

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٧٦)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الوفاء بالنذر. رقم (٦٦٩٤)، ومسلم (٣/ ١٢٦٢)، كتاب «النذر»/ باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا. رقم (١٦٤٠) واللفظ له.

٧- أن الناذر يقصد بالنذر تحصيل مطلبه، والله لا يعطي العبد ويقضي حاجته بمجرد ذلك النذر وإنما يعطيه ليبتليه أيشكر أم يكفر.

قال شيخ الإسلام: «فمن ظن أن حاجته إنما قضيت بالنذر فقد كذب على الله ورسوله»(١).

فإذا كان نَذْرُ الطاعة لم يجعله الله سببًا لإدراك الحاجة فكيف يكون نذر المعصية سببًا لإدراك الحاجة وهو محرم أوله لا يجوز الوفاء به(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣١٤).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٣٢ و٢٦٨) و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣١٤ و١٠/ ٤٢٠).

وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى. والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]. **فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر.**

....

وفي قوله: وغير ذلك من أنواع العبادة: بيان أنه لم يقصد حصر أنواع العبادة وإنما جاء بهذه الأنواع لأمرين:

١- التمثيل لا الحصر.

٢- أن هذه الأنواع هي التي يكثر الخلل فيها، فإذا صلحت كان غيرها إلى الصلاح أقرب.

التي أمر الله بها: الأمر هو الطلب على سبيل الإلزام والإيجاب أو الاستحباب، وقيدها بالأمر لأن العبادات توقيفية. فما لم يرد فيه أمر فليس لأحد أن يتعبد لله به.

قوله: كلها لله تعالى:

أي: جميعها يجب صرفها لله تعالى وحده لا شريك له، فلا يصلح أن تصرف لأحدٍ غيره مهما علت رتبته وارتفع شأنه ولذلك أكد هذا المعنى بقوله: «كلها».

واستدلال المؤلف بهذه الآية لبيان أمرين مهمين هما:

١- تخصيص الله وحده بالعبادة، حيث قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾.

٢- النهي عن ضده وهو دعاء غيره معه حيث قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

لا: ناهية والنهي يقتضي التحريم والمنع.

وأحدًا: نكرة في سياق النهي فتشمل كل شيء غير الله تعالى.

والقاعدة تقول: «**إذا وردت لفظة أحدٍ أو شيءٍ في سياق النهي أو النفي أفادت العموم**».

من: شرطية.

صرف: فعل الشرط.

صرف: الصرف ردُّ الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره[١].

وقيل: التقلّبُ والحيلة قال الليث تصريف الرياح: أي صرفها من جهة إلى جهة[٢].

منها: الضمير يعود إلى العبادات المذكورة قبل ذلك، كصرف الدعاء أو التوكل أو غيرها من العبادات لغير الله.

قوله: فهو مشرك كافر

الشرك في اللغة: هو المخالطة بين شيئين. يقال: شَرِكَه في الأمر يَشْرُكُهُ إذا دخل معه فيه[٣]. فالشرك ضد التوحيد.

وفي الاصطلاح: صرف شيء مما يختص الله به لغيره سواء في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

وأما الكفر: فهو السَّتْرُ والتغطية[٤].

«قال الليث: سمي الكافر كافرًا لأن الكفر غطى قلبَه كُلَّه، وقال: الكفر نقيض الإيمان آمنًّا بالله وكفرنا بالطاغوت»[٥].

---

(١) «المفردات» (٢٨٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٦١).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٧).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٩).

(٥) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٣ و١٩٦).

وفي الاصطلاح: عدم قبول الحق والإيمان به[١].

وينقسم الكفر إلى قسمين:

(١) أكبر وهو الكفر المخرج من الملّة.

(٢) أصغر وهو ما لم يخرج من الملّة.

والكفر الأكبر أنواع، هي:

١- **كفر الإنكار**: أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ولا يعترف به[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[البقرة:٦].

والإنكار ضد العرفان، يقال أنكرت كذا ونَكَرْت وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾[هود:٧٠] وقد يستعمل ذلك فيما ينكر باللسان وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب[٣].

فمن أنكر أصلًا من أصول الدين أو حُكْمًا من أحكامه أو خبرًا من أخباره المعلومة من الدين بالضرورة كفر.

كمن أنكر ألوهية الله تعالى أو اسمًا من أسمائه أو أنكر جبريل أو رسالة محمد ﷺ أو أنكر صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ونحو ذلك.

٢- **كفر الإباء والعناد**: وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل[٤].

---

(١) قال شيخ الإسلام: «والكفر عدم الإيمان، باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أو لم يعتقد شيئًا ولم يتكلم». «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٨٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، وتفسير السمعاني (١/ ٤٦).

(٣) «المفردات» (٥٠٧).

(٤) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤) ولفظ الأزهري (كفر المعاندة)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، وتفسير=

فالكافر كفر عناد ممتنع عن الانقياد للحق الذي جاءت به الرسل مع معرفته صدق الرسول ﷺ وأن الحق هو الذي جاء به من عند الله تعالى.

وقد «أجمع العلماء على أن من دفع شيئًا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر»[١].

وهذا الكفر يَدُلُّ على وجود «خلل في الإيمان بالربوبية وخلل في الإيمان بالرسالة وخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته»[٢].

ومن أسبابه الحسد أو الكبر أو الخوف أو محبة دين الآباء والأجداد أو احتقار أهل الإيمان وغير ذلك من الأهواء الصارفة عن اتباع الرسل[٣].

فكفر إبليس سببه الكبر: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

وكفر اليهود سببه الحسد: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[البقرة:٨٩]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[البقرة:١٠٩]، وينبغي أن يُعْلَمَ أن اليهود والنصارى كلهم كفار ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[البقرة:١٠٥] «فـ(مِنْ) هنا لبيان الجنس فيصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار»[٤].

= السمعاني (١/ ٤٦).

وقال ابن الأثير عند تعداده أنواع الكفر: «كفر عناد وهو أن يعترف بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به حسدًا وبغيًا ككفر أبي جهل وأضرابه» «النهاية» (٤/ ١٨٦).

(١) «التمهيد» (٤/ ٢٢٦).

(٢) «الصارم المسلول» (٥٢١-٥٢٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩١-١٩٤).

(٤) تفسير «القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٣٤٠).

وآخرون منعهم من الإيمان احتقار أهله كما أوضح الله حالهم بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[الشعراء:١١١].

أما أبو طالب فمنعه محبة دين الآباء وخشية المسبة. فمما قال عند موته:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سَمْحًا بذاك مبينًا[1]

«وهذا النوع هو الغالب على كفر أعداء الرسل»[2].

٣- كفر الجحود: أن يعرف بقلبه ولا يقرَّ بلسانه[3].

والمقصود بالمعرفة هنا استيقان القلب لصحة الرسالة فمن كتم الحقَّ مع العلم بصدقه فكفره كفر جحود. قال تعالى عن الجاحدين: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[النمل:١٤].

«﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: في ظاهر أمرهم، ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾: أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلۡمٗا﴾: أي ظلمًا من أنفسهم سجية ملعونة، و﴿وَعُلُوّٗا﴾: أي استكبارًا عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة»[4].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣] فإنهم لا يكذبونك: أي لا يعتقدون كذبك.

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٠٠٦).

ومما ورد في سبب نزولها أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: «إنا لا نُكَذِّبك ولكن نكذِّبُ بما جئت به»[١].

فتبين بذلك أنهم يعلمون صدقه ولكنهم جحدوا ذلك حبًا للزعامة والرياسة، وقد **أجمع العلماء على كفر الجاحد**[٢] سواء جحد جميع الرسالة أو بعضها مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٤- **كفر النفاق**: أن يكفر بقلبه ويقرَّ بلسانه[٣].

قال الإمام أحمد: «النفاق هو الكفر أن يكفر بالله ويعبد غيره ويظهر الإسلام في العلانية»[٤]، وقال علي بن المديني: «النفاق هو الكفر: أن يكفر بالله عز وجل ويعبد غيره في السر، ويظهر الإيمان في العلانية»[٥]، وبمثله قال البربهاري[٦] وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٨].

«أجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق وأن هذه الصفة صفتهم»[٧].

وقال الحسن البصري: «كانوا يقولون: من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية»[٨].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٢٨٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٣٠).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤) و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، و«تفسير السمعاني» (١/ ٤٦).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٢)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٥) و(١/ ٣١١).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٩).

(٦) «شرح السنة» (٣٠).

(٧) «جامع البيان» (١/ ١١٦).

(٨) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٦٩٠).

وبيّن الله واقعهم لرسوله ﷺ فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون:١] «أي والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد إنك لرسولُ الله وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك»(١).

فكفر النفاق أغلظ أنواع الْكُفْرِ وذلك لأنهم وصل إليهم من معرفة الدين وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة وسبب وصوله إليهم أنهم خالطوا المسلمين وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء «فالمنافق أبصر ثم عمي وعرف ثم تجاهل، وأَقَرَّ ثم أنكر وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفرًا وأخبث قلبًا وأعتى على الله ورسوله فاستحق الدرك الأسفل من النار»(٢).

٥- **كفر التكذيب**: هو اعتقاد كذب الرسول ﷺ فيما أخبر به(٣).

والتكذيب يقابله التصديق، فإذا انتفى تصديق القلب كان الكفر كفر تكذيب قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[العنكبوت:٦٨].

«والتكذيب أَخَصُّ من الكفر، فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر وليس كل كافر مكذبًا»(٤).

قال ابن بطة: «فكل من ترك شيئًا من الفرائض التي فرضها الله ﷻ في كتابه أو أكدها رسول الله ﷺ في سنته على سبيل الجحود لها والتكذيب بها فهو كافر بيّن الكفر، لا يشك

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ١٠٦).

(٢) «طريق الهجرتين» (٤٠٣-٤٠٤).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٧٩).

في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر»[١].

وهذا أمر مُجمع عليه عند أهل العلم[٢]. وصار التكذيب كفرًا لأنه إبطال لدين الله تعالى.

٦- **كفر الشكّ**: الشكّ هو التردد وعدم الجزم بصدقه ولا بكذبه. كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا بكذبه ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:٤٥].

«﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته وعقابه أهل معاصيه ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ في شكهم متحيرون وفي ظلمة الحيرة مترددون لا يعرفون حقًا من باطل»[٤].

وصاحب الجنة كفر بمجرد شكه في البعث كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٥-٣٧].

وكُفْرُ الشاكِّ في أمرٍ من أمور الدين المعلومة بالضرورة أمر مجمع عليه عند أهل العلم، بل أجمعوا على كفر من شك في كفر الكافرين من يهود ونصارى ومشركين[٥].

---

(١) «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٦٤).

(٢) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ١٠٧٣ و١٠٧٦).

(٣) «الضياء الشارق» لسليمان بن سحمان (٣٧٤).

(٤) «جامع البيان» (١٠/ ١٤٣).

(٥) «الشفاء» (٢/ ١٠٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٦٨).

٧- **كفر الإعراض**: الإعراضُ هو الصدود والتولي التام عن النظر في دين الرسول ﷺ.

قال تعالى واصفًا الكفار ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾[الأحقاف:٣] أعرضوا عن النُّذُر، فلا يريدون العلم ولا الإيمان.

والمعرضون لا أَظْلَمَ منهم، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾[الكهف:٥٧].

أي: «فأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناساها ولم يصغ لها ولا ألقى لها بالًا»(١).

وصفة الإعراض «أن يُعْرِضَ بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ «والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك(٢)»(٣).

وضابط الإعراض المكفر «هو الإعراض عن تعلم الأصل الذي يدخل به الإنسان في الإسلام لا ترك الواجبات والمستحبات»(٤).

٨- **كفر السب والاستهزاء:**

السب: هو الشتم الوجيع(٥). وهو الوصف بما يقتضي النقص. وضابطه «ما عده أهل العرف سبًا وانتقاصًا أو عيبًا أو طعنًا ونحو ذلك فهو من السب»(٦). قال تعالى في حق من استهزأ بالنبي ﷺ ومن معه من أصحابه في غزوة تبوك كفر هو ومن معه، وخرجوا من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨٢٣).

(٢) «سير ابن هشام (٢/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٤) «الدرر السنية» (١٠/ ٤٧٣).

(٥) «المفردات» (٢٢٤).

(٦) «الصارم المسلول» (٥٣١) وانظر: (٥٤٠ و٥٤٦).

الملة بذلك قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦][(١)].

والسب أعظم وأشنع من مجرد الكفر لأن «السب والشتم إفراطٌ في العداوة وإبلاغ في المحادة مصدره شدة سفه الكافر وحرصه على فساد الدين وإضرار أهله»[(٢)]، ومما يبين أن السب قَدْرٌ زائد على الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨].

«ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين لرسوله ﷺ ثم نهي المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم الله، فعلم أن سب الله أعظم عنده من أن يشرك به ويكذب رسوله ويعادى»[(٣)].

وقد أجمع العلماء على كُفْرِ من سب الله أو سب رسوله ﷺ[(٤)].

قوله: مشرك كافر: أي اتصف بالشرك والكفر معًا فاجتمعا فيه، فهو مشرك لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله وكافر لأنه عاند الله في أمره ونهيه.

والقاعدة تقول: «**كل مشركٍ كافرٌ وليس كل كافر مشركاً**».

قال شيخ الإسلام: «كل مشركٍ مكذب برسول الله متنقص له، وليس كل من كذب الرسول أو تنقصه يكون مشركًا»[(٥)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٢٩) رقم (١٠٠٤٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٣٣-٣٣٤) رقم (١٦٩١٢).

(٢) «الصارم المسلول» (٣٦٩).

(٣) «الصارم المسلول» (٥٥٢).

(٤) «التمهيد» (٤/ ٢٢٦).

(٥) «الرد على البكري» (١٤٧).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧].

....

مَنْ: شرطية.

يدع: فعل الشرط وجوابه «فإنما حسابه عند ربه». وكلمة يدع تشمل نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

مع الله: مع تفيد المشاركة؛ فمن دعا غير الله فقد جعله شريكًا لله في العبادة، ولهذا قال: «إلهًا آخر» فكلمة الإله تطلق على كل معبود حقًا كان أو باطلًا. ولفظة «إلهًا آخر» تشمل كل معبود غير الله من مَلَكٍ أو نبي أو ولي أو غير ذلك.

لا: نافية للجنس.

برهان له به: البرهان: هو الحجة والبينة والدليل الذي لا يترك في الحق لَبْسًا.

وقوله لا برهان له به: صفة كاشفة مطابقة للواقع لازمة له.

وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام:٣٨] ومعلوم أن كل طير إنما يطير بجناحيه.

وجيء بها للتوكيد. وهي تفيد التهكم بمدعي إله مع الله تعالى[(١)].

والمعنى كل من دعا مع الله غيره فلا حجة له ولا بينة له على فعله.

«ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا مفهوم مخالفة له فلا يصح أن يقال: أما من عبد معه إلهًا آخر له برهان به فلا مانع من ذلك لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه بل البراهين القطعية المتواترة دالة على أنه هو المعبود وحده جلّ

---

(١) «تفسير القاسمي» (١٢/ ٤٤٢٢).

وعلا ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره البتة»[١].

فكلُّ دعوى بألوهية أحد مع الله هي دعوى ليس لها برهان لا من الدلائل الشرعية ولا الكونية ولا من الفطرة ولا من العقل.

فإنما حسابه: الفاء رابطة لجواب الشرط.

والحساب هو الجزاء على الفعل، ولم يبين ما هو جزاؤه ليكون أبلغ في الزّجْرِ.

وخص الحساب بأنه عند ربه ليفيد أمرين:

١- أنّه القادر على المجازاة والعقاب على هذا الفعل السيء فقط، ولن ينجو أحدٌ من أهل الشرك من عقابه.

٢- إذا استشعر العبد أن العقاب عنده وحده أوجب له ذلك إفرادَهُ بالعبادة، والخوفَ منه وحده فقط والبعد عن الشرك وعبادة الأصنام؛ لأنها لا تستطيع أن تعاقب ولا تثيب.

إنه: إن للتوكيد، الهاء: ضمير الأمر والشأن.

لا يفلح: لا نافية تنفي الفلاح عن الكافرين. والفلاح: هو الظفر وإدراك البغية.

ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه فلا يدرك ما يريد ولا يظفر به. وهو خالد مُخَلَّدٌ في النار، ولهذا فإنه في الغالب يؤخر عذابه حتى يلقى ربه ليكون عذابه أشدّ.

الكافرون: الكفر هو الستر والتغطية وسمي الكافر كافرًا لأنه يغطي الحق.

قال شيخ الإسلام: «حقيقة الكفر ومسماه هو عدم الإيمان باتفاق المسلمين»[٢].

فالكافرون هم الذين ليس عندهم شيء من الإيمان، وأتى بالكافرين بالألف واللام ليبين أن كفرَهم أكبرُ ناقل عن الملة.

---

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٨٣٣) وإن شئت الاستزادة فراجعه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٨٦).

وقبل أن نبدأ بالأدلة يحسن كتابة قاعدتين توضحان الاستدلال بها وهما:

القاعدة الأولى: كل أمر أَمَرَ الله به أو مدحه أو أثنى على من فعله فهو عبادة.

مثال ما أمر به، قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:١١٠].

وأما ما مدحه كقوله: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة:١٩]، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنة»(١).

وقال ﷺ: «والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»(٢).

أما الثناء على من فعله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾[الإنسان٧].

القاعدة الثانية: ما كان صَرْفُه لله عبادة فَصَرْفُه لغير الله شِركٌ.

يوضحها المثال: قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥].

فالدعاء مما أمر الله به فهو عبادة يجب صرفه لله، فيدعى وحده، ومثله الصلاة والزكاة والرغبة والرهبة والنذر وغيرها، فيصلي لله، ويزكي لله، ويرغب إلى الله، ويرهب الله، وينذر له وحده، فمن دعا غير الله فقد أشرك، ومن دفع زكاة ماله قاصدًا غير الله فقد

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٦٤)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. رقم (٧٤٩٢).

(٢) مسلم (١/ ٢٠٣)، كتاب «الطهارة»/ باب فضل الوضوء. رقم (٢٢٣).

أشرك، ومن رغب إلى غير الله فقد أشرك، ومثله لو رهب غير الله، ونذر لغير الله، ونحو ذلك.

وفي كتاب التوحيد بوب المؤلف بابًا سماه: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» ثم ذكر تحته قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢] فكيف يكون الاستدلال بهذه الآية؟

وجه الاستدلال أن الله أمره أن يكون ذبحه لله فيكون الذبح عبادة فلو صرفه لغير الله صار شركًا.

وفي الحديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»(١).

....

الدعاء مخ العبادة: أي خالص العبادة ولُبُّها، فَمُخُّ الشيء هو خالصه ولبه، وصار الدعاء مخ العبادة لأنه تَبرُّؤٌ من الحول والقوة واعتراف بأن الأشياء كلها منه وله ﷻ.

قال السعدي عند قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[غافر:١٤].

«وضع كلمة الدين موضع كلمة الدعاء -وهو في القرآن كثير جدًا- يدل على أن الدعاء هو لُبُّ الدين وروحُ العبادة»(٢).

فمعناه أن الدعاء هو أعظم العبادة وذلك كقوله ﷺ: «**الحجُّ عرفَة**»(٣) أي ركنه

---

(١) الترمذي (٥/ ٤٥٦)، كتاب «الدعوات»/ باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧١)، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». والطبراني في «الدعاء» (٢/ ٧٨٩) رقم (٨)، قال الألباني بعد أن ضعفه: «لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان». «أحكام الجنائز» (٢٤٧). ويظهر أن المؤلف أتى به هنا لأن اللفظ أصرح في بيان أهمية الدعاء فهو تفسير لقوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» فلا يضر ضعفه. وفعل ابن باز يشعر بذلك حيث قال عند هذا الحديث وفي الحديث «**الدعاء مخ العبادة**» وفي لفظ آخر: «**الدعاء هو العبادة**» «شرح الأصول الثلاثة» لابن باز (٤٦).

(٢) «القواعد الحسان» (١٥٥).

(٣) أحمد (٤/ ٣٠٩)، والترمذي (٣/ ٢٣٧)، كتاب «الحج»/ باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع، فقد أدرك الحج. رقم (٨٨٩)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥-٤٨٦)، كتاب «المناسك»/ باب من لم يدرك عرفة. رقم (١٩٤٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣)، كتاب «المناسك»/ باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع. رقم (٣٠١٥)، والنسائي (٥/ ٢٥٦)، كتاب «مناسك الحج»/ باب فرض الوقوف بعرفة. وصححه النووي في «المجموع» (٨/ ٩٥)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٦/ ٢٣٠)، «قال سفيان بن عيينة: هذا أجود حديث رواه سفيان الثوري. قال أبو عيسى: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق».

الأعظم[١] ويقويه الحديث الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادة ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» [غافر: ٦٠][٢].

(١) «شأن الدعاء» للخطابي (٥).

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٧) رقم (٧١٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٥٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٦)، كتاب «الدعاء»/ باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (٢/ ١٦١)، كتاب «الصلاة»/ باب الدعاء. رقم (١٤٧٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)، كتاب «الدعاء»/ باب فضل الدعاء. رقم (٣٨٢٨)، وصححه النووي في «الأذكار» (٣٨٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال ابن حجر: «أخرجه أصحاب السنن بسند جيد». «فتح الباري» (١/ ٤٩).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

....

وقال ربكم: أتى بكاف الخطاب ليدل على اختصاصهم بالرب جل وعلا، وذلك لأنهم عبدوه وحده دون المشركين.

ادعوني أستجب لكم: هذا من كرم الله ولطفه بعباده أَنْ دعاهم لما يصلح حالهم وهو دعاؤهم إياه ووعدهم بالاستجابة.

قال ابن عباس: وحِّدُوني أَغْفِرْ لكم، وقال السدي: سلوني أُعْطِكُمْ فيكون معنى أستجب لكم: أتقبل عبادتكم وأغفر لكم وأعطكم.

فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة(١).

قال الشوكاني: جعل جزاء الدعاء الإجابة ولهذا جزمه لكونه جوابًا للأمر(٢).

وقال القرطبي: «أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط»(٣)، وهذا من كمال فضله وجوده وإحسانه.

الباعث للدعاء ونتيجته:

يبعث على الدعاء أحدُ أمرين:

١- **طلب الحاجة وتفريج الكربة**: فيتضرع إلى الله بالدعاء ثم يفتح له التضرع من أبواب الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ما يكون أحب إليه من تلك الحاجة التي أهمته.

---

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ١٠٣).

(٢) «رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل» (٥٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٧).

٢- **العبادة والإنابة وامتثال الأمر**: وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية[١].

إن الذين يستكبرون: الاستكبار هو التعالي والتعاظم الذي يقود الإنسان إلى الامتناع عن قبول الحق والإذعان لله بالعبادة.

«فمن استكبر عن عبادة الله فلم يستسلم له فهو مُعطِّلٌ لعبادته وهو شر من المشركين، كفرعون وغيره»[٢].

عن عبادتي: أي عن طاعتي والخضوع لي.

سيدخلون جهنم: أي فعقوبتهم دخولهم النار دخولًا أبديًا جزاءً لهم على عدم عبادتهم لله.

داخرين: الداخر: هو الذليل الصاغر، أي: أنهم حال دخولهم النار ذليلين مهانين صاغرين.

وذلك أن العبادة لله هي غاية التذلل والافتقار والمسكنة له سبحانه فلما استكبر ولم يرض بالتذلل لله في الدنيا أذله الله يوم القيامة. وجعل جزاء ذلك النار والهوان والصغار.

فاجتمع عليهم عذابان:

١- حسي.

٢- معنوي.

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) «الصفدية» (٢/ ٤١٣).

وهذه الآية تضمنت نوعي الدعاء وهي في دعاء العبادة أظهر ولهذا أعقبها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» [غافر:٦٠](١).

وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ أي اعبدوني وأطيعوا أمري أستجب دعاءكم، وقيل: سلوني أعطكم. وكلا المعنيين حق(٢).

تطبيق القاعدة الأولى: وهي كل أمر أَمَرَ الله به أو مدحه أو أثنى على من فعله فهو عبادة.

نظرنا إلى الآية فإذا فيها الأمر بدعاء الله.

إذًا: الدعاء عبادة.

تطبيق القاعدة الثانية:

ما كان صرفه لله عبادة فصرفه لغير الله شرك فنقول لما كان الدعاء لله عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

فمن دعا غير الله فقد أشرك.

---

(١) «التفسير الكبير» لابن تيمية (٤/ ٢٩٧).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٣).

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

....

أول هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

إنما: تفيد الحصر.

ذلكم: إشارة إلى جميع ما جرى من أخبار الركب الذين طلب منهم أبو سفيان أن يبلغوا رسولنا محمدًا ﷺ الرسالة.

والشيطان: هو المثبط لكم بمكره ومن مكره أنه ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي يخوف المؤمنين من أوليائه ولهذا قال الله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقيل: يخوفكم بأوليائه يعني: يعظمهم في صدوركم لئلا تجاهدوهم وتأمروهم بالمعروف وتنهوهم عن المنكر.

كأن يقول: عندهم من القوة والعتاد ما ليس باستطاعتكم مُقَابَلَتُهُ، والمقصود: «بأولياء الشيطان» هم جندُه وأنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر والكفر.

فلا: لا ناهية تفيد التحريم والمنع.

تخافوهم: أي لا تخافوا أنصار الشيطان وامضوا فيما أمرتكم به وأوجبته عليكم من الجهاد ونصرة الدين.

وخافون: أي أن الذي يجب أن يُخَافَ هو الذي يملك الأمور وهو الله وحده.

إن: شرطية.

كان: فعل الشرط، **وكنتم مؤمنين**: جملة الشرط.

فإذا وجد الشرط وجد المشروط وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فإذا وجد الإيمان وجد الخوف من الله وحده.

وإذا انتفى الإيمانُ وجِدَ الخوفُ من غير الله.

«فَكُلَّما قَوِيَ إيمانُ العبد زال مِنْ قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»[1]. قال الإمام أحمد: «لو صححت ما خفت أحدًا»[2]. وجواب الشرط محذوف تقديره: فخافوني. أي فلا تخافوهم وخافوني.

ويؤخذ من قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فائدتان:

١- أن الإنسان إذا كان الله معه فإنه لا يغلب ولكن يحتاج إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام.

٢- أن وساوس الشيطان التي يلقيها على ابن آدم لا يمكن صرفها إلا بالإيمان[3].

أقسام الخوف في هذه الآية:

١- تخويف الشيطان للمؤمنين بأوليائه أو من أوليائه وهذا شرك (الخوف الشركي).

٢- أَمْرُ الله المؤمنين أن يخافوه وحده وهذا إيمان وتوحيد (الخوف العبادي التوحيدي).

تطبيق القاعدة:

أَمْرُ الله بالخوف منه يدل على أن الخوف عبادة، فصرفه لغير الله شرك، فالخوف من غيره شرك أكبر.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٠).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (١٩٥).

(٣) انظر: «القول المفيد» (٣/ ١٦٨).

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [**الكهف**:١١٠].

....

قال الله قبل هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فالنبي ﷺ بشر أكرمه الله بالوحي. وأعظم ما أكرمه به هو أن إلهه إله واحد وهو الله فمن آمن به وجب أن يوحده ويفرده بالعبادة.

فقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: إنها تفيد الحصر فيكون معناها: ما أنا إلا بشر مثلكم فلا حق لي من العبادة، ثم بين من يستحقها، فقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أنها تفيد الحصر والقصر فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد وهو الله، فإذا ثبت ذلك فإنه لا يليق بكم أن تشركوا معه غيره في العبادة[1] ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾.

من: شرطية.

كان: فعل الشرط.

ويرجو لقاء ربه: جملة فعلية خبر كان أي يؤمل لقاء ربه لقاء رضا وقبول، وهو اللقاء الخاص بالمؤمنين.

فليعمل: الفاء رابطة لجواب الشرط. واللام لام الأمر، والمقصود بالعمل هو فعل الطاعات.

والأمر هنا للإشارة أي من كان يريد أن يلقى الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه فليعمل عملًا صالحًا[2].

صالحاً: صفة للعمل والعمل الصالح ما كان موافقًا للشرع في هيئته ونيته. أما في

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٢٢٩).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٢٢٩).

هيئته، فلقوله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا؛ فهو رَدّ**»[١].

ونيته: أي مُبْتَغىً به وَجْهُ الله تعالى لقوله ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**»[٢][٣].

ولا يشرك: لا ناهية.

أي لا يعبد ربه رياءً وسمعة ولا يصرف شيئًا من حقوقه لأحد من خلقه.

بعبادة ربه: خص العبادة لأنها خالص حق الله تعالى ولهذا أتى بعدها بكلمة ربّ إشارة إلى العلة فكما أن ربك خلقك ولم يشاركه أحد في خلقك فيجب أن تكون العبادة له وحده[٤].

أحدًا: نكرة في سياق النهي فتفيد تأكيد العموم.

مفهوم المخالفة للآية: أن الذي يشرك أحدًا في عبادة ربه ولا يعمل صالحًا، أنه لا يرجو لقاء ربه، والذي لا يرجو لقاء ربه لا خير له عند الله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾[الكهف:١٠٥-١٠٦] لأن من كفر بلقاء الله فإنه لا يرجو لقاءه، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾[العنكبوت:٢٣] وغير ذلك كثير[٥].

فدلت الآية بمنطوقها ومفهوم المخالفة أيضًا أن الراجي حقيقة لا يقع منه الشرك، ومن وقع منه الشرك فرجاؤه غير حقيقي ولا مقبول.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالعمل الذي هو علامة الرجاء الحقيقي بل لا رجاء إلا به فدلَّ على أن الرجاء عبادة. ولما كان الرجاء عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذان الحديثان ميزانا الأعمال فالأول: ميزان الأعمال الظاهرة، والثاني: ميزان الأعمال الباطنة.

(٤) «القول المفيد» (٢/ ٢٣٠).

(٥) «أضواء البيان» (٤/ ١٩٩).

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣].

....

بعد أن ذكر قصة موسى عليه السلام مع قومه وكيف أنهم جبنوا عن الدخول إلى الأرض المقدسة بيّن أن أهم ما يعينهم على الدخول هو صدق الاعتماد والتوكل على الله تعالى فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

الواو: استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتوصيتهم بالتوكل على الله.

على الله فتوكلوا: أي اعتمدوا على الله وفوضوا أموركم إليه وحده.

إن: شرطية. **كنتم**: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي **فتوكلوا** وهذا دليل على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر أي لا تتوكلوا إلا على الله، لا على غيره فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى فهو مِنْ أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥](١).

قال ابن القيم عند هذه الآية: «فجعل التوكل شرطًا في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل»(٢).

مَنْ: شرطية.

يتوكل على الله: أي يعتمد عليه ويفوض أمره إليه، ويتوكل فعل الشرط.

---

(١) «فتح المجيد» (٢/ ٥٨٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٥).

فهو حسبه: أي كافيه من كل سوء مكروه.

فجعل التوكل سببًا لكفاية الله عبده ولهذا قال الله لما أمر رسوله بالتوكل عليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء:١٧١].

قال ابن مسعود: «إن أكبر آية في القرآن تفويضًا ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]»[١].

قال الربيع بن خثيم: «من كل ما ضاق على الناس»[٢].

«وفي هذه الآية دليل على أن التوكل على الله أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْبًا له»[٣].

«حسبه: أي كافيه ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذىً لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش وأما ما يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبدًا... قال بعض السلف: «جعل الله لكل عمل جزءً من نفسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره»[٤].

---

(١) «جامع البيان» (٢٨/ ١٤٠)، والتوكل على الله لابن أبي الدنيا (٨٧) رقم (٥٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٠٥) كتاب «الرقاق»/ باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠٢).

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٠).

ومن الأمثلة على أن من توكل على الله كفاه شر عدوه: ما حدث للصحابة بعد معركة أحد حيث إن عدوَّهم لما قفلوا راجعين إلى مكة تشاوروا أن يرجعوا إلى المدينة ليستأصلوا شأفة المؤمنين على حدِّ زعمهم ولكن المؤمنين توكلوا على ربهم فكفاهم كيد عدوهم ورده خاسئًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] «عقّب الله هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل، بحرف الفاء وهي تفيد السبب فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل.

وفي الأثر: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[(١)][(٢)].

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالتوكل عليه وحده فدل على أن التوكل عبادة يجب صرفها لله سبحانه وحده.

ولما كان التوكل عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) «جامع الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام (١/ ٩٠).

(٢) وقد رفعه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف في كتابه «التوكل على الله» (٦٠) رقم (٦٠).

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

....

إنّ: للتوكيد.

هم: يعود على جميع الأنبياء المذكورين في السورة على القول الراجح.

يسارعون في الخيرات: الخيرات كل طاعة، مدحهم الله في مسارعتهم في فعل الطاعات لدلالته على حرصهم العظيم على ما يقربهم من ربهم، قال القاسمي: «إيثار «في» على «إلى» للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير»[١].

ويدعوننا رغبًا ورهبًا: رغبًا في رحمة الله ورهبًا من عذابه فجمعوا بين الخوف والرجاء وهذه هي حال عباد الله الصالحين، قال عبدالله بن حكيم: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو له أهل وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾»[٢].

وقال ابن زيد: «خوفًا وطمعًا ليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر»[٣].

وكانوا لنا خاشعين: مُخبتين متواضعين أذلاء وذلك لكمال معرفتهم بربهم.

---

(١) «تفسير القاسمي» (١١/ ٤٣٠٥).

(٢) «المصنّف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٨).

(٣) «جامع البيان» (١٠/ ٨٤).

فضموا إلى المسارعة بفعل الطاعات أمرين:

١ - الفزع إلى الله وذلك بالرغبة في الثواب والرهبة من العقاب.

٢ - المخافة الثابتة في القلب. فالخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفًا من الإثم.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على الراغبين الراهبين الخاشعين ومدحهم فدل ذلك على أن الرغبة والرهبة والخشوع عبادة يجب إخلاصها كلها لله.

ولما كانت الرغبة والرهبة والخشوع عبادات صار صرف كلٍّ واحدة منها لغير الله شركاً.

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة:٣].

....

أما الخشية فإن الله لما ذكر الله المحرمات التي كان يفعلها الكفار نهى عنها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي خروج عن أمر الله وطاعته إلى ما نهى عنه وزجر من معاصيه وفي الغالب يكون خروج الإنسان من الطاعة إلى المعصية ومن التوحيد إلى الشرك بسبب خوفه من الناس وخشيته منهم. لأجل ذلك بيَّن الله ضعف الكافرين فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾[المائدة:٣]، ولما أخرج هيبتهم من قلوب المؤمنين نهى عن خشيتهم، وأوجب خشيته وحده، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة:٣].

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فاء التفريع والسبب، أي: بسبب ضعفهم لا تخشوهم.

لا: ناهية تفيد التحريم والمنع من خشية غير الله، لأنه لا يملك النفع والضر إلا الله كما في حديث ابن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّة لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَك، ولَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُروكَ لَمْ يَضُروكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْك**»[(١)].

﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: أي أفردوا الله بالخشية كي تسعدوا في الدنيا والآخرة فإنه هو المستحق لها وحده كما قال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١٣] والأمر للوجوب بل هو أعظم الواجبات لأنه أمر بتوحيده وإفراده سبحانه بالخشية، ونهى عن خشية الناس.

وأمر سبحانه بإفراده وحده بالخشية لأمرين:

١- أن غيره لا يملكون القوة فليس لخشيتهم مسوِّغ ولا فائدة بل هي مضرة.

٢- لأن خشية الناس شرك، وخشية الله عبادة فلا يجتمعان في قلب عبد أبدًا.

---

(١) سبق تخريجه.

وخشية الله رأس كل خير فهي أساس العلم ورأسه قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار به جهلًا»(١) وقال أيضًا: «رأس الحكمة مخافة الله»(٢).

تطبيق القاعدة:

أمر الله بخشيته وحده فدلَّ على أن الخشية عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الخشية عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩١)، و«الزهد» لابن المبارك (١٥)، و«الزهد» لأبي داود (١٨٧).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٧٧).

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾[الزمر:٥٤].

....

وبعد أن ذكر الله المشركين والعصاة من بني آدم -بين أن لهم موعدًا سيندمون فيه ويتحسرون على ذنوبهم وتفريطهم حتى تصل بهم الرغبة بالخلاص من هوله وشدته أن لو افتدوا بما في الأرض جميعًا ومثله معه ولكن هيهات، لا يمكنهم ذلك، ثم فتح لهم بابًا يسلمون إن هم ولجوه في هذه الدنيا وهو باب الرجاء المستلزم للتوبة والعمل الصالح، فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣] ثم بيَّن لهم أعظم أسباب المغفرة وهي الإنابة إليه والإسلام له، فليسارعوا إليها قبل حلول العذاب.

فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾: الإنابة: هي الرجوع إلى الله بمعرفته والإقبال عليه والإعراض عما سواه أي: ارجعوا إلى ربكم وأعرضوا عن غيره.

﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: الإسلام: هو الخضوع والطاعة. وقيل: أخلصوا له العمل، قال البغوي: أخلصوا له التوحيد.

فيكون المراد بالإسلام هنا الإسلامَ الشرعيَّ لأمر الله، فهو استسلام لله بالتوحيد وانقياد له بالطاعة وبراءة من الشرك وأهله.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالإنابة إليه وحده فدلّ على أن الإنابة عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الإنابة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]. **وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»**[1].

....

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي إياك نوحد ونخاف ونرجو، فحصر العبادة لله تعالى، سواء كانت العبادة قلبية أو بدنية وذلك أنه قدم ما حقه التأخير وهو المعبود ليفيد الاختصاص والحصر فهو بمثابة قول القائل: لا نعبد إلا إياك.

وإياك نستعين: أي لا نستعين في أمورنا وعبادتنا إلا بك فقدم ما حقه التأخير وهو المستعان به ليفيد الاختصاص والحصر، فهو بمثابة قول القائل: لا نطلب العون إلا منك وحدك، «وإتيانه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة لأن غيره ليس بيده الأمر»[2].

قال بعض السلف: «الفاتحة سِرُّ القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأول تَبرُّؤٌ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحوْل والقوة»[3].

وينبغي أن يعلم أن القلب فيه فقر ذاتي إلى ربه ومعبوده فلا تحصل له الراحة واللذة والطمأنينة إلا بعبادة ربه ولا يستطيع أن يعبد ربه إلا بإعانته له فهو مفتقر دائمًا إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولهذا كان النبي ﷺ يربي صحابته على الاستعانة بالله وحده كما في حديث ابن عباس: «**وإذا استعنت فاستعن بالله**»[4].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «أضواء البيان» (١/ ٤٢).

(٣) «تفسير القاسمي» (٢/ ١٢).

(٤) سبق تخريجه.

وقدم العبادة على الاستعانة في الآية لأمور:

١- أنَّ العبادة غاية والاستعانة وسيلة فالغاية مقدمة على الوسيلة[١].

٢- إياك نعبد متعلق بألوهيته واسمه الله، وإياك نستعين متعلق بربوبيته واسمه الرب، فقدم إياك نعبد كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة.

٣- العبادة المطلقة تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابدٍ لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس.

٤- العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص.

٥- العبادة: حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة.

٦- العبادة شكر نعمته عليك والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، وكلما كان العبد أتم عبودية لله كانت الإعانة من الله له أعظم.

٧- «(إياك نعبد) له (وإياك نستعين) به، وما «له» مقدم على ما «به»؛ لأن ما «له» متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته»[٢].

فائدة تكرار إياك: الدلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحدٍ من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه[٣].

أما قوله: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله**»: «أي إذا أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة»[٤]، فاستعن بالله وحده.

---

(١) «النبوات» (١/ ٣٧٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٧٦-٧٧).

(٣) المرجع السابق (١/ ٧٨).

(٤) «تحفة الأحوذي (٧/ ٢٢٠).

فعليك أن تحصر الاستعانة بالله فتفرده بها فلا تستعين بغيره.

تطبيق القاعدة:

أمر النبي ﷺ بالاستعانة بالله وحده فدلّ على أنَّ الاستعانة عبادةٌ يجب صرفها لله وحده. ولما كانت الاستعانة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١].

....

قل: يا محمد.

أعوذ برب: أي ألوذ به وألتجئ وأعتصم بالرب، وهو الله جل وعلا وأستجير به.

الفلق: كل ما فلقه الرب فهو فلق، قال الزجاج: الفلق: بَيانُ الصُّبْح، ثم ذكر قولاً آخر فقال: والفلق الخلق. وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق؛ كانفلاق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر، فالفلق جميع المخلوقات وفلق الصبح من ذلك[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[الأنعام:٩٥]، وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾[الأنعام:٩٦].

فالمعنى أن القادر على إخراج النبات من الأرض وإنزال المطر من السحاب والقادر على إزالة الظلمة وإحلال النور محلها قادر على أن يدفع عن المستعيذ كل ما يخافه من شرور الإنس والجن. فاستعذ به وحده.

قل أعوذ: أي قل يا محمد أعوذ.

برب الناس: الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره.

وخص الناس بالذكر لأنهم هم المستعيذون بربهم الذي يصونهم من شر كل ذي شر.

ففي الآيتين:

١- مستعاذ به: وهو رب الفلق والناس.

٢- مستعيذ: وهو النبي ﷺ وأتباعه من المؤمنين.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٩/ ١٥٦-١٥٧).

٣- مستعاذ منه: وهو شر كل ذي شر ومنه الوسواس والغاسق إذا وقب والنفاثات والحاسد.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالاستعاذة به وحده فدلَّ على أن الاستعاذة عبادةٌ يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الاستعاذة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

....

خرج النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يريدون عير قريش فأراد الله غير ذلك، فَنَجَّا العيرَ منهم، ولكن قريشًا خرجت بخيلائها وفخرها وجيوشها تحارب المسلمين، وليس مع المسلمين من العدة والعتاد ما يكفي للقاء العدو فوقعوا في شدة عظيمة حتى إن النبي ﷺ خشي أن تموت هذه العُصابُة فلا يعبد الله أبدًا.

فاستغاث بربه فاستجاب الله دعاءه ونصره ومَنْ معه من المسلمين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا. فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه «**اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني. اللهمَّ آت ما وعدتني. اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأمده الله بالملائكة(١).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: أي تطلبون الغوث(٢) من ربكم، وتستجيرون به من عدوكم.

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٤)، كتاب «الجهاد»/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم. رقم (١٧٦٣).

(٢) وهو التخلص من الشدة.

«إذ: متعلق بفعل محذوف تقديره واذكروا إذ تستغيثون»[١].

والمغيث بمعنى المجيب لكن الإغاثة أخص بالأفعال والإجابة أخص بالأقوال وقد يقع كلٌّ منهما موقع الآخر[٢].

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾: أي فأجاب دعاءكم وأمدكم بالملائكة ونصركم على عدوكم فهو المغيث في الكرب والشدائد فاستغيثوا به وحده.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على المستغيثين به وحده مؤكدًا هذا الثناء باستجابته لاستغاثتهم به وهذا دليل رضاه عنهم إذْ حصروا الاستغاثة به وحده فدل على أن الاستغاثة عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الاستغاثة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٥)، و«الرد على البكري» (٢١٤).

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

ومن السنة: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(١).

....

﴿قُلْ﴾: أي يا محمد قل للمشركين رافعًا صوتك مبينًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص وأنك مخالف لما هم عليه من الشرك.

﴿صَلَاتِي﴾: جميع الصلوات التي أُؤديها.

﴿وَنُسُكِي﴾: أي ذبحي(٢) لله تعالى، فالنُّسُك هو الذبيحة ابتغاء وجهه، لذلك جعله الله تقوى فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾[الحج:٣٧]، وذلك أنّ «الذبحَ للمعبود غايةُ الذل والخضوع له»(٣).

وسميت الذبيحة نسكًا لدخولها تحت التعبد ولهذا لا يسمون ما يذبح للأكل نسكًا.

والذبح لله وحده هو الموافق للفطرة ولذلك لما استقامت فطرة زيد بن عمرو بن نفيل استنكر على قريش الذبح لغير الله فعن عبدالله بن عمر، قال: «إن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد: إني لست آكلُ مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكلُ إلا ما ذكر اسم الله عليه وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها

---

(١) مسلم (٣/ ١٥٦٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، ولعن فاعله. رقم (١٩٧٨).

(٢) وهذا هو الذي رجحه جمع من السلف، انظر «جامع البيان» (٥/ ١١٢). وتفسير ابن كثير (٥١٧).
ورأى بعض أهل العلم أن معنى النسك أي العبادة بعمومها.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٨٤).

الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له»[(١)].

الحكمة من ذكر هاتين العبادتين والجمع بينهما:

أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به العبد إلى الله، فأجل العبادات البدنية الصلاة وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أصحاب القلوب الحية وأصحاب الهمم العالية فهي دالة على القرب والتواضع والافتقار وطمأنينة القلب إلى الله.

وأجل العبادات المالية النحر وما يجتمع للعبد في نحره من إيثار الله وحسن الظن به وقوة اليقين والوثوق بما في يد الله أمر عجيب. إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص[(٢)].

﴿وَمَحْيَايَ﴾: أي وما آتيه في حياتي من عمل صالح[(٣)].

﴿وَمَمَاتِي﴾: أي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح وما يكون بعد الموت كالوصية والتدبير[(٤)].

فعلى هذا التفسير يكون متعلقهما توحيد الألوهية كالصلاة والنسك.

وقيل: هو يحييني ويميتني[(٥)]، فعلى هذا التفسير يكون متعلقهما توحيد الربوبية.

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم (٣٨٢٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣١-٥٣٢).

(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ١٤٦)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٩٢).

(٤) المرجع السابق. وانظر: «حاشية ابن قاسم» على كتاب «التوحيد» (٩٦).

(٥) المرجع السابق. وقد ذكر هذين القولين عامة المفسرين.

والقول الأول أرجح لما يلي:

١- الآية التي قبلها. فإن الله أمره أن يصدع بالأصل الذي هو عليه، وهو التوحيد، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

٢- أن هذه الآية تابعة لما قبلها فَمَثَّلَ فيها بأعلى العبادات البدنية والمالية ثم عطف عليها جميع ما يفعله في حياته من طاعة لله وما يموت عليه من ذكره للشهادة عند الموت.

٣- قوله في الآية التي بعدها: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي أني أمرت بإخلاص العبادة لله -سواء كانت صلاة أو نسكًا أو غيرها- ولو كنتم تخالفونني وتشركون مع الله غيره في العبادة.

أما توحيد الربوبية فلم ينازعوا رسول الله ﷺ فيه. فلم يَحْتَجْ أن يقول لهم أمرت أن أقر بأن الله هو المتصرف في حياتي ومماتي. والله أعلم.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي خالصة لله الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له فهو رب العالمين ومدبر أمورهم فلا يستحق العبادة غيره.

قال الطبري: «أي أَنّ ذلك كلَّه له خالصًا دون ما أشركتم به أيها المشركون من الأوثان»(١).

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾: أي لا أصرف لأحد منها شيئًا مهما عظمت مرتبته وعلا شأنه.

ودلت هذه الآية على وجوب التوحيد وإفراده لله بالعبادة من وجوه:

(١) تأكيدها «بإنّ» ومجيء التأكيد في الجمل الخبرية يفيد أن المخاطب مُنْكِرٌ لذلك أو مُنَزَّلٌ منزلة من أنكره فيكون الاستدلال بها على التوحيد لكونه خوطب بها من ينكر أن

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ١٢٥).

تكون الصلاة والذبح لله استحقاقًا وهم المشركون فدل على أنها في التوحيد وأن الذبح يجب أن يكون لله.

(٢) أن هذه الألفاظ الأربع «صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي» تدل على التوحيد وذلك لأن اللام في قوله «لله رب العالمين» متعلقة بمحذوف خبر إِنَّ فتفيد الاستحقاق.

(٣) قوله: «لا شريك له» فالعبادة كلها له والملك كله له سبحانه.

﴿وَبِذَٰلِكَ﴾: الجار والمجرور متعلق بِأُمِرْتُ فيكون دالًا على الحصر والتخصيص وإنما خص بذلك لأنه أعظم المأمورات «أي الإخلاص لله ونفي الشرك»[1].

﴿أُمِرْتُ﴾: الآمر هو الله تعالى وأبهم الآمر للتعظيم والتفخيم[2]. وفيه فائدة: وهي أن أَمْر النبي ﷺ بالتوحيد أمْرٌ لأمته.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي أسبقهم انقيادًا لأمر الله تعالى وذلك لكمال علمه بالله والمسلمون هنا هم مسلمو أُمَّة محمد ﷺ فأولهم هو رسول الله ﷺ.

الأولية تطلق ويراد بها:

(١) الأولية الزمنية: فهو أول هذه الأمة إسلامًا لأنه نبيها.

(٢) أولية معنوية: وذلك أنه أكمل الخلق أجمعين إسلامًا وطاعة وتعبدًا فتكون أولية مطلقة.

(٣) أنه أول الخلائق يوم القيامة لقوله ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة**»[3]، وقوله ﷺ عن خازن الجنة أنه يقول له يوم القيامة: «أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»، ولا

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) مسلم (٢/ ٥٨٥)، كتاب «الجمعة»/ باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة. رقم (٨٥٥).

منافاة بينها فهي له كلها ﷺ.

لعن الله: أي لعنه وطرده وأبعده عن رحمته. ولعن: هنا خبر من النبي ﷺ «أن كل من ذبح لغير الله فهو ملعون ومطرود من رحمة الله. وذلك لأن الخبر أبلغ لأنه يفيد وقوع اللعن بخلاف الدعاء فقد يستجاب وقد لا يستجاب»[١].

من ذبح لغير الله: من: تفيد العموم أي كل ذابح لغير الله أَيَّ ذبيحة كانت فهو ملعون مطرود من رحمة الله.

لغير الله: أي كل ما سوى الله حتى لو كان المذبوح له ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا.

وذلك أن الذبح عبادة والعبادة خالص حق الله تعالى فلا يجوز صرفها لغيره، فهذا التصرف هو أظلم الظلم وأشنعه.

تطبيق القاعدة:

أمر الله نبيه ﷺ أن يكون ذبحه لله وحده فدلّ على أن الذبح عبادة يجب صَرْفُها لله وحده، ولما كان الذبح عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

(١) «القول المفيد» (١/ ٢٢٣).

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

....

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾: خبر وثناء[١]. ويدل لذلك ما قبلها من الآيات ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٥-٧].

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾: استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم. كأنه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟[٢].

﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ أي يخافون من يوم القيامة وما فيه من الأهوال، ولذلك علّل سبب خوفهم فقال: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾: أي فاشيًا منتشرًا في السموات والأرض من انشقاق السموات وتناثر الكواكب، وفزع الملائكة، وتكوير الشمس والقمر، ونسف الجبال، وتسجير البحار، وغيرها، فخافوا أن ينالهم شره فتركوا كل سبب موجب لذلك.

وكانوا مخلصين لله في وفائهم بالنذر وإطعامهم الطعام فلذلك قبل الله منهم ووقاهم شر ذلك اليوم ولقَّاهم نضرةً وسرورًا.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على الموفين بالنذر فدلَّ على أن النذر عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كان النذر عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٤٤).

(٢) «تفسير القاسمي» (١٧/ ٦٠١١).